أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

مدير المجلة ورئيس التحرير
أحمد حسن الزيات
العنوان
إدارة الجامع الأزهر
بالقاهرة
ت : ٤٦٢١٤

مجلة الأزهر

مجلة شهرية جامعة

تصدر عن مشيخة الأزهر في أول كل شهر عربي

يشترك في القطر
عباس محمود العقاد
بدل الاشتراك
٤٠ في الجمهورية العربية المتحدة
٥٠ خارج الجمهورية
وللمدرسين والطلاب تخفيض

الجزء السادس — السنة الرابعة والثلاثون — شعبان سنة ١٣٨٢ هـ - يناير ١٩٦٣ م

بسم الله الرحمن الرحيم

عصرنا الذهبي الرابع

بقلم : أحمد حسن الزيات

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

سيدي الرئيس :

(١) إن العصور الذهبية العربية التي تقدم فيها العلم ، وازدهر الأدب ، وارتقت الحضارة ، وتطورت الحياة ، ثلاثة :

عصر الرشيد وابنه المأمون في بغداد ، وعصر العزيز وابنه الحاكم في القاهرة ، وعصر الناصر وابنه الحكم في قرطبة . وهذه الأعصر الثلاثة كانت مراحل للتقدم البشري في طريق الكمال الممكن ، إلا أنها كانت تتسم بسمات الأرستقراطية ، فلا يكاد خيرها يجاوز النطاق الخاص ؛ فقاعات العروش ، وأبهاء القصور ، ودواوين الحكم ، كانت تفيض بالثراء والنعمة ، وتزخر برجال العلم والأدب والفن والحكمة .

أما الشعوب فكانت قطعانا تستغل ، وموارد تستنزف ، وطبقات يعلو بعضها بعضا بحكم النسب أو السلطان أو الثروة ، فما كان ينالهم من فضل العصر إلا القدر المحتوم من الرخاء

(١) نص الكلمة التي ألقيت في عيد العلم نيابة عن الفائزين بجوائز الدولة التقديرية والتشجيعية .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

العام والخير المشترك . حتى أراد الله أن يكون للعرب عصر ذهبي رابع يكمل نقص هذه الأعصر جميعا ، فكان عصرك يا سيدى الرئيس ! عصرك الذى أشرق إشراق الشمس وأقبل إقبال الربيع ؛ فيه الحرارة والنور ، وفيه النضارة والخصب . عصرك الذى طبقت فيه مبادئ الإسلام التى فهمت ولم تعتقد ، أو اعتقدت ولم تطبق ، فالأمر شورى ، والحكم عدل ، والرزق شركة ، والناس سواسية ، والشعب حاكم .

عصرك ياسيدى الرئيس قد انفرد من بين العصور بأنه عصر الإنسان الكريم ، والمواطن الحر ، والعامل الكادح ، والعالم المجتهد ، والأديب المستقل . فكل منهم يشعر اليوم بأن له حقا يناله ، وواجبا يؤديه ، ورزقا يكفيه ، ووطنا يعتز به .

عصرك عصر السلام والوئام والوحدة ، فأنت تسعى دائبا للسلام الدائم بين الدول ، وللوئام الكامل بين الشعوب ، وللوحدة الشاملة بين العرب ، لا تبتغى من وراء أولئك كله إلا ما ابتغاه ذوو الرسالات من قبلك .

وسينتشر ضوء ميثاقك المحكم الهادى فى كل نفس ، وفى كل أرض انتشار كلمة الله لأنه الحق الذى وضعه الله فى شرعه ، والمنهج الذى سنه لجميع خلقه .

سيدى الرئيس :

إن الأدب الذى تكرمه الليلة فى أهله قد بشر بك ومهد لك ودعا إليك . ففى أغسطس من عام ١٩٣٥ قالت مجلة الرسالة : « نحن فى مجموع الناس أوزاع وأتباع ننظر إلى الأمم تعمل وإلى العالم يسير بعين بلهاء لا يجاوز بصرها مدى العجب ، وعلتنا أن ساستنا وقادتنا كلهم من رجال القول لا من رجال الفعل ، ومن أرباب القلم لا من أرباب السيف ، ومن جنود القانون لا من جنود (الأوامر) ثقفوا على مباحث الكتب . ودربوا على مكاتب الدواوين وحرموا التربية العسكرية وهى وحدها القائمة على الخطة والنظام والأمر والتنفيذ والتضحية والشرف » .

وفى أبريل من سنة ١٩٤٠ تنبأت الرسالة بالرجل المنتظر فقالت مانصه : « إن للرجل الذى تنتظره الأمة العربية آيات تمهد له وتدل عليه . فمن الآيات المهيئة لظهوره انحلال الأخلاق فلا تماسك فى قول ولا فعل ، وتقاطع القلوب فلا تتواصل فى وطن ولا دين ، واستئثار النفوس فلا تتعفف فى صداقة ولا نسب ، وجموح الشهوات فلا تنقمع بلين ولا شدة .

ومن آياته المنبئة بوجوده أن يكون لغيره لا لنفسه ، ولأمته قبل أسرته ، ولإنسانيته بعد وطنيته ، ومصداق

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

تلك الآيات أن تموت (الأنا) فى لسانه وتحيا فى ضميره ، ويتحد فى ذهنه وجود ذاته بوجود شعبه ، فهو يحس ألمه لأنه بجتمع شعوره ، ويدرك نقصه لأنه بجتلى عقله ، ويملك قيادته لأنه مظهر إرادته ، وهو فى سمو نفسه ونزاهة هواه قد ارتفع عن أوزار الناس وأقذار الأرض ، فلا يطمع لأن غرضه أبعد من الدنيا ، ولا يحقد لأن همه أرفع من العداوة ، ولا يحابى لأن فضله أرفع من العصبية ، ولا يقول قولا ولا يعمل عملا إلا إذا وافق الدين الذى يعتقده والمبدأ الذى يؤيده والشعب الذى يقوده ، ثم هو فى ألمعية ذهنه ورصانة لبه وصلابة عوده وبعد همته يعظم على الأحداث ويعلو على الحوائل ، فلا ينضج رأيا إلا أمضاه ، ولا يرمى غرضا إلا أصابه ، ولا يروم أمدا إلا أدركه ».

ثم ختمت الرسالة مقالها بهذا الدعاء :

رباه : لقد امتد بنا التيه فى مجاهل الأرض إلى قرون . وفسد فى نفوسنا الإيمان بالحياة حتى تحول إلى ظنون . فمتى نخرج من التيه يارباه خروج موسى ، ونتبوأ من صدر الحياة العاملة مكان محمد ؟ اللهم إنا نسألك الراعى الذى يطرد الذئب ، والخيط الذى يجمع الحب ، والدليل الذى يحمل المصباح ، والقائد الذى يرفع العلم ، والأستاذ الذى يعلمنا أن نصنع الإبرة والمدفع ، ونشق المنجم والحقل ، ونوفق بين الدين والدنيا ، ونوحد بين المنفعة الخاصة والمنفعة العامة . وكل أولئك يارباه يجمعهم رجل واحد هو أشبه الناس بالمهدى المنتظر والمسيح الموعود ».

ذلك ياسيدى الرئيس ما تنبأت به الرسالة قبل قيام ثورتك المباركة باثنتى عشرة سنة ، وقد صدقت النبوءة واستجيب الدعاء ، فهل كانت تنظر إليك بلحظ الغيب ؟ .

سيدى الرئيس : إذا تفضلت الليلة على رجال العلم والفن والأدب بالتقدير والتشجيع فإنك تقدر سلاحا من أمضى أسلحتك ، وتشجع جنودا من أخلص جنودك . وإنى أتقدم بأسمائهم جميعاً وباسمى إلى سيادتك بأصدق الشكر وأعمقه ، ونسأل الله أن يديم عصرك ويعز نصرك ويتم عليك وعلى أصحابك نعمة التوفيق؟

أحمد حسن الزيات

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الشخصية السماوية للأمة

لفضيلة الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت

شخصية الشيء هي ما يحقق وجوده، ويميزه عن غيره، ويعرف به في ذاته وآثاره ولو أتيح لنا أن نتصور شيئاً ما، دون أن تكون له شخصية لما أمكن الحكم عليه بالوجود، ولظل في الأذهان مجرد صورة ليس لها واقع تتعلق به الأنظار، أو تتجه إليه الآمال، أو تصدر عليه الأحكام، أو يدخل به في حساب الأحياء.

والوجود منه حسي لابد له من شخصية حسية، ومنه معنوي لابد له من شخصية معنوية، والشيء لا يحظى بالوجود الكامل، ولا يستحق عنوان الوجود، إلا إذا نال نصيبه من الشخصيتين: الحسية والمعنوية، وعندئذ يتحقق له الوجدان الحسي والمعنوي ويكمل في صورته ومعناه.

وإذا كان للأفراد كما ترى شخصية حسية، تحقق لها وجودها الحسي، فلها أيضا شخصية معنوية تحقق لها وجودها المعنوي.

وشخصية الأفراد الحسية ترجع إلى ما لها من صورة وشكل، وحركة وسكون وما كل ومشرب، واستقرار وارتحال.

وشخصيتها المعنوية ترجع إلى مقدار ما لها من تماسك وتخلخل، وثبات وتردد، ونفع وضر، وإذا ما خلت الأفراد عن الروح الذي يحقق لها مركزا في الوجود، ويفيض عنه آثارها التي هيئت لها، وظلت في وجودها عند شخصيتها الحسية كانت فاقدة للوجود المعنوي، وكانت بفقدها إياه، ظلا لغيرها، تتحرك بحركته إذا تحرك، وتسكن بسكونه إذا سكن، وتفكر بعقله إذا فكر وهكذا لا ينسب إليها شيء من آثار الإنسانية التي يتبوأ الإنسان مركزها في الحياة.

شخصية الأمة:

وإذا كان للفرد شخصية حسية، وأخرى معنوية وبتحققهما يتحقق وجوده في ذاته وفي آثاره، وبفقدهما يفقد وجوده الحسي فلا تتحقق ذاته ويفقد وجوده المعنوي فلا يكون له آثار، فإن الأمة كالفرد في ذلك كله لها شخصية حسية، تحفظ عليها وجودها الحسي، وأخرى معنوية تحفظ عليها وجودها المعنوي، وترجع شخصيتها الحية إلى إقامتها في إقليمها الذي نشأت فيه ونسب إليها

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

أو نسبت إليه ، وافترشت أرضه ، والتحفت سماءه ، وضربت فى أرجائه ، وتغذت بثماره وارتوت بمائه .

وترجع شخصيتها المعنوية إلى وزن شعورها بقيمتها فى الحياة العامة ، وإلى ما تفترضه لنفسها من نصيب فى أعباء تلك الحياه ، وإعداد مسالك الخير أو الشر فيها ، وإلى مقدار ما تنفع به أو تضر نفسها أو غيرها من سلوكها ومن صلتها باتجاهات الخير أو منازع الشر .

وإذا ما انعدمت هذه الشخصية المعنوية أوضعفت ، ووقفت الأمة بنفسها على حدود شخصيتها الحية ، انعدم وجودها المعنوى أو ضعف ، وصارت أمة ذليلة ، وإن كانت مقيمة فى بيتها ، فقيرة ، وإن كان ينزل عليها المن والسلوى ، وتنبع لها قناطير الذهب والفضة ، قليلة ، وإن ضاقت وديانها بأفرادها فهى كما قال الرسول عليه السلام ، « غثاء كغثاء السيل » تتهافت عليها الأمم ذات الشخصيات الكادحة ، كما تتهافت الأكلة على قصعتها ، تملكها الوهن ، وملأها الجبن ، وعزبت عنها عناصر العمل .

الشخصية البشرية :

والشخصية المعنوية للأمم ، منها شخصية تستمد خططها من العقل البشرى يضعها الإنسان بوحيه الخاص ، وشعوره الخاص ، ويعمل جهده فى تمسك الناس بها ، وتنزولهم عليها ، وهى لذلك تتعدد وتتباين تبعا لتعدد مصدرها وتباين التقدير البشرى فى أساسها وغايتها ، وهى فى جميع ألوانها وأهدافها تدور حول اعتبارات مادية لا تتصل بالروح ، ولا بالفكرة السامية التى تتخذ الوحدة الإنسانية أساس شخصيتها المعنوية ، وميدان عملها فى الحياة .

ومن هنا تختلف الأمم السبل ، وتنزع كل أمة إلى البناء على أساسها الخاص ، وتنشأ عن ذلك المنافسات وتنبت العداوات ، وتوجد الأحقاد والأطماع ، ويكون الاستغلال وتكون الفتن المفرقة ، والحروب الطاحنة والتفنن فى وسائل التخريب والتدمير .

وبذلك يصير العالم ، كما نراه اليوم ـ وقد بعدت عنه عناصر الخير ، وتخلت عنه أرواح الأمن والسلم ، على فوهة من الجحيم ، ينتظر من آن إلى آخر ، الوقت الذى يسقط فيه إلى الهاوية .

وما حديث الذرة وأخواتها ، وما التحكم فى الشعوب وشد الخناق عليها ، ومحاولة سلب حقوقها ، إلا تعبير صادق عن الحلقة الأخيرة من هذه الحلقات المحزنة المخربة ، التى جرت وتجر الويلات على العالم بسبب تحكم هذه الشخصيات التى ابتدعها الإنسان سيرا مع

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

شهواته ، ثم أفرغ وسعه فى إخضاع الناس لها وتسخيرهم بها « هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة ، وقضى الأمر وإلى الله ترجع الأمور » .

وسيظل العالم يبعد عنه الخير . ويقترب من الشر ، ما دامت أمه تتردد بين أمة فقدت شخصيتها المعنوية وسكنت إلى الذلة والضعف والفاقة ، وأمة تتخذ لنفسها تبعا لهواها شخصية تجوس بها خلال غيرها من الأمم ذات الوهن ، وتسلبها عزها وإرادتها .

الشخصية السماوية :

ولا سلامة للعالم من طغيان القوة والجبروت ، ولا من ذلة الضعف والهوان ، إلا إذا خلصت الأمم ذات الشخصيات البشرية الطاغية ، نفسها من إطار تلك الشخصيات ، ورمت بها إلى قاع المحيطات ، ورجعت إلى هذه الشخصية المعنوية التى رسمها العليم الخبير بطبائع البشر ، طريقا لسعادته ، ونزل بها الروح الأمين على رسل الله .

ثم أخذت على عاتقها غرس تلك الشخصية فى الأمم الأخرى التى حصرت وجودها فى دائرة شخصيتها الحسية ، ذات المآكل والمشارب ، ذات اللهو واللعب والحرمان من معنى الحياة الحقة التى خلق لها الكون وجعل الإنسان خليفتها يقودها وينظمها « فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى . ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى . قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى » .

وهذه الشخصية السماوية ، نزل بها القرآن ، وبين معالمها ، وأوضح عناصرها وهدى الناس إليها . « وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » آمن بها فريق من الناس حينا من الدهر ، وبنوا حياتهم على أساس منها فوجهوا أنفسهم ووجهوا العالم إلى كثير من آفاق الخير . « فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه » حتى ران زخرف الحياة على قلوبهم ، وشغلوا بشهواتهم ، وغرتهم الحياة الدنيا « نسوا الله فأنساهم أنفسهم » وأسلموا أنفسهم لأرباب الشخصيات الأخرى . وتعلقوا بأذيالهم فى كل شىء . فى علمهم إذا طلبوا العلم . وفى قوتهم إذا طلبوا القوة ، وفى اقتصادهم إذا طلبوا الاقتصاد ، وفى نظامهم إذا طلبوا النظام ، وفى قانونهم إذا طلبوا القانون ، وفى حضارتهم إذا طلبوا الحضارة .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وهكذا نزعوا شخصيتهم ، وتفرقت بهم السبل ، وانحازت كل طائفة منهم إلى أهل شخصية خاصة ، يستظلون بظلهم ، ويطلبون منهم العون والنصرة وبذلك ذابوا فى غيرهم ، وفقدوا وجودهم كأمة لها فى الحياة وجود خاص ، ومنهج خاص .

تفرقوا عن رباطهم المقدس الذى يربط قلوبهم بالعزة ، وفقدوا جميع الوسائل التى تدفعهم إلى الالتفاف حول ذلك الرباط ، والاعتصـــام بحبله « وإنا لله وإنا إليه راجعون» .

عودوا إلى شخصيتكم .. عودوا إلى شخصيتكم السماوية التى أكملها الله لكم ، وربط بها خيركم وفلاحكم .

عودوا إليها وأقيموها فيما بينكم من جميع جوانبها ، لتأتلف قلوبكم ويقوى سلطانكم ، وتنفذ كلمتكم ، وتصان عزتكم .

عودوا إلى شخصيتكم وأنقذوا بها أنفسكم من هول ما يحيطكم ويتربص بكم . وأنقذوا بها العالم من الجمر الذى يتقلب فيه ، كما أنقذه بها من قبل أسلافكم .

إن الشخصية هى الشخصية ، لا تزال بينة واضحة فى كتابها ، والعالم هو العالم لايزال ينقاد بطبعه إلى الخير متى وجد إليه سبيلا ، ولكن كونوا أنتم كما كان آباؤكم ، واعلموا « أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

محمود شلتوت

البـــــلاغة

قيل للفـارسى : ما البلاغة ؟ قال : معرفة الفصل من الوصل .

وقيل لليونانى : ما البلاغة ؟ قال : تصحيح الأقسام ، واختيار الكلام .

وقيـل للرومى : ما البلاغة ؟ قال : وضوح الدلالة ، وانتهاز الفرصة ، وحسن الإشارة .

وقال بعض أهل الهند : جماع البلاغة البصر بالحجة ، والمعرفة بمواضع الفرصة .

ثم قال : ومن البصر بالحجة ، والمعرفة بمواضع الفرصة ، أن تدع الإفصاح بها إلى الكناية عنها ، إذا كان الإفصاح أوعر طريقة .

وربما كان الإضراب عنها صفحاً أبلغ فى الدرك ، وأحق بالظفر .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الأدب العربي المعقول الذين لا يعقلون !

للأستاذ عباس محمود العقاد

الذين لا يعقلون يسألون عن حكم العقل الصراح ، وعن الرأى المقنع ، فى اللامعقولية واللامعقول !

« واللامعقولية » هى دعوة من دعوات الزمن الأخير ، فحواها - إن صح أن يكون لمثلها فحوى - أن الفن عمل لا يعقل ولا يفهم ، وإنما يحس ويقاس ، ولكن بغير مقياس !

وأصحاب هذه الدعوة آخر من يحق لهم أن يغضبوا إذا قيل عنهم إنهم سخفاء يشتغلون بالسخف الذى لا معنى له ولا محل لإبداء الرأى فيه ، إذ كان السخف شرطا من شروط اللامعقول واللامفهوم ، بل هو عنصره الذى لا يتجرد منه بحال لأنه - إذا تجرد منه - كان له معنى ، ودخل فى حيز المعقول المفهوم .

وأعجب العجب أن يسألوا الناس آراءهم فى شىء لا يجوز لهم أن يكون لهم رأى فيه .

وأعجب من هذا أن تروج دعوة بغير رأى ، وبغير موافقة أو مخالفة ، تستندان إلى دليل .

فإذا كانت « اللامعقولية » دعوة تلغي العقل باختيار أصحابها أو على الرغم منهم ، فهى ضرب من المرض العقلى والمرض النفسانى يعالج على هذا الأساس ، وإنه لكذلك مرض لا شك فيه ، تعرف أسبابه وعوارضه من ظواهر هذا العصر التى سبقت لها نظائرها فى العصور الغابرة ، كما تعرف من ظواهره التى لم يسبق لها نظير .

والظواهر التى سبقت لها نظائر كثيرة قبل القرن العشرين هى اضطراب الأحوال فى ظروف الانتقال ، وأزمات الحروب المتوالية أو الثورات الاجتماعية والعالمية .

أما الظواهر التى اختص بها القرن العشرون منذ نهاية القرن السابق فهى - من جهة - شيوع الكلام على الأطوار النفسية والعوارض العقلية ، وهى - من جهة ثانية - قدرة الجهلاء والمصابين على التحدى والمكابرة بالنقص وعوارض السخف والجهالة ، لخلطهم بين الحرية من الطغيان وبين الحرية من الخجل ، ومما يخجل الإنسان وينبغى أن يخجله فى كل زمان ، وقد تطورت هذه الحالة بعد فقدانهم الخجل من الحاجة « المالية » إلى فقدان الخجل من كل حاجة ولو كانت حاجة إلى المعرفة أو إلى الفطنة أو إلى الذوق ، وبلغ من شطط هذه اللجاجة ، أو هذه « اللاخجولية » قياسا على تعبيراتهم المعهودة أن أحدهم واجه الفيلسوف الأسبانى « أنامونو » فى درسه

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الأخير بهذا النداء : « لتسقط الثقافة » وفقاء بنداء أقبح منه وهو « ليحي الموت » . . فأجابه الفيلسوف قائلا : « إذن لتمت الحياة ! » .

فى العصور الغابرة كان الجاهل الذى يعلم من نفسه قصور العلم والذوق يخجل من إقحام نفسه فى مجال الرأى والدراية ولا يخفى اجتهاده لمشابهة غيره ممن هم أعلم منه وأدرى بمسائل الذوق والثقافة ، ولكنه فى هذا العصر يسىء فهم الحرية فيخيل إليه أن حريته فى إبداء الرأى تمحو الفوارق بين الآراء ، وأن قدرته على تحدى المفضلين عليه بالمال والجاه تخوله أن يتحدى المفضلين عليه بالفهم والذوق ومزايا المواهب والأخلاق ، وربما التقط من فضلات الدراسات النفسية كلمة هنا وكلمة هناك فلا يعترف بالعيوب إذا لزمته وتحققت نسبتها إليه ، بل يقول فى تسويغها لنفسه وتسويغها لمن حوله : إنها مسألة مزاج ... إنها من الخصائص السيكولوجية ... إنها من عمل الوعى الباطنى . إنها من النقائص المشتركة فى الخفاء بين جميع الأحياء من أبناء آدم وحواء .

ولا نظن كلمة شاعت عن هذه الدراسات النفسية بين الدهماء فكان لها أثر أسوأ من أثر هذا « الوعى الباطنى » كما فهمه الذين يجهلون معناه والذين يتخطفون أوائل الكلمات فيتعالمون بها على من يجهل حقيقتهم كما يجهل حقيقة اللغو الذى يبدئون فيه ويعيدون .

فالوعى الباطنى عند هؤلاء المتخطفين المتعالمين خلقة جديدة فى الدنيا لم تكن مخلوقة فيها قبل أيام « فرويد » وزملائه من أصحاب الدراسات النفسية الحديثة .

والوعى الباطنى إذن قد خلق فى هذا العصر ليلغى الحس الظاهر الذى كان نصيب الأقدمين من الوعى كله ولم يكن لهم نصيب سواه ، فلا ترى العين ولا تسمع الأذن ولا يشم الأنف ، ولا يعمل العقل ، ولا يجوز للحواس أن تشعر شعورها ولا للفنون أن تعبر تعبيرها بعد اليوم ، بل يجب أن تلغى الحواس ولا يسمح لها أن تعمل إلا بالمقدار الذى يتناوله التشويه والخلط والإسفاف مجاراة للوعى الباطنى الذى يعيه كل أحد كما يدعيه ، ولا مقياس له ولا سبيل إلى تمييز هذا الذى يدعيه ! و « اللامعقولية » هى وليدة واحدة من ولائد كثيرة من هذا الوعى الباطنى الذى بطل الوعى بعده ظاهره وخافيه .

وهكذا يفهمه المتخطفون المتعالمون ، ولكنه لم يفهم قط هذا الفهم عند أصحابه الذين اختاروا له هذا الاسم بين عشرات الأسماء التى عرفه بها الأقدمون ، ويكفى أن نذكر منها : الضمير والوجدان والطوية والخبيئة والسريرة والخلد والروع والهواجس والدخيلة والوسواس : عشرة من عشرات تزدحم بها المعجمات .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وإنما فهم علماء الوعى المحققون أن « اللامعقولية » نزوة عارضة تغلب الإنسان على فكره كلما ثقلت عليه مؤنة الجد والوقار فينطلق من قيود العرف على حدة ، أو مع الناس ، كأنهم فى أجازة عارضة يباح فيها ما لا يباح ، ثم ينتهى الأمر عند هذا ولا يصح أن يتمادى بالناس منفردين أو مجتمعين وراء مداه .

وهكذا كان العقلاء يقولون : « إن اللذة هى اطراح الحشمة » وهكذا نشأت المساخر والكرنفالات ، وأبيحت المهازل للقنعين والمتنكرين ، وهم لا يبيحونها سافرين .

عارض يمر وحالة لا تدوم ، ولا يريح العقل ولا « اللا عقل » أن تدوم .

أما أصحابنا جماعة « اللا معقولية » فكل ما فهموه أنها مرسوم صدر بإلغاء العقل إلى آخر الزمان ، فلا يصح التعقل بعد اليوم ولا يكون التعقل إلا ضربا من الرجعية أو الجمود على القديم ، فلا يليق التعقل « بالعقلاء » فى عصر التقدم والتجديد .

أمتقدمون ومجددون وعقلاء ؟ !

معاذ الله ... إنما التقدم والتجديد أن نقفز إلى الوراء ، إلى حظيرة البهيمة العجماء عهد اللا معقولية واللامخجولية واللاحياء .

* * *

وليس غير العامية وأختها البيبغاوية يحسبان أن إلغاء العقل شىء يفهم ويجوز أخذ الرأى عليه ، وإبداء حكم العقل فيه .

وليس غير العامية والبيبغاوية معا شىء يسول لأصحابه أن يحسبوا هذا اللغو « مذهبا » علميا أو فنيا تقام له المدارس ويتتلمذ عليه الطلاب ويجرى النقاد على حكمه فيما يقيسون وما يقدرون ، وعلى أى مقياس يا ترى ؟ ! وبأى مقدار يكون التقدير ؟

سبحان الله ! وهل من المعقول أن يسأل هذا السؤال أو ذاك عن مذهب « اللامعقول » .

إن الآداب العربية فى جانبها المبتذل قد عرفت هذه « اللامعقولية » ووضعتها فى موضعها « المعقول » قبل القرن العشرين ببضعة أجيال ، فأعطت هذه « اللامعقولية » كل ما تستحقه من التفات الأديب الشاعر أو الزجال ، وسمتها بالاسم الذى لا يحق لجماعة « اللامعقولية » أن يغضبوا منه ، لأنه اسم الفن أو الدور المجنون .

ومنذ سنوات ثلاث أشرنا إلى ذلك فى محاضرة عن تجديد الشعر ألقيناها بمجمع اللغة العربية وختمناها بهذه الفقرات :

« ... لا تفوتنا فى معرض الكلام على الشطط الفنى ملاحظة وثيقة الصلة بموضوع الخلط الذى يقال عنه إنه هو التعبير الصادق دون غيره عن الوعى الباطن والسريرة الإنسانية فى أعماقها اللا منطقية على حد تعبيرهم المأثور . فالخلط الهاذر مذهب لم يخلقه دعاة اللا منطقية فى القرن العشرين ، ولكنهم خلقوا شيئاً واحداً فيه لم يسبقهم

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

أحد إليه ، وهو إطلاق العناوين العلمية عليه ... وقديماً وجد فى الشعراء والفنانين من يجنح به هواه أحياناً إلى رفع الكلفة واطراح الحشمة والابتذال فى اللفظ أو المعنى أو فى كليهما ، فيسترسل فى الهذر واللغط كأنه فى أجازة من نفسه (الفضلى) كما يقولون وينسب إلى هذه النزوات شعر المجانة والهزل وشعر الإباحة والجموح ، وينسب إليه كذلك ضرب من الشعر الذى يخيل إلى الناس أنه محدثهم بالحكم والأمثال وهو فى أسلوبه الهازل ساخر بضروب الحكمة والمثل ، ومنه قصائد ابن سودون اليشبغاوى الملقب بالمجنون ، وقد كان ينظمه قبل خمسة قرون ، قال :

عجب عجب عجب عجب
بقر تمشى ولها ذنب
ولها فى بزبزها لبن
يبدو للناس إذا حلبوا
لا تغضب يوما إن شتمت
والناس إذا شتموا غضبوا

... ومن أمثلة هذه اللامعقولية فى الزجل منظومات كثيرة وردت فى مجاميع الزجل وأشهرها كتاب ترويح النفوس لحسن الآلاتى ، وهذا مثال منها :

كسرت بطيخة رأيت العجب
فى وسطها أربع مداين كبار
وفى المداين خلق مثل البقر
فى كل واحدة أربع قواعى خضار

وهذا مثال آخر :

يا ليل ياعين معرفش اكذب
والضفدعة شايلة مركب
وأبو فصادة ريسها
والقط الأعور حارسها

وغيرها وغيرها مما لا يحصى فى صفحات المجاميع وعلى ألسنة الناس من عامة الرواة والزجالين .

أناس متواضعون طيبون ، معقولون وهم ينظمون الفن المجنون ؛ لأنهم لا يسمونه (باللامعقولزم) ولا باللامعقولية ، ولا يعرضونه بديلا من العقل المحكوم عليه بالإلغاء ولا للذوق الذى لا موضع فيه للفهم ولا للحياة ، وكل ما يدعونه لهذه (اللامعقولية) منهم أنها تنفيس معقول فى ساعة عارضة وفى أجازة من تكاليف الجد ومتاعب الحياة ، يؤخذ فيها الرأى فيقال حيث تقال الآراء ، وبخلاف ذلك كل سؤال عن (اللامعقولزم) ما الرأى فيه ؟

ولا محل للرأى فى مذهب لن يقول منكروه فى إنكاره أسوأ من قول القائلين فى تأييده :

إنه شىء غير معقول ، وغير مفهوم !

عباس محمود العقاد

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

نظرات فى فقه عمر

لفضيلة الأستاذ محمد محمد المدنى

— ١٠ —

أنبتنا فى مقالنا السابق من هذه النظرات الحديث الذى رواه مالك فى الموطأ عن خروج عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى الشام واستشارته — وهو فى الطريق إليها — المهاجرين والأنصار ممن كانوا معه فى أمر الوباء الذى علم أنه قد وقع بها .

وتحدثنا عن سنة عمر فى الشورى وما يوحى به هذا الحديث وغيره فى شأنها ومسلكه فيها .

وقد جاء فى آخر هذا الحديث : أن نقاشا وقع بين عمر وأبى عبيدة رضى الله عنهما ، إذ قال أبو عبيدة لعمر حينما قرر الرجوع التماسا للنجاة بنفسه وبمن معه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من خطر الوباء : أفراراً من قدر الله ؟ فقال عمر : لو غيرك قالها يا أبا عبيدة ! نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله . أرأيت لو كان لك إبل فهبطت واديا له عدوتان ، إحداهما خصبة ، والأخرى جدبة ، أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله . وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله ؟ فجاء عبد الرحمن بن عوف — وكان غائباً فى بعض حاجته — فقال : إن عندى من هذا علما : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه ، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه — قال الراوى : فحمد الله عمر ، ثم انصرف .

هذه هى القضية التى جعلها عمر موضع الشورى فى الحديث الذى أسلفنا ، وهى قضية « القدر » وإنها لمن القضايا التى حارت فيها العقول قديماً وحديثاً ، وشغلت الناس فى مختلف الديانات والفلسفات العقلية ولقد كان فقه عمر فيها هو فقه العقيدة الإسلامية الصحيحة ، وفقه المنطق السليم فى شأن الألوهية وما أقامت عليه العالم من سنن لا تتبدل ولا تتحول .

بيان ذلك : أنه كثيراً ما يقع فى أذهان الناس أن قضاء الله وقدره ماداما قد سبقا ، فلا فائدة فى الأعمال ، ولا داعى لتوسيطها بين ما قضى به الرب ، وما يصير إليه أمر العبد ، فلابد من وقوع القضاء الذى قضاه الله مهما كان من العبد .

ويقولون : مادامت هذه العقيدة من أوكان

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الإيمان ، وأنه لا يؤمن أحد إلا إذا كان معتقداً بها ، فسوف يتكل عليها الناس ، وسوف ينصرفون عن الأعمال واثقين بأنهم صائرون إلى ما قدره الله ، وبذلك تتعطل القوى ، وتتوقف المصالح ، ويبطل الإيمان بقيمة العمل وماله من أثر فى سعادة الإنسان أو شقائه ، وفى قيمة الأسباب والعوامل المؤدية إلى قوة الأمم أو ضعفها ، وعزتها أو ذلها ، وتقدمها أو تأخرها .

وقد يصل الأمر ببعض الذى يتبعون ما تشابه من آيات الله ابتغاء الفتنة ، إلى أن يقولوا : إن الإيمان بقضية القضاء والقدر على نحو ما يؤمن المسلمون ، هو الذى بعث فى شعوبهم الاسترخاء ، وذللهم لعوامل القهر والذل التى سلطها عليهم الاستعمار والظلم ، فقد رضوا بالفقر باسم القضاء والقدر ، ورضوا بالذل والاضطهاد باسم القضاء والقدر ، ورضوا بالظلم من الملوك معتقدين أنهم مسلطون عليهم بقدر من الله «ولو شاء ربك ما فعلوه» إلى غير ذلك من مقتضيات الإيمان بهذه العقيدة .

هكذا يقولون : منهم من يقوله مختاراً ، ومنهم من يقوله إنكاراً ، ومنهم من ينطوى عليه فى نفسه ولا يجهر به خوفا من أن يتهم بالزندقة أو الخروج على تعاليم الدين وعقائده أو تهرباً من الجدال والمصادمات الفكرية التى لا تقف عند حد .

وينبغى أن نعلم أن هناك فرقا بين المتحيرين والمتحيزين فى هذه القضية ، فإن المتحيرين لديهم شبهة يريدون فى إخلاص وصدق أن يعالجوها لتنجلى عن قلوبهم فيكمل إيمانهم ، ويكون إيمانا عن بصيرة ، على عكس المتحيزين الذين لا يريدون إلا إثارة الشكوك ، وإيقاع الناس فى الفتنة عن دينهم وعقائدهم .

وقد سبق إيراد هذا السؤال أو التساؤل من الصحابة على النبى صلى الله عليه وسلم ، فأجابهم بما فيه الشفاء والهدى ؛ ففى الصحيحين عن على بن أبى طالب قال : كنا فى جنازة فى بقيع الغرقد فأتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه مخصرة فنكس فجعل ينكت بمخصرته ثم قال: ما منكم من أحد ، ما من نفس منفوسة إلا كتب مكانها من الجنة أو النار ، وإلا قد كتبت شقية أو سعيدة ، فقال رجل: يارسول الله ، أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل . فمن كان منا من أهل السعادة فسيصير الى عمل السعادة ، ومن كان منا من أهل الشقاوة ، فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة فقال : اعملوا فكل ميسر ؛ فأما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة ، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة ، ثم قرأ ، فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى . وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى » .

وعن عبد الله بن عمر أنه قال: نزل ، فمنهم

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

شقى وسعيد ، فقال عمر : يا نبى الله : علام نعمل ؟ على أمر قد فرغ منه أم لم يفرغ منه قال : لا ، على أمر قد فرغ منه ، قد جرت به الأقلام ، ولكن كل ميسر ، وأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى . وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى » .

وخلاصة الهدى النبوى فى جلاء هذه الشبهة أن القدر مرتبط بما سنه الله للعالم من سنن ، فإذا كان الله تعالى قدر لفلان أن يرزق بولد مثلا ، فإن ذلك مرتبط فى التقدير نفسه بأن يكون له امرأة على سبيل النكاح أو غيره ، يتصل بها فتنجب منه هذا الولد ، فلا يقال سيرزقه الله الولد الذى قدر له سواء اتصل بامرأة ام لم يتصل ؛ لأن التقدير شامل للأصل وللوسيلة معا .

ويشرح هذا المعنى ابن القيم فى كتابه (شفاء العليل) فيقول : « اتفقت هذه الأحاديث ونظائرها على أن القدر السابق لا يمنع العمل ولا يوجب الاتكال عليه ، بل يوجب الجد والاجتهاد . ولهذا لما سمع بعض الصحابة ذلك قال : ما كنت أشد اجتهاداً - فى وقت ما - منى الآن ، وهذا مما يدل على فقه الصحابة ، ودقة أفهامهم ، وصحة علومهم ، فإن النبى صلى الله عليه وسلم أخبرهم بالقدر السابق وجريانه على الخليقة بالأسباب ، فإن العبد ينال ما قدر له بالسبب الذى أقدر عليه ، ومكن منه ، وهيئ له ، فإذا أتى بالسبب ؛ وصله الى القدر الذى سبق له فى أم الكتاب ، وكلما زاد اجتهادا فى تحصيل السبب ؛ كان حصول المقدور أدنى إليه . وهذا كما إذا قدر له أن يكون من أعلم أهل زمانه ، فإنه لا ينال ذلك إلا بالاجتهاد والحرص على التعلم وأسبابه ، وإذا قدر له إن يرزق بالولد ؛ لم ينل ذلك إلا بالنكاح أو التسرى والوطء ، وإذا قدر له أن يستغل من أرضه من المغل كذا وكذا ؛ لم ينله الا بالبذر وفعل أسباب الزرع ، وإذا قدر الشبع والرى ؛ فذلك موقوف على الأسباب المحصلة لذلك من الأكل والشرب واللبس ، وهذا شأن أمور المعاش والمعاد ، فمن عطل العمل اتكالا على القدر السابق ، فهو بمنزلة من عطل الأكل والشرب والحركة فى المعاش وسائر أسبابه اتكالا على ماقدر له ، وقد فطر الله سبحانه عباده على الحرص على الأسباب التى بها مرام معاشهم ومصالحهم الدنيوية . بل فطر الله على ذلك سائر الحيوانات . فهكذا الأسباب التى بها مصالحهم الأخروية فى معادهم . فإنه سبحانه رب الدنيا والآخرة ، وهو الحكيم بما نصبه من الأسباب فى المعاش والمعاد ، وقد يسر كلا من خلقه لما خلقه له فى الدنيا والآخرة ، فهو مهيأ له ميسر له . فإذا علم العبد أن مصالح

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

آخرته مرتبطة بالأسباب الموصلة إليها ، كان أشد اجتهاداً فى فعلها والقيام بها منه فى أسباب معاشه ومصالح دنياه ، وقد فقه هذا كل الفقه من قال : ما كنت أشد اجتهادا منى الآن ... فالنبي صلى الله عليه وسلم أرشد الأمة فى القدر إلى أمرين هما سببا السعادة : الإيمان بالأقدار فإنه نظام التوحيد ، والإتيان بالأسباب التى توصل إلى خيره ، وتحجز عن شره ... والنبي صلى الله عليه وسلم شديد الحرص على جمع هذين الأمرين الأمة ، وهو القائل « احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ، ولا تعجز » ـ والعاجز من لم يقسع للأمرين[1]

* * *

وهذا هو المعنى الذى دعا عمر بن الخطاب إلى أن يقول فى جوابه عن سؤال أبى عبيدة : نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله ، يريد أن المرض والصحة كلاهما قدر ، ولهذا القدر سبب فى كل منهما ، فمن أخذ به كان موصلا إلى ما قدر له ، فتعرضه للوباء يعرضه للمرض لأن العدوى سنة من سنن الله فى الخلق ، ولكن العدوى هى أيضاً قدر ، له سبب أو أسباب ، فربما وقعت بالقرب من المريض والاختلاط به ، وربما لم تقسع ، لوجود حصانة فى بعض الأشخاص مثلا ، فعدم الحصانة سبب جعله الله تعالى موصلا إلى العدوى بالمرض ، والحصانة سبب جعله الله موصلا للنجاة منها ، والمؤمن يجب عليه أن يبتعد عن مظنة الإصابة احتياطا على نفسه ، وتحرزاً من الأسباب الموصلة إلى الضرر عملا بقوله تعالى : « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » ، وحينئذ تكون نجاته بقدر من الله أيضا ، حيث ربط هذه النجاة بسبب هو الابتعاد والتحرز ، ولذلك كان عمر رضى الله عنه موفقا تمام التوفيق فى قوله : (نفر من قدر الله ، إلى قدر الله) كما كان موفقا تمام التوفيق فى المثل الذى ضربه ، حيث يقول : أرأيت لو كان لك إبل فهبطت واديا له عدوتان ، إحداهما مخصبة والأخرى جدبة أليس إن رعيت المخصبة رعيتها بقدر الله ، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله ؟ يريد عمر أن رعى المخصبة يوصل إلى صلاح الإبل ، فصلاح الإبل قدر ، وكونه بسبب رعى المخصبة قدر مرتبط به ، وكذلك يقال فى رعى الجدبة إن رعاها ، فرعى الجدبة قدر يوصل إلى فساد الإبل أو هلاكها ، وكلاهما مرتبط بالآخر .

---

(١) ص ٢٥ ، ٢٦ من كتاب (شفاء العليل فى مسائل القضاء والقدر والتعليل) للإمام العلامة ابن القيم ـ الطبعة الأولى سنة ١٣٢٣ هـ بالمطبعة الحسينية المصرية .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وهذا لا ينافى الإيمان بأن الله هو الفاعل المتصرف وحده ، لأنه فى نظر المؤمن هو مسبب الأسباب ، وموفق العاملين إلى الأخذ بها ، وهذا هو السر فى أن الإنسان يجب عليه أن يجمع بين أمرين : هما الأخذ بالأسباب ، وسؤال الله التوفيق

* * *

وفى الحديث بعد ذلك : (أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : إذا سمعتم به - أى بالوباء - بأرض فلا تقدموا عليه ، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه) .

وهذا هو قانون الحجر الصحى الذى تأخذ به كل الأمم المتحضرة ، دل عليه الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وأدركه عمر بنظره الثاقب . ثم حمد الله تعالى على أن هداه الله إليه ، واطمأن لما عرف أن هذا هو هدى الرسول صلى الله عليه وسلم .

ومن الواضح أن خروج الناس من بلد وقع بها الوباء يؤدى إلى حتفهم (الميكروبات) التى هى الأسباب المهيئة بأمر الله وقدره للعدوى والمرض . فيجب أن يعمل المؤمنون على حصر هذه الأسباب فى مكان الوباء كما تحصر النار حتى يقضى عليها فلا تترك فتنتقل إلى أماكن أخرى ، ولا يصح أن يتركوا أسباب العدوى والمرض تنتقل وتنتشر اعتمادا على أن كل شىء بقدر ، كما لا يصح أن تترك النار تسرى اعتمادا على مثل ذلك .

ومن الواضح ايضا أن إقدام الناس على أرض فيها الوباء إنما هو تعرض لأسباب البلاء ، فلا يجوز للمؤمن أن يفعله اتكالا على قدر الله . فإن الله تعالى هو الذى قدر الأسباب كما قدر المسببات . وبالله التوفيق ؟

محمد محمد المدنى
عميد كلية الشريعة

من الشعر الجيد قول ابراهيم بن المهدى يرثى ابنه :

نأى آخر الأيام عنك حبيب ... فللعين سح دائم وذروب
دعته نوى لا يرتجى أوبة لها ... فقلبك مسلوب وأنت كئيب
يثوب إلى أوطانه كل غائب ... وأحمد فى الغياب ليس يثوب
تبدل داراً غير دارى وجيرة ... سواى وأحداث الزمان تنوب
أقام بها مستوطنا غير أنه ... على طول أيام المقام غريب
كأن لم يكن كالغصن فى ميعة الضحى ... سقاه الندى فاهتز وهو رطيب

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

نفحات القرآن

العقيدة أولاً ثم العمل

للأستاذ عبد اللطيف السبكى

ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر ، أولئك حبطت أعمالهم ، وفى النار هم خالدون ...

١ — لنا فى الحياة أعمال ومقاصد ، وأعمالنا وسيلتنا إلى مقاصدنا .

وابتغاء المقاصد من غير عمل فى سبيلها : سفه فى التفكير ، وحرمان من الرشد .

كما أن العمل العقيم دون مقصد مكفول : سفه فى التصرف ؛ والبطالة على قبحها خير منه ، وأهون بكثير . .

وإليك مثلا — فى جانب الدنيا — رجل يطمح فى الكسب والثراء ، ولكنه لا يأخذ بالوسائل الجدية المشروعة : فكأنه يريد اغتصاب المسببات دون أسبابها ، وهذا خروج عن سنة الله فى تنظيم الحياة لنا ، وعدوان كريه .

ومن أجل ذلك حرم الله السرقة ، والربا ونحوهما ؛ لأن الكسب فيها من غير طريق العمل المشروع . .

ومثلا آخر — فى جانب الدين — أناس يعملون خيراً فى ظاهره ، ولكنه عمل مبتور عقيم ، لا ينتج ثوابه ؛ لأنه غير مبنى على عقيدة من إيمان صادق كما شرط الله على عباده أن يؤمنوا — أولا — ثم يعملوا على أساس الإيمان « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات — ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن ... » .

فمن لم يكن على إيمان يملأ قلبه فعمله هباء ومجهوده ضائع فى هواء ، وهذا كالكافر ، والمرائى فى إيمانه . .

٢ — ولدينا نبذة من قصص القرآن عن مشركى مكة : فيها نمط فسيح للتربية ، وتركيز المبادىء الحقة . .

كانت للبيت الحرام قداسة عند العرب منذ عاصروه . .

ومع انحرافهم عن دين إسماعيل ، وخوضهم فى الشرك ، وعبادة الأوثان : فقد ظل البيت الحرام ملء عيونهم ، وقلوبهم ، ورمز مجدهم .

حتى كانوا يتزاحمون على خدمته ، واقترابهم فى المسكن من مبانيه ، وتنافسهم فى إكرام الحجيج إليه من كل حدب .

فلما جاء الإسلام حسبت قريش أن صلتهم

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

بالبيت ستظل قائمة ولو لم يسلموا ، وأن تعميرهم له حق موروث فيهم وإن كفروا بربهم .

ولكن الله - سبحانه - بين لهم وللمسلمين أن الاتصال بالبيت الحرام يقتضى الإيمان ، وأن نقيصة الكفر بالقرآن ، أو بشيء مما جاء به النبي « صلى الله عليه وسلم » تنزل بهم عن أهلية القيام على البيت العتيق : إذ لا يتفق أن يجتمع تقديس البيت مع الكفر برب البيت ، أو برسوله بل صارحهم القرآن بأن هذا البر لم يكن معتداً به فيما سبق ، فإن عبادتهم للأوثان مناقضة لما عرفوا واعترفوا من أن الله هو الذى خلق السموات والأرض .

وهذا هو ظاهر القرآن فى غير تكلف « ماكان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم ، وفى النار هم خالدون » أى : ليس أهل الكفر ، أهلا لعمارة المساجد فلا قيمة لعملهم.

ولو وقت الأمر عند إحباط هذا البر لهان الخطب عليهم ، ولكنهم محاسبون على كفرهم هذا بعد أن دعاهم ربهم إلى الإيمان فعصوا ورسولهم ، فهم خالدون فى النار إذا لم يؤمنوا !

ومن هذا نعلم أن العقيدة تسبق العمل فهى أساسه ، وهو بعدها ، وهى مطوية فى القلب ، وهو عنوانها ، وتفسيرها ، ومن مجموع العقيدة والعمل يكون الدين ، أو الإيمان المطلوب...

وبذلك صرح القرآن فى حصر وتأكيد « إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله ، واليوم الآخر ، وأقام الصلاة ، وآتى الزكاة ، ولم يخش إلا الله » .

٣ — فعمارة المساجد من أعمال البر ، والبر لا يكون إلا عن إيمان بالله واليوم الآخر : إيمانا يتجلى فى صالح الأعمال من صلاة ، وزكاة ، وخشية لله تقتضى الاستجابة له فيما أمر ونهى . .

ثم انظر - أولا - إلى أن هذا تمجيد للمساجد كلها ، لأنها ملتقى العباد من الراكعين والساجدين ، فهى خير بقاع الأرض كما صرح الرسول بذلك - صلى الله عليه وسلم - (خير بقاع الأرض المساجد - ويكون فى مقدمتها شأنا بيت الله الحرام ، لأنه أول بيت وضع للناس مباركا ، وهدى للعالمين) .

والحديث فى هذا السياق من سورة التوبة متجه إليه ، وقد اتسع لسائر المساجد ، لأنها فى حيزه ، وتؤدى معظم رسالته ، وكلها يرنو إليه ، ومصوب نحوه من كل ناحية فى الدنيا ، وفى كل صلاة .

وإذا كانت المساجد مركز الإشعاع الدينى ، ومشرق الدعوة الهادية ، فأولى بها أن تكون الصلة بها لمن يتوافر الإيمان عنده ، ويعترف برسالتها .

وهذا التخصيص فى ولاية المساجد يحمل على رعايتها ، وتولى شأنها ، كما كانت قريش فيما سبق .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

أما القيام بعمل يحتاجه المسجد من طريق الاستئجار عليه كهندسة المسجد ، وبنائه ، وصناعة أبوابه ونحوها فقد أجاز العلماء قديما أن يقوم بها غير المسلم ، لأنها ليست ولاية إشراف ، ولا تحكم ، ولا اعتلاء بها على الغير ، كما كانت ولاية الكفار للمسجد الحرام .

ومن هذا القبيل إقامة المساجد بالبلاد الأوربية بواسطة رجال غير مسلمين .

٤ — وانظر - ثانيا - إلى أن السياق هنا لا يقف عند الجانب الديني فحسب ، وإنما هو توطين الناس على اعتناق المبدأ الحق في شأنهم كله ، وألا تكون مسالكهم في ناحية ، وقلوبهم في ناحية . .

وإذا كان بعض السابقين من قريش تخلفوا وقتاً ما عن الإسلام ، ثم حسبوا أن صلتهم بالبيت الحرام قبل أن يسلموا تجبر نقيصتهم ، وترجح كفتهم ، أو تساوى بين ماضيهم وماضى من بادر إلى التصديق والطاعة : جاءت الآية الثالثة لهاتين الآيتين تقتلع من نفوسهم تلك الفكرة ، وتؤكد لهم من جديد فضل الإيمان والمؤمنين ، وتنفى أن يكون بين الفريقين تشابه فضلا عن عدم المساواة « أجعلتم سقاية الحاج ، وعمارة المسجد الحرام ، كمن آمن بالله واليوم الآخر ، وجاهد في سبيل الله ؟ لا يستوون عند الله » .

فى هذا الحديث استفهام بمعنى النفى : لا تجعلوا ما تفخرون به من السقاية وغيرها مثل الإيمان وما يترتب عليه ، ثم يأتى الجواب صريحا بالنفى : لا يستوون عند الله !!

وهنا مقابلة لطيفة بين أصحاب العقيدة والمبدأ ، وبين المجازفين الذين لا يتقيدون بشىء من هذا .

فى شأن الفريق الأول يختم الله الحديث عنهم بقوله سبحانه « فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين » ، وفى شأن الفريق المتحلل من الدين والمبدأ يقول تعالى « والله لا يهدى القوم الظالمين » .

٥ — ثم : يا ترى - أيكون حديث الله فى كتابه مجرد قصص عما سلف من قريش فى شأن المسجد الحرام ... أم يكون هذا القصص توجيها مقصودا لغايات إنسانية نبيلة ترفع من شأن الإنسان أدبيا كما تنهض به دينيا .

أفادنا القرآن أن قصصه عبرة لأولى الألباب ، وذكرى لمن كان له قلب ، وأن الذكرى تنفع المؤمنين .

فالقصص بوجه عام كدليل واقعى فى التأثير ، والإقناع ، وهذه غاية القرآن ، وبها يمتن الله بأنه يقص علينا أحسن القصص ، وبأنه يقص علينا القصص الحق .

ولو لم يكن القصص حقائق واقعه ، حسنا فى مرماه ، مجديا لمن أطاعه لما ضرب الله الأمثال فى كتابه لعباده ، ولا حفل بها القرآن الحكيم « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون » .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وعلى هذا نقرر فى ارتياح أن ما قرأناه عن الذين يعملون بلا عقيدة أو يطمعون من دنياهم بلا عمل فهم يطمعون فى غير مطمع ، ويثبت أنهم عابثون فى لهو باطل .

ولا جرم أن الله حق فى ذاته ، وتشريعاته ، وفى شأنه كله ، وهو لا ينشد لعباده غير الحق ، ولا يرضى منهم غير الحق .

٦ ـ وإذا كانت العبرة شاخصة فى قصص الكتاب العزيز ، وكاشفة لنا عما كنا نجهل من شئون سالفة ، وموجهة لنا إلى ما يغيب عن وعينا من تقديرات فما الذى يحجبها عنا وقد طوينا من الزمن أحقابا طوالا ، وخطونا فى رحاب الدنيا خطى مترامية ، وحصلنا من الثقافة والحضارة على نصيب غير ضئيل ؟ .

ذلك أننا لا نستأنس بعقولنا ، ولا نستخدم أفهامنا ... والنصيحة وحدها لا تفجر القلوب غيرا ، وإنما هى لأولى الألباب ، وذوى العقول ، ولكل من ألقى إليها السمع وهو شهيد : حاضر الوعى متنبه المشاعر ، مستعد للاستجابة .

٧ ـ وبقدر ما تكون العقيدة الدينية صوابا فى التدين تكون المبادىء الخلقية حصانة للشخصية ، وقواما لحياة المجتمع ؛ فإن هذه من تلك ، وكلاهما يهدى إلى الخير ، ويكفل راحة الضمير .

غير أن العقيدة وثيقة روحية مع الله تعالى ، والمبادىء الخلقية منهج فطرى ، أو اجتماعى إلى حد ما ، ولا يفترق مفهومهما إلا فى شخصين فى شخص متدين يتلقى من جانب الدين ، وفى شخص غير مستمد من دينه ولكنه على خلق كريم ... وفى أن المتدين الواعى لا يخطىء فى مسلكه ، ضرورة أن الدين صواب وحق ، فالخطأ يكون فى التطبيق .

وأما المتخلق من غير طريق الدين فقد يخطىء فى الكثير أو القليل لأن استمداده من أوضاع إنسانية غالبا ...

وما نحب أن نتوسع فى تشقيق فلسفى له أربابه ، ولا حاجة بنا إليه ...

وعلى أى حال : فالكثير منا يعرف مناهج الخير .

والكثرة من هؤلاء الكثيرين مع معرفتهم لهذا بحاجة إلى التذكير ، والذكرى تنفع المؤمنين .

ومن لم تفده الذكرى فى تدينه ، أو خلقه فى مجتمعه ، فلن يكون على مبدأ ، وهو إما شيطان يعبث فى بيئته وفى الأرض فسادا ، أو هو متخلف ومن سقط المتاع ، وكلاهما شر فى اعتبار الإنسانية وفى اعتبار الدين ؟

عبد اللطيف السبكى
عضو جماعة كبار العلماء

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

من قائمة الإمام محمد عبده:

الإسلام والعالم

للأستاذ الدكتور محمود حب الله

(١) الليلة أود أن أتحدث عن التراث المجيد للإسلام، الذى غير معالم التاريخ، ولا يزال العالم الحديث ينعم بآثاره حتى اليوم، ولكنى سأتحدث عن الإسلام وأثره فى العالم الحاضر، وحاجة العالم إليه اليوم، وحاجة العالم إلى المسلمين كقادة ورواد، فى سبيل إيجاد حياة الكرامة والعزة والطمأنينة.

من بضعة شهور مضت نشرت مجلة أمريكية كبرى مقالا طويلا لكاتب هندى معروف جاء بين سطوره: «إن الإسلام كقوة ذات تأثير فى العالم الحديث، وذات توجيه فى تسيير دفة أموره قد انتهى بالعمل، وأصبح أقل شأوا من أن يدخل فى حسبان الذين يقررون مصائر الأمور فى العالم؛ فينبغى أن يسير العالم فى طريقه المرسوم، دون التفات إلى مبادئ الإسلام، أو إلى توجيهات المسلمين».

وقبيل هذا التاريخ بشهور قام مبشر أمريكى معروف بزيارة «إفريقيا» وكثير من بلاد «آسيا»، معلنا: أنه فى رحلة يقصد بها غزو هذه البلاد غزوا فكريا وعقديا، فانهالت عليه الدولارات من كل جانب، لينفذ بها رسالته الدينية والفكرية والسياسية لأن الرجل معروف فى مجالات التبشير، وإذا تحركت معه الملايين من الدولارات التى يتسابق أرباب اليسار فى وضعها بين يديه. فزار على وجه خاص مواطن الإسلام فى «نيجيريا» و«السنغال» وبعض بلاد شمال إفريقيا، و«الجمهورية العربية المتحدة»، وغيرها من بلاد الإسلام. وألقى عدة محاضرات فى كثير منها، ثم عاد ليرى كرما حاتميا وحسن ضيافة واستقبال ويعلن أنه لم يجد لما قال أثرا ما فى النفوس أو فى القلوب.

وبين هذين الحادثين حاضر أحد العلماء من الأمريكيين فى «دار المركز الإسلامى بواشنطن متحدثا عن زيارته الطويلة لكثير من بلاد «إفريقيا» وعن تجاربه فيها، وأحاسيسه نحوها، وجاء فيما قال: «إن إفريقيا لم تعد بعد زوال ظل الاستعمار الغربى مكانا صالحا للشيوعية، والمستقبل هناك للإسلام أو للشيوعية، فإذا لم يسيطر

(١) نص المحاضرة التى ألقاها الأستاذ الدكتور محمود حب الله الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية فى قاعة الإمام محمد عبده فى مساء يوم الثلاثاء ٢٣ من جمادى الآخرة سنة ١٣٨٢ هـ.

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الإسلام - ووسائل سيطرته على هذه القارة سهلة ميسورة - فستسيطر الشيوعية ولا محالة وبهذا تصبح « إفريقيا » التي لا يفصل بينها وبين « أمريكا » سوى المحيط الأطلسي وكرا للشيوعية ، وخطرا جسيما على « أمريكا » ثقافيا وماديا » وأعلن في النهاية : أنه ينبغي على « أمريكا » ألا تقف في سبيل المسلمين في عملهم على نشر راية الإسلام هناك لأنهم ينشرون مع الدين الخلق والفضيلة ، ويباعدون بيننا وبين الشيوعية .

هذا ، وقد سمعنا من ناحية أخرى عالما غربيا يوصف بأنه من أكبر علماء الاجتماع في العصر الحديث يعلن في مؤتمر إسلامي عقد في « الباكستان » : أن الوحدة بين العالم الإسلامي وحدة شكلية تنهار عند التحليل ، وليس بينهم قدر مشترك في العقائد والتقاليد سوى كلمة : « لا إله إلا الله » ولكن عند التحليل تجد أن مفهومها يختلف باختلاف العلماء ، واختلاف البلاد

هذه ألوان مختلفة من نظرة رجال من الغرب والشرق إلى الإسلام والمسلمين ؛ فهل حق أن المسلمين قد انتهوا كقوة ذات تأثير سياسي في العالم ؟ وأن الإسلام قد انتهى تأثيره الفكري في العالم ؟ هل حق أن المسلمين مسيرون بعجلة الزمان ، وليس لهم رأي في التوجيه العالمي ؟ وهل حق أن المسلمين لا يجمعهم جامع من العقيدة أو الفكر ؟ وهل يمكن أن يفيد العالم اليوم من العالم الإسلامي ، أو أن الإسلام قد أدى رسالته وانتهى ؟ ذلك كله ما سنحاول الإجابة عليه .

إن عدد المسلمين اليوم لا يقل عن ستمائة مليون من النفوس ولا يدخل في هذا العدد كثير من الأقليات الإسلامية في المناطق التي لم تخضع إلى حصر دقيق حتى اليوم ، أو لم تهتم بعمل حصر دقيق للمسلمين بنوع خاص .

وهذا العدد الضخم من البشر الذي يتحد في العقيدة ، وفي الهدف والغاية ، لا يوجد له نظير في العالم على الإطلاق ، كما أنه يتميز عن غيره بالتجاور في المكان ، والتركز في قلب العالم ؛ فدول العالم الإسلامي تتركز في بقعة مستطيلة ، تمتد دون حواجز أو فواصل من أواسط « آسيا » إلى المحيط الأطلسي ، ومن « روسيا » في الشمال إلى المحيط الهندي ، وأما في « إفريقيا » فيتضخم حجم الكتلة ، فتمتد شمالا إلى ما وراء البحر الأبيض المتوسط ، وجنوبا إلى ما وراء خط الاستواء .

فوضع المسلمين العددي والجغرافي مكن لهم ولا يزال يمكن لهم من الاتصال بغيرهم من البشر والثقافات في يسر وسهولة فينقلون ما لديهم من مبادئ وقيم إلى الشرق والغرب والشمال والجنوب ، فيلقى آذانا واعية ، وقلوبا متفتحة ، وهكذا انتشر الإسلام بعمل الأفراد دون أن يكون له نفوذ مالي

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

أو ضغط سياسى . تجد هذا فى « إفريقيا » وفى « أوربا » و « أمريكا » وغيرها من بلاد الله ، يشعر فى كلها الفرد المسلم بأنه داعية إلى الله يعرف بالإسلام . ومبلغ — يشعر بأنه خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم — فى التبليغ والقيام بالدعوة ؛ فالقيام بها فى نظره فرض عليه ، ينبغى أن يؤديه فى كل الأحوال ؛ لذلك وجدت الحقيقة التى يعترف بها الجميع من أن الإسلام ينتشر كل يوم ، وأن عدد المسلمين يزداد يوما بعد يوم ، فى جميع الأوساط والهيئات ، وفى الشرق والغرب على السواء . فليس بصحيح أن نفوذه الأدبى ينكمش يوما بعد يوم ، والعكس من هذا هو الصحيح . حقا فقد ظهر نجم العالم الإسلامى يلمع فى الأفق مؤذنا بفجر جديد وعهد جديد ، تنشر فيه راية الإسلام على العالم فتسوده الطمأنينة ، ويسوده الرخاء بتضامن المسلمين بما لديهم من مقدورات مادية وأدبية مع محبى السلام من العالم فى تحقيق هذه الغاية النبيلة .

إن الثروات الطبيعية ، والموارد الاقتصادية التى تضع الشعوب فى أسمى درجات الثراء والرخاء موفورة كلها فى بلاد العالم الإسلامى ، ولكنها موزعة على مناطق شتى من مناطقه توزيعا يجعل تعاون البلاد التى تنعم بها أمرا ضروريا وحيويا إذا ما أرادت لنفسها القوة والنهوض ، وإن « الولايات المتحدة » مثلا ، التى تعتبر الآن من أغنى بلاد الله كان لا يمكن أن ترقى إلى هذا الوضع الاقتصادى الذى هى عليه إذا لم تتحد ولاياتها وتكون كتلة يتضامن جميع أجزائها فى استغلال الموارد الطبيعية جميعها ، فى صالح الجماعة ، والاتحاد هو الذى جعل منها هذه القوة التى يغبطها عليها كل العالم .

وللعالم الإسلامى اليوم من الإمكانيات البشرية والطبيعية ومن القدر الفكرية والعقلية ما يجعله أكثر غنى ورخاء من أى بلد آخر من بلاد العالم إذا ما أحسن استغلالها ، وأعيد تنظيمها على أساس سليم ، من الإدراك لمصالح الفرد ، ومصالح الجماعة .

هذا ، وينتاب العالم من ناحية أخرى قلق متزايد له كثير من الأسباب : من الخوف مثلا من المستقبل والمصير المجهول ومن بين هذه المخاوف خوف المجاعات فى القريب العاجل ؛ فأمريكا مثلا الغنية العتية : تخشى مجاعة تحل بها وبالعالم فتؤدى إلى كارثة عالمية فى المستقبل القريب . وقد بدأوا يتخذون العدة لذلك المستقبل ، لمحاولة استغلال أعشاب البحر ونباتاته فى الغذاء ، ومنادين فوق ذلك بتحديد النسل ، ولم يدركوا أن هناك قوة أخرى يمكن أن تكون عاملا فعالا فى التقليل من أسباب المخاوف وحدتها ، وأن تسهم بنصيب وافر فى بناء عالم جديد ، تسوده الطمأنينة والرخاء ، وتلك القوة هى « العالم الإسلامى » ، وذلك لأنه يملك إمكانيات

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

ضخمة لا يعرف مداها غير الله ، ولم تستغل استغلالا كاملا بعد . كما أن طاقاته الكامنة لا تزال تتطلب المزيد ، من تعاون القوى البشرية حتى تخرج ما اختبأ فى بطونها من كنوز ، فالعالم الإسلامى الذى يسمونه بلغة العصر الحديث « متخلفاً » هذا العالم يمكن أن يكون مصدر خير وبركة على العالم كله ، وقادرا على أن يسهم بنصيب وافر فى إزالة أسباب المخاوف ، وحل الأزمات ، إذا قدر لموارده الطبيعية والبشرية أن تتعاون وتتحد فى سبيل الخير والصالح العام ، وبذلك يصبح من أوائل الدول المنتجة ، ويصبح معيناً ومساعداً .

هذا ، ولا شك فى أنه يمكن للفرد أو للجماعة أن تعيش فى عزلة أو شبه عزلة ، لكن إلى حين أولا . وعيش الضرورة ثانياً ، الذى أصبح لا يتناسب مع حاجات الإنسان وكرامته ، فالحياة الفاضلة التى تمكن الإنسان من تعمير الكون ، والتى أرادها الإسلام للمسلمين تستدعى تعاون الإنسان مع أخيه الإنسان ، وتعاون القوى والإمكانيات ، التى وجدت لتتضامن وتتآزر فى تهيئة الحياة الكريمة للإنسان ، فلو تعاونت هذه الإمكانيات فى « الولايات الإسلامية المتحدة » لجعلتها من أغنى ، بل أغنى بلاد العالم ، فالبترول فيها ، والحديد والصلب ، وما إليها من الخامات الطبيعية ، والجوت والقطن ، والكتان والحرير وغيرها من مواد الغذاء ، والبناء الجسمى والعقلى للمجتمعات الإسلامية ، كل هذه موفورة فى مواطن العالم الإسلامى وفرة لا نجد لها نظيراً فى العالم . فلو نظمت هذه الموارد وهذه الإمكانيات لتخدم المجتمع الإسلامى ، ونظمت جهود المسلمين لتخدم الجميع لأصبح المسلمون قوة منتجة ، قادرة على أن تسهم بنصيب كبير فى بناء العالم الحديث ، بعد أن يفسح المجال لطاقاتها البشرية التى لا تزال حتى اليوم تبحث عن نوافذ للانطلاق ، وعندما تنطلق هذه القوى بالتعاون والاتحاد ، وتستغل إمكانياتها الطبيعية ، فسيتبين العالم كله مدى الخسارة الفادحة التى أصابته من جراء كبت هذه القوى طويلا ، وسيتبين المسلمون أنفسهم أنهم كانوا مخدوعين يوم أن ظنوا أن فى « الانعزالية » تحقيقا لرغبات أو مصالح .

وإذا كان حقا أن المسلمين انحدروا من أجناس وأنساب شتى ، وجاءوا إلى الإسلام من ثقافات وحضارات شتى ، وأن لهم لغات ولهجات متغايرة متباينة ، فإنه لحق كذلك أن الإسلام قد جمع بينهم ، والإسلام عقيدة وشريعة ، مبادئ ومثل ، وطريق للسلوك فى الحياة ـ للسلوك فى شتى أنواعه ومظاهره ، فغرس لذلك بين الأمم والشعوب التى اعتنقته عادات وتقاليد متشابهة فى الحياة ، وحد بها

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

بين اتجاهات المسلمين فى تصرفاتهم وطرائق سلوكهم فى الحياة .

فلو ذهبت إلى أى بلد من بلاد الإسلام لوجدت أن تقاليده وعاداته تتشابه مع تقاليدك وعاداتك إلى حد كبير ، فيما عدا إلى الحياة الإسلامية بسبب ، فلم يوحد الإسلام بين المسلمين فى « كلمة التوحيد » فحسب ، أو فى النظريات الفلسفية فحسب بل وحد بينهم كذلك فى قواعد السلوك ، وفى أساليب السلوك فى الحياة . فأصبحت عاداتهم متقاربة متشابهة ، تجد ذلك فى « اليابان » وفى « أندونيسيا » وفى « مجاهل إفريقيا » وفى أكثر بلاد العالم تحضرا وثقافة ، وإن كان بعضهم أقل فهما وإدراكا لمفاهيم الإسلام من بعض ؛ فالوحدة بين المسلمين وحدة حقيقية ؛ لأنها وحدة فى الإيمان ، وحدة فى المثل وفى الأهداف ، وحدة فى الشعور ، ووحدة فى السلوك الأخلاقى . وفى التقاليد والعادات ، ووحدة فوق ذلك كله « جغرافية » لما يقرب من ثمانين فى المائة من مجموع المسلمين ؛ فهل تجد فى العالم أسبابا للوحدة والانسجام أكثر تأصلا وعمقا من هذه الأسباب ؟ .

من عشرسنوات مضت كانت الدول المستقلة من دول العالم الإسلامى استقلالا كاملا لايتجاوز عددها اثنى عشرة دولة ، وأما الآن فقد قارب هذا العدد الثلاثين ، وسيزيد قريبا حتى يصبحوا جميعا أحراراً ، فى بناء ما يرسمون لأنفسهم من مستقبل فى الحياة ، فماذا بعد ذلك ؟ وما الذى سيصنعونه لأنفسهم ، وبالاستقلال الذى حصلوا عليه بعد كفاح مرير ، وجهاد طويل ؟ إن الحياة فى وضعها الحاضر تتطلب التكتل والتعاون بين المتشابهات فالمعسكر الشرقى يتكتل ليبقى ، وكذا المعسكر الغربى ، فعلى العالم الإسلامى أن يتكتل كذلك . إن التكتل هو لغة العلم ، ولغة العصر الحديث ، الذى لا يؤمن بغير القوة ، وبغير حجم الكتلة ، ونحن كمسلمين نؤمن بالقوة ونؤمن بالتكتل ، ونؤمن بالفرد كذلك ؛ فللفرد فى فلسفتنا قيمة ، ولكن قيمته لا تعرف إلا فى المجتمع ، والفضائل فى الإسلام فضائل اجتماعية ؛ لأنها إنما تعبر عن نفسها فى المجتمع ، وبين المجتمع .

فإذا أرادت هذه الجماعات أن تحافظ على ما اكتسبته من حقوق واستقلال ، وتبقى ذات أثر فعال ، ونفوذ إيجابى فى العالم ؛ فلا بد لها أن تعمل على تدعيم هذا الاستقلال ، وعلى المحافظة عليه بكل الوسائل ؛ فالحقوق التى يكتسبها الإنسان ليست شيئا ما يضعه بين يديه ، ثم لا يفلت منها أبدا . إن ما يكتسب من الحرية والكرامة والاستقلال ، وأسباب التطور والعزة والنهوض يحتاج إلى كفاح دائم ، وجهاد مستمر ليبقى فى يد الإنسان

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

ووسائل الكفاح فى العصر الحديث معروفة مشهورة ، وأولها حسن التفاهم والاتحاد ، وأسباب القوة ، وأسباب الوحدة موفورة كلها للعالم الإسلامى ، ولا ينقصها فى التنفيذ غير الرغبة والإرادة ، فأسس الوحدة بين المسلمين - كما قلنا - موجودة فى طبيعة العالم الإسلامى ؛ لأنها من صنع الله . فأصبحت طبيعة ثانية للمسلمين لا تتخلف عنهم أبدا . ويعجبنى فى ذلك ما قاله أحد المستشرقين : « إن مثل المسلمين مثل صندوق رنان ، إذا لمست طرفا من أطرافه ظهر الصدى فى جميع الجوانب الأخرى » ، وكأنه فى هذا كان يشرح الحديث الشريف : « . . . إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر » ، وكذلك العدالة والمساواة الضرورية للاجتماع ولبقاء هذا الاجتماع . . موفورة كلها للعالم الإسلامى . لأن المسلمين يعلمون يقينا أن العدل من صفات « الرحمن » وبه قامت السموات والأرض ، وأن المسلم الحق هو الذى يتخلق بخلق الرحمن . فيكون العدل والرحمة من أخص خصائصه ، وأن الناس سواسية ، لا يتفاضلون إلا بصالح الأعمال ، وقد غدا المسلمون فى هذا الباب مضرب الأمثال .

هذا . والمسلمون قوة اقتصادية لا تضارع ، ويمكن أن تكون لهم قوة عسكرية ضاربة ، لا يقوى عليها أحد . تتحمى الثغور والحدود التى أراد الله أن تكون حصونا طبيعية من جميع الجهات : جبال ووهاد فى الشمال ، شواطىء فى الغرب والجنوب ، تسهل مراقبتها وحمايتها . وصحراء فى الجنوب يضل فيها الخريت ، وتعتبر فاصلا طبيعيا يجعل محاولة العبور فيها عسيرة التنفيذ .

هذه الوسائل الضرورية للبقاء موفورة كلها للعالم الإسلامى فما الذى يدفع بعض المجتمعات الإسلامية لأن يمد يده ليتلقى شيئا منها من الخارج ، وهى موجودة بين يديه وتحت رجليه ، إنه لا تنقصه غير الرغبة والإرادة ، فالأسباب التى أدت بدول العالم الإسلامى إلى هذا المصير ، الذى لا يريدونه أسباب معروفة ومشهورة وليس من بينها : « الإسلام » ، ولكن الانحراف عن الإسلام وعن تعاليمه انحرافا ناشئا عن جهل ، أو عن تضليل بعض الرغبات الجامحة ، وهى المسئولة فى غالب الأحوال عن تدهور الإنسان والإنسانية إلى المصير المحزن المخيف .

فى هذه الظروف القاسية ، وأمام هذا الواقع الملموس الذى نعيش فيه اليوم ، واستجابة لنداء الإسلام بالألفة والوحدة ، ومجاراة للعرف الحديث من ائتلاف المتجانسات وأرباب المصالح المشتركة ينبغى للعالم الإسلامى والعالم العربى أن يفكر من جديد فى وضع ربط بعضه بالبعض برباط متين ، ليوفروا لأنفسهم حياة العزة والكرامة والأمن والطمأنينة ، وهذا اللون من الاتجاه يحتاج إلى أن ينتشر وعى جديد

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

بين الشعوب والجماعات الإسلامية يحتاج إلى دعاة ومبشرين ، يبثون هذه الأفكار فى عقل المسلم وقلبه ليفكر فيها ، ويتغنى بها وتكون حلمه وأمله فى الحياة ، و « الأزهر » هو الهيئة القمينة بإثارة هذا الشعور بين المسلمين وتمكينه فى نفوسهم .

فليس واجبكم هنا أيها الإخوة والأبناء من رجال الأزهر وشبابه أن تعلموا المسلمين الصلاة والصوم ، وأركان الإسلام وفضائله وحسب ، ولكن إذا أردتم أن يبقى المسلمون فرادى فقفوا عند هذا الحد من التوجيه ، ولكن إذا آمنتم بأن بناء مجد الدولة الإسلامية ليس بأقل خطراً ، بل أكبر مثوبة عند الله من صلاة فرض أو صوم فرض ، إذا علمتم هذا كله فليتوجه الأزهر ، ولتتوجه معاهده نحو هذا الصراط السوى من الدعوة ، ينبغى علينا أن نبين للعالم الخارجى الذى يريد أن يجعل منا مناطق نفوذ ، ونشاطا حيويا له أننا جادون فى الحياة ، ولا نريد منها غير مواقف العزة والكرامة ، وقد عقدنا النية على استغلال كل طاقاتنا البشرية والمادية حتى نتمكن من الإسهام بقسط كبير فى توفير وسائل القوة للعالم الإسلامى ، وقوة هذا العالم كفيلة وحدها بتحقيق السلام العالمى ؛ فالمعركة بين الغرب والشرق معركة تفوذ إلى حد كبير ، فإذا كانت لنا قوة تشعر من يريد بنا شرا أننا لقمة مسمومة وقفت المعارك ؛ لأنها تصبح غير ذات موضوع . فعليكم أنتم — أيها الأزهريون — أن تشعروا هؤلاء الناس أننا جادون فى الحياة ، وسائرون إلى الأمام بخطى فسيحة ، وخير لهم أن يحاولوا أن يكونوا أصدقاء لهذه القوى الناهضة التى سوف لا تقف أبداً . إن اتحاد العالم الإسلامى آت لامحالة ، وخير للمعسكرات الأخرى أن تريح نفسها ، وتريح أعصابنا فلا تتحدث عن الفراغ ومناطق النفوذ ، وتوقف تيارات الإغراء والمؤامرات التى تحاك هنا وهناك ، ولا توجد غير العداوة والبغضاء .

هذا ، وفى الجانب الإيجابى والتوجه نحو المسلمين ، ففى مقدور « الأزهر » والأزهريين أن يصنعوا الكثير ، ولديهم من الإمكانيات مالا يتيسر لغيرهم فى هذا السبيل ، فقد تبينت من زياراتى للعالم الإسلامى : أن الخريجين من أزهرنا المعمور هم القادة ، أو أشباه القادة هناك . وهم الرواد والموجهون فى كثير من بلاد « إفريقيا » و « آسيا » وهذه ثروة ينبغى أن تستغل فى إثارة هذا الوعى الجديد ، وتمكينه فى النفوس ، كما أن بالأزهر ممثلين لعشرات من الدول والجماعات الإسلامية ليست لهم غاية إلا إعداد الزاد لرحلة الدعوة

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

إلى الله ! بمثل الأسلوب الفردى الذى انفرد به الإسلام هنا وهناك وفى جميع الأوطان ، ومهمة « الأزهر » أن يكون بنوع خاص هذا الداعية إلى الله ؛ فمهمته تكوين رجال يتمكنون من غزو القلوب قبل العقول بالقدوة الحسنة ، من سلامة الصدر ، وحسن القول ، وجمال السلوك ، وبالأسلوب الكريم الذى دعا إليه « القرآن » ؛ فليس « الأزهر » معهدا تعليمياً فحسب ، ولكنه بجوار ذلك دار صقل وتربية وتهذيب ليخرج عالما تحبه وتجله ، ولو خالف رأيك ، وتنعمل نفسك بخلقه ، كما تتأثر بحكمته وعلمه ؛ فرسالة « الأزهر » الضرورية لتحقيق ما ألمعنا إليه من غايات نبيلة ينبغى أن يبدأ بها كل منا ، وكل أزهرى فى حدوده الضيقة أولا : « ابدأ بنفسك ثم بمن تعول » ، « أصلح بيتك أولا » ، اتجه إلى الله بسلوك الطريق القويم فى الحياة ، وستتجه إليك الدنيا صاغرة ، كون مجتمعاً قويما وسيخطب العالم ودك ، وكل واحد منا يمكن أن يكون جنديا فى هذا الميدان ، فى نفسه ، وبين أهله وعشيرته ، وقد سمحت لأبناء الأزهر الأيام بمجال خصب ينبغى أن يستغل فى هذا السبيل ، وأعنى به بعوثنا إلى الخارج ، التى كثرت فى هذه الأيام وانتشرت حتى كادت تعم مواطن الإسلام جميعاً ، فالمبعوثون رسل الإسلام ودعاة له ، قبل أن يكونوا معلمين ، وينبغى أن يتذكروا دائما أن وحدة المسلمين أصبحت ضرورة تدعو إليها غريزة البقاء فلا تتيسر لهم الحياة الإنسانية الكريمة إلا بها .

إنكم - يارجال الأزهر - تحملون سلاحا من أقوى أنواع الأسلحة فى القوة ، وإصابة الهدف .. ذلك هو السلاح الفكرى الإنسانى الذى يرضى العقل والوجدان . والعالم اليوم الذى أتخمته المادة ، وشغلته عن نفسه وربه متعطش إلى الجديد ، ويسره أن يجد عندكم بلسم النفوس الذى لا يمكن أن يوجد إلا حين توجد مادة يحكمها دين ، وعلم يهذبه خلق .. ألا فلتكن هؤلاء الدعاة الذين يكافحون من أجل العمران فى ظل الدين ، ومن أجل العلم تحت راية الأخلاق ، ومن أجل وحدة إسلامية تحيا فيها هذه المبادئ الإلهية الإنسانية الكريمة .. ألا فلتتذكر أن الإسلام لا عيب فيه ، ولا ينقصه شىء من مقومات الحضارة ، بل هو الموجد لأعلى أنواع الحضارات ، فإذا كانت هناك عيوب ، وإذا كان هناك تخلف ، فهو نتيجة لتفكيرنا ولعملنا نحن المسلمين ، وليس نتيجة للإسلام ، فدعونا نعمل ونكافح من أجل هذه الغاية النبيلة ونتوجه إلى الله أن يكلل مسعانا بالنجاح ؟

الدكتور محمود حب الله

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

المساهمة الإسلامية في الطب

بقلم : نيرواسطى
أستاذ الطب اليوناني والعربي في باكستان

من المألوف لدى مؤرخي العلوم والفنون، ولا سيما أولئك المعنيين بتاريخ الطب أن يتجاهلوا الحقبة الإسلامية في الفنون والمعرفة بقولهم إنه لم يظهر خلال هذه الفترة أي عمل بناء ، وأن المسلمين حسب رأيهم لم يفعلوا شيئا سوى أنهم حافظوا على التراث اليوناني وأبقوه حيا ، ثم نقلوه إلى العالم الأوربي ، وإذا سلمنا بوجهة النظر هذه فسيكون المرء عازفا عن دراسة العلم الذي ساهم المسلمون به « مساهمة قليلة » .

ومن بين الفترات الثلاث المتميزة لتطور علوم الطب (وهي اليونانية والإسلامية والأوربية) نجد أن الفترة الوسطى مستبعدة بحجة أنها خالية من الإنتاج . ولكن هذا الرأي هو على شيء كثير من الخطأ والضلال .

التراث اليوناني :

ليس عندي أدنى شك في التسليم بأن العلماء والحكماء المسلمين قد أعجبوا بالفنون والمعارف اليونانية ، ولكنهم لم يسيروا مغمضي الأعين على خطى أسلافهم اليونانيين كما أنهم لم يكتفوا بما خلفه جالينوس وأبقراط من تراث قليل ، بل إنهم محصوا هذا التراث وغربلوه ثم أخرجوا منه ما هو مفيد لهم ، ورفضوا دون تردد ما اعتبروه عديم الفائدة قليل الأهمية ، وفضلا عن الشيء الكثير الذي فعلوه في هذا الميدان ، فإن العلوم الطبية القائمة تبدلت إلى علم جديد بكل معنى الكلمة على أيديهم .

فكتابا « القانون » لابن سينا و « الحاوي » للرازي يعدان شهادتين ناطقتين على مساهمة المسلمين في هذا العلم .

ولا شك في أن استعراضا معقولا للمساهمات الإسلامية ستحتاج في الحقيقة إلى عمل ضخم ، ولكنني سأستشهد فقط بعدد قليل منها .

علم التشريح :

لم يسلم العرب تسليما أعمى بتفسيرات اليونان لعلم التشريح أو بكتاب « علم التشريح » لجالينوس . بل محصوا هذا العلم تمحيصا دقيقا وقد روى عن يوحنا بن ماسويه أنه حين

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

ألف كتابه فى علم التشريح استحضر قردة من حديقة الخليفة المعتصم بالله لإجراء اختبارات التشريح عليها .

وقد قام بعمليات كاملة عليها لجعل معرفته أكثر اتساعا ، وللحصول على المزيد من المعلومات حول الجسم البشرى .

ويقول ابن القفطى إن يوحنا كان ينوى فى البداية التضحية بابنه للقيام بهذه التجارب ، ولكن الخليفة حال بينه وبين هذه الطريقة وبعث إليه بالقردة .

انتقاد جالينوس :

إن الجداول البيانية والرسوم التفصيلية لأجزاء الجسم الإنسانى كتلك التى ظهرت فى كتاب « تشريح المنصورى » لمؤلفه منصور ابن محمد (١٣٩٦ بعد المسيح) لم يعثر عليها مطلقا فى التراث اليونانى .

وفى هذا الميدان نجد أن العرب قد تفوقوا على اليونانيين وقدموا عدة إضافات . وقد كتب عبد اللطيف البغدادى فى القرن الحادى عشر ينتقد جالينوس على تأكيده بأن الفك الأسفل مؤلف من عظم واحد . ويعتبر البغدادى ذلك نقصا فى الملاحظة الدقيقة . كما لاحظ على بن عباس بأن هناك ثلاث طبقات فى جدران الأوعية الدموية .

واستنتج علماء التشريح المسلمون على عكس جالينوس بأن الجمجمة البشرية تحتوى على ثمانية عظام ، بينما أكد جالينوس أنها تحتوى على سبعة . وفى ما بعد اعتقدوا أن الأذن تحتوى على ثلاثة عظام صغيرة لتسهيل طاقة السمع .

الفيزيولوجيا :

يذكر برهان الدين فى كتابه « شرح الأسباب » أن الدم يحتوى على عصير العنب (السكر) وقال الرازى إن مادة حامضة وجدت فى المعدة ، واعتقد حنين أيضاً أن هناك عصيراً حريفا فى المعدة هو الذى يسبب الشعور بالجوع .

وقد شرح علاء الدين أبو الأعلى ، على ابن أبى حزم القرشى من دمشق نظرية الدورة الدموية بالتفصيل قبل ثلاثمائة سنة من السير وليام هارفى وهو واقع اعترف به البروفسور دكتور . ج . بلا تام من جامعة مانشستر .

وقال حنين بن إسحق إن تركيب الأعصاب هو مماثل للدفاع . ووجد علاء الدين القرشى من دمشق أن الغذاء هو الوقود للمحافظة على تدفئة الجسم ، وقد نميت هذه الفكرة فى ما بعد ، وقد شرح أبو سهل المسيحى بأن امتصاص الغذاء يجرى فى الأمعاء أكثر مما هو فى المعدة ، وحين وصف ابن سينا عملية الهضم قال إنها تبدأ فى الحقيقة عند مضغ الطعام فى الفم ، وقال أبو الفرج إن هناك أقنية فى الأعصاب تتدفق الأحاسيس والحركات عن طريقها .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

البكتريولوجيا (علم الجراثيم) :

إن العلم الطبي اليوم هو نتيجة أبحاث الجراثيم وفى هذا الصدد تأتى الأبحاث التى أجراها ابن سينا فى الطليعة . وقد ذكر ضمنا أن الإفرازات الجسمية تتلوث بجسم أجنبي أرضى غريب قبل أن تصاب بالالتهاب . وذكر ابن خاتمية (١٣٦٩ ميلادية) أن الإنسان محاط بأجسام دقيقة تدخل الجهاز البشرى وتسبب الداء، وقد استشهد الدكتور غرونير بهذه الآراء ليعبر عن الرأى القائل إن العرب كانوا مطلعين تمام الاطلاع على نظرية الجراثيم .

وشرح ابن الخطيب وجود العدوى بالتفصيل وقال إنه توصل إليها بعد التجربة والملاحظة.

التشخيص والمعالجة :

وصف الجرجانى فى « ذخيرة خوارزم شاهى » الفرق بين جحوظ العين والغوطر الذى اكتشفه الدكتور بارى سنة ١٨٢٥ أى بعد ٦٠٠ سنة على ذلك ، وكان الرازى أول من ألف كتابا عن الحصبة والجدرى ، وأظهر الفرق بين الاثنين . وفى سنة ١٦٧٩ بدأ المسلمون فى تركيا عمليات التلقيح ضد الجدرى التى انتقلت إلى أوربا فى القرن الثامن عشر عن طريق الليدى مونتاغو زوجة السفير البريطانى فى تركيا، ولم يكن الأطباء اليونانيون يقدرون على التفرقة بين الداءين.

وقد اقترح أبو المنصور سعيد بن بشير ابن عبدوس ، على عكس الأطباء اليونانيين القدماء ، الأطعمة الخفيفة والأدوية التى تسبب البرودة عند معالجة الشلل العموى وشلل الوجه .

وقد طبق أبو الحسن الذى كان طبيب عضد الدولة طريقة الفصد لمعالجة النزيف الدماغى الذى ينتج غالبا عن الضغط الدموى ، وفى تركيا كان الطبيب المسلم شرف الدين سابونكو أوغلو هو أول من جرب الترياق على الديكة قبل إعطائه إلى المرضى .

وقد شرح أبو القاسم الزهراوى (فى القرن العاشر) أن الجرح فى النخاع أو النخاع الشوكى يسبب الشلل .

قناة المعدة :

استخدم الأطباء العرب قبل الجميع قناة المعدة لإجراء عملية تطهير المعدة فى حالات التسمم . وكانوا يعرفون تمام المعرفة مبادئ علاج العضو بالعضو، وهذه الطريقة فى المعالجة نسبت للدكتور براون سيكوارد الذى مارسها منذ خمسين سنة فقط ، بينما كان العرب مطلعين عليها تماما قبل عدة قرون قبله .

وكانوا يستخدمون دماغ الحيوان لمعالجة الخلل العقلى والخصى للضعف الجنسى ، وقد

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

ورد وصف مفصل فى هذا الصدد فى كتاب (حياة الحيوان) .

وقد شدد ابن الوافد على المعالجة بواسطة مراقبة الغذاء (أى الحمية) وأوصى رضى الدين بالأغـــذية المغذية لمعالجة الضعف والهزال . وسجل بهاء الدولة السعال الديكى لأول مرة سنة ١٥٠٧ ، بينما اكتشفته أوربا بعد عدة قرون . وكان على بن ربان يعتـــبر عرق النسا مرضاً عصبياً ويصف الكى لمعالجته . وكان أبو الحسن الطبرى أول شخص أعلن أن السل هو مرض ينتقل بالعدوى ، وأنه لا يصيب الرئتين فحسب بل الأعضاء الأخرى ، أما مرض ورم الكلية الذى أطلق عليه هـــذا اسم برايت بعد اكتشافه على يد الدكتور ريتشارد برايت فى القرن الثامن عشر فقد اكتشف فى الحقيقة على يد نجيب الدين السمرقندى منذ عدة قرون قبله . وقد شرح أيضاً أن الزلال الأبيض ينتقل إلى البول ويصبح الجسم متورما . وكان أبو المنصور الحسن القمرى فى كتـابه (غنى ومنى) قد كشف النقاب قبل عدة قرون عن (قراد الجرب) .

الجراحـة :

أدخل المسلمون فى الجراحة تبديلات جوهرية. وقد اخترع أبو القاسم الزهراوى عدة أدوات جراحية شرحها فى كتابه (التصريف) .

وفى القرن الخامس عشر استعان شرف الدين سابونكو أوغلو من تركيا بكتاب التصريف ، ثم زاد عليه من خبرته مستشهداً بصور العمليات التى أجراها والتبديلات التى قام بها على الأدوات الطبية .

وقد قدم ابن زهر (القرن الحادى عشر) فى كتـابه (التيسير) وصفاً كاملا لعملية قصبة الرئة ، بينما لم يرد أى ذكر لذلك فى كتب اليونان . وكان ابن سينا أول من شرح معالجة ناسور العين (الغرب) وأدخل المحراف الطبى فى مكان الجرح . وقد كان المسلمون أول من طبق طريقة التبريد لوقف النزيف ، وتقطيب الجروح بخيوط حريرية ، وقد كانوا هم الذين بدءوا فى معالجة الجروح بالكى .

وكان الرازى أول شخص عمد إلى استخدام الكحول فى الأغراض الطبية .

وطبق المسلمون التخدير فى العمليات الجراحية . وفى العمليات الرئيسية كانوا يعمدون إلى جعل المريض فاقداً وعيه حتى لمدة سبعة أيام .

وقد ساهم المسلمون مساهمة قيمة فى جراحة العين . وأجروا جميع العمليات التى تجرى فى أيامنا الحاضرة . وكانوا يعرفون تمام المعرفة إظلام عدسة العين الذى ينتج عن الكدة العدسية وقد استخدموا النظارات

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

لمعالجة اختلال النظر وكانوا يضعون لها عدسات ذات قوى مختلفة .

وكان الرازى أول من أعطى شرحا لعملية استئصال إظلام عدسة العين ولوصف انعكاس القرنية للضوء .

وقد شرح المعلق على كتاب (الأسباب) فى الفصل المتعلق بإظلام عدسة العين ، الوصف الكامل لمثل هذه الأمراض التى تصيب العين . ونصح ابن سينا عند بحثه مرض السرطان لأول مرة ، بوجوب استئصال جميع الأجزاء المصابة والأوعية المحيطة به كلها عند إجراء العملية . وقد تحدث الأطباء المسلمون لأول مرة عند وصف عمليات الجمجمة وأجزائها عن عملية اللهاة والنواسير الأنفية . وقد اخترعوا طريقة لإزالة اللوزتين وإخراج السائل من طبلة الأذن ، ونصحوا فى حالة سرطان اللسان استئصال اللسان بكامله . وفى حالة التهاب مخ العظام اقترحوا إزالة العظم المصاب . وكان الجراحون المسلمون هم أول من أجروا عملية غلاف الأحشاء المخاطى ، واستخدموا طريقة آلة تروكار وقصبة كانولا لإخراج المياه . وكان أن طبقت الطريقة نفسها فيما بعد على يد فرلر وبوتن وقد وصفها بهاء الدولة بالتفصيل .

فن الولادة :

لم يصل إلينا سوى النزر اليسير عن اليونان فى صدد فن الولادة . وكان العرب هم المخترعين الحقيقيين لهذا الفرع من فن الطب . وكان أبو القاسم الزهراوى أول من وصف فى كتابه (كتاب التصريف) وضع الجنين . واخترع طريقة تكسير الجمجمة لتخليص الجنين الميت ، وقد أجرى بنفسه مثل هذه العملية . وقد صور كتاب (الآثار الباقية) الموجود فى مكتبة أدنبرة طبيباً عربياً وهو يقوم بالعملية القيصرية .

أما المساهمات التى قام بها المسلمون باكتشافهم أدوية جديدة ووسائل علاجية فهى كثيرة فى عددها وفى قيمتها . وقد خصص جورجى زيدان فى كتابه (تاريخ التمدن الإسلامى (الجزء الثالث) فصلا كاملا لهذا الموضوع ومما جاء فيه :

« لقد بدأ العرب لأول مرة فى استخدام طرق الكى فى الجراحة ، ووصفوا حالة أظافر المرضى بالسل ، واكتشفوا معالجة داء اليرقان . واقترحوا استخدام كمية معقولة من الأفيون لمعالجة الجنون واقترحوا لمعالجة نزف الدم تبريد الرأس بالماء البارد وكانت طريقة عملية إظلام العين الأولى التى وصفها العرب . وشرح العرب أيضا طريقة تفتيت الحصاة ، ووضعوا الكتب عن عدة فروع طبية لم يتوصل إليها أسلافهم وفى هذا الصدد يعتبر كتاب يوحنا بن ماسويه

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

عن الجذام ، وكتاب الرازى عن الجدرى والحصبة ، وكتاب أبو موسى بن عيسى عن حبوب الأدوية ، وكتاب قسطا بن لوقا عن الوفاة الفجائية ذات قيمة كبرى .

وكان الرازى أول من طبق عملية تبريد الرأس فى معالجة داء السقطة ، واستخدام الماء البارد فى معالجة الحمى المحرقة (التيفوئيد) وكان ابن سينا أول من أوصى باستخدام فرش الماء للريض بالتيفوئيد ، وكان أن طورت هذه الطريقة فى ما بعد بشكل أنابيب ليتل ، وأكياس الثلج التى تستخدم فى أيامنا الحاضرة .

فن الصيدلة :

أما فى ما يتعلق بفن الصيدلة فقدقدم العرب خدمات قيمة ، فقد اكتشفوا الخواص الصيدلية لأصل الراوند والكافور والسنا ومارسوا استخدام البنج فى الطب . واستحضروا السكر واستخدموه فى العسل وقد استعانوا بالأعشاب الهندية فى علاجاتهم واكتشفوا عدداً من الأعشاب المفيدة التى لم تكن معروفة للأطباء اليونانيين . وقد اخترع الرازى مرهم الزئبق . وقد وضع أول كتاب عن الأعشاب اليونانية على يد ابن الموفق بالفارسية وعنوانه « كتاب الأبنية عن حقائق الأدوية » . الذى يحتوى على وصف ٥٨٥ عشبة فقط . وقدرفع بعده ابن البيطار فى كتابه « المفردات » هذا العدد إلى ١٤٠٠ . وكان علم الصيدلة متطوراً جدا عند العرب . وقد ألفوا جميع أنواع الأشربة والمعاجين النباتية وبدءوا باستخدام أقراص الطريفلات فى المعالجات الطبية وقد طبق العرب استخدام ورق الذهب والفضة عند لف الأقراص . وقد أدخل العرب لأول مرة طريقة دستور الأدوية (الأقرباذين) فى العلم الطبى . وكان سابور بن سهل أول طبيب وضع دستور الأدويه الذى لم يكن معروفا عند اليونانيين .

فن الكيمياء :

أولى العرب اهتماما كبيرا الكيمياء . وفى الحقيقة هم مؤسسوها الحقيقيون . وفى هذا العلم كانوا أول من شرح طرق الترشيح والتصعيد ، والتقطير والتبلور والتذويب . وقد حضروا عدة مركبات كيماوية كحامض النتريك ، وحامض الكبريت ، وحامض النتروهيدوركلوريد . وفيرى سولفاس ، وليكورامونيا ، وكلوريدات الزئبق ، وأوكسيد الزئبق وفترات البوتاسيوم ...

وتقوم الأعمال الطبية المعاصرة على نطاق واسع ، على أساس هذه الكيماويات وفضلا عن ذلك فإن أنواعا عديدة أخرى من

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الحوامض والقلويات استحضرها العرب . ومن المهم فى هذا الصدد أن نلاحظ أن العرب لم يضعوا فقط أساس الكيمياء العصرية بل أصلحوا عدة نظريات يونانية قديمة . وكان يعقوب بن إسحق الكندى من أحسن من محصوا الكيمياء اليونانية وانتقدوها .

كتاب الأدوية :

يعتبر « كتاب الأدوية » الذى ألفه دسقوريدوس دليلا كبيرا على اهتمام العرب بالأبحاث وتشوقهم للمعرفة فى الأدوية . ويعتقد أن هذا الكتاب قد ترجم لأول مرة على يد استيفن بن باسيل على عهد الخليفة المتوكل بمراجعة حنين بن إسحق . ولكن الأسماء البديلة لمعظم الأدوية اليونانية ما زالت ضائعة . وقد أعيد النظر فى هذا الكتاب حين حملت نسخة منه من بغداد إلى أسبانيا على عهد الخليفة الأندلسى الناصر ، وقد حملت نسخة أخرى منه باللغة اليونانية القديمة من مكتبة أباطرة الرومان للتصليح . وظن أنه لا يوجد شخص يستطيع فهمه فطلب إلى الامبراطور الرومانى إرسال عالم لغوى معه أيضا . وقد أوفد راهبا يدعى نيقولا وهو متضلع فى اللغة اليونانية القديمة إلى أسبانيا لهذا الغرض . وكان يعاونه أطباء عرب لإتمام ترجمة هذا الكتاب . ولكن أسماء اثنى عشر طبيبا يونانيا ظلت غير معروفة .

نظام الطب ونظرياته

اكتشف الأطباء العرب وقائع عديدة ثبت أنها حقيقية فى الأبحاث الجرثومية الحاضرة . وأن كل ما يتعلق بالعناصر والأمزجة والاخلاط والطبائع فقد حصرت بأربعة وظل حصرها قضية لا يختلف عليها أحد بين العرب . وقد شرح ابن سينا بأن بعض الأمور تتعلق بالنفسانيات بدلا من العلم الطبى ، ويتوقف الأمر على الأطباء للتسليم بذلك أو رفضه . وقد آمن الأطباء العرب بنظرية أن لكل شخص طبعه الخاص وهو يتأثر حسب ذلك . وقد شرح ابن سينا هذه النظرية مفصلا . فقضية « الحساسية » فى العصر الحاضر تقوم فى الواقع على أساس هذه النظرية .

القوة الدفاعية :

كان العرب عند معالجة أحد المرضى يولون عناية خاصة للقوة الدفاعية عند الشخص . وكانوا يعتقدون - عن حق - أن الطبيب الحقيقى هو القوة الدفاعية الحقيقية للجسم ، وأن مهمة الطبيب هى تقديم المساعدة لهذه القوة . وقد أيد ابن زهر الأندلسى هذه النظرية كل التأييد .

وقد كان أهم عمل قام به العرب فى علم الطب هو تنظيم الفروع المختلفة لهذا العلم ، وتعتبر كتب فردوس الحكمة ، وكامل

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الصناعة ، والقانون ، والحاوى وعدد كبير من الكتب المماثلة مراجع قيمة فى هذا الصدد .

والتراث اليونانى هو خال من ثروة المعرفة التى تتضمنها هذه الكتب .

الآثار الأصلية :

لقد قيل إن أهم مساهمة قام بها العرب هى ترجمة الكتب اليونانية على عهد الأمويين والعباسيين ، وفى رأيى أن أعمالهم الأصلية التى تشكل الآن جزءاً من مكتبات روما وباريس وانكلترة وتركيا هى مساهمات حقيقية . فقد بدأ العرب فى تصنيف كتبهم الأصلية فى مطلع العهد العباسى ، بينما كانت ترجمة الكتب اليونانية متقدمة فى بغداد بإشراف حنين بن إسحق ، وكان مؤلفو هذه الكتب ينتمون فى معظمهم إلى مدرسة جنديسابور الفكرية ، ومن أبرز هؤلاء المؤلفين سابور بن سهل وعيسى بن موسى ، ومن أهم كتب الأخير « كتاب من لا يحضره طبيب » . وهناك كتاب آخر لابن ماسويه هو « كتاب الحيه » المزود بالجداول والخرائط .

وبعد هذه المرحلة تماما بدأت فترة طويلة مثمرة من الأعمال الأصلية والتصنيف فى علم الطب العربى . وظهرت شخصيات عظيمة كعلى بن عباس المجوسى ، وابن سينا ، والرازى فى ميدان الطب . وما زال « كتاب الحاوى » للرازى يعتبر من أهم الكتب الذى لا يوازيه كتاب فى قيمته الضخمة .

حرية التفكير :

كان العرب مشهورين بصورة خاصة فى حرية تفكيرهم وبنظامهم التعليمى العملى فى علم الطب ، وقد أعلن يوحنا بن ماسوية بصراحة فى كتابه « النوادر الطبية » أنه لا يريد أن يتبع المبادىء القديمة لأسلافه دون وضعها موضع التجربة فى المعرفة والخبرة ، وأن كل ما وجده مخالفا للتجربة والاختبار كان يرفضه . ولاحظ هبة الله ابن ساعد فى مقدمة كتابه دستور الأدوية (القرابذين) أن الوقائع الحقيقية هى التى فحصت عند التجربة . كما أعلن الرازى فى كتابه الحاوى وكتاب الفاخر أنه غير متفق مع اسلافه فى كثير من المسائل . . بل سجل معظم نظرياته القائمة على الملاحظة الشخصية دون أن يهتم بما فكر به اليونانيون ، وقد اتبع الطريقة نفسها ابن سرافيون فى كتابه « الفصول المهمه فى طب الأمة » .

التعليم العملى :

والى جانب حرية التفكير كانت المساهمة البارزة التى قام بها العرب هى نظامهم العملى فى التعليم . وقد كانوا هم أول من بدأوا التعليم العملى لطلاب الطب فى مستشفياتهم .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

ويقول مؤلف « طبقات الأطباء » إن هذه الطرق لم تكن مطبقة مطلقا فى مدارس الإسكندرية الطبية قبل عهد المسلمين . وكان حضور الطلاب إلزاميا فى المستشفيات التى أنشأها المسلمون والتى استخدمت فى ما بعد كنماذج لمستشفيات إيطاليا وفرنسا. ويقول الرازى إن الطبيب يجب أن يتمتع بشرطين لاختياره : أولا يجب أن يكون مطلعا تمام الاطلاع على العلوم الطبية القديمة والحديثة . وثانيا يجب أن يكون قد عمل فى أحد المستشفيات كطبيب مداوم .

وكان إبراهيم بن بكس أستاذا منتظما فى مستشفى عضد الدولة . وكان تلامذة الرازى يزورون المرضى فى مستشفى الرى. وكان يوجد مجلس للعلم تم تأليفه فى مستشفى مبافارقين لبحث حالات وأمراض المرضى ، وكان زاهد العلماء مدير هذا المجلس ، ونتيجة لذلك بدأت التشخيصات السريرية . وكان يجرى تسجيل أحوال المرضى وطرق شفائهم بانتظام ، وتحتوى كتب « الحاوى » ، « والفاخر » ، « والفصول » المهمة على وصف كامل لمثل هذه التشخيصات السريرية والمعالجات .

والخلاصة لم يضع المسلمون فقط أسسا متينة لعلم الطب الحديث ، بل وضعوا أيضا بناء رائعا له . فهل نكون شرفاء ومنصفين إذا وصفنا هذه الفترة المجيدة فى العصور المظلمة » ؟

مراجع :

كتاب القانون لابن سينا .
عيون الأنباء فى طبقات الأطباء .
معجم الأطباء .
طبقات الحكماء لابن جلجل .
طب العرب .
الطب العربى تأليف الدكتور ادوارد براون .
الطب العربى تأليف الدكتور دونالد كامبل .
دراسات فى العربية والفارسية .
الأدب الطبى تأليف الدكتور محمد زبير صديق .
بعض الوقائع المجهولة عن الطب العربى تأليف الحكيم كبير الدين .
التاريخ الطبى للفرس تأليف الدكتور ألغود .
أخبار العلماء بأخبار الحكماء لابن القفطى .
تاريخ التمدن الإسلامى لجورجى زيدان .
شرح القانون لأبى الحسن القريشى .
الفهرست لابن النديم .
وفيات الأعيان .
الأنسكلو بيديا البريطانية (مادة السكر) .
كشف الظنون عن أسماء الكتب والفنون .
الحاوى طبعة حيدر آباد .
« غنى ومنى » طبعة لاكنو .
كتاب التصريف طبعة لاكنو .
شرح الأسباب والعلامات طبع دلهى .
فردوس الحكماء طبعة برلين .
أصول تاريخ الطب التركى تأليف .
البروفسور سبيل أنور .

نيرواسطى
أستاذ الطب اليونانى والعربى فى باكستان

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الكندى فيلسوف العرب

للأستاذ سعيد زايد

(١) ان سمى الفارابى بالمعلم الثانى ، وأطلق على ابن سينا لقب المعلم الثالث ، فإن الذين نعتوا الكندى بفيلسوف العرب لم يتعدوا الدقة فى كثير أو قليل .

فإن أوضح برهان لذلك النعت هو عربيته الأصيلة ، فهو أبو يوسف يعقوب بن إسحاق ابن الصباح بن عمران بن محمد بن الأشعث ابن قيس ، من قبيلة كندة التى كانت تستوطن جنوب شبه جزيرة العرب . ولقد ذكر ابن أبى أصيبعة فى « عيون الأنباء فى طبقات الأطباء » من نسب الكندى ما يرجع به إلى قحطان ، وهذا دليل على أنه عربى صميم .

ولقد توفر الكندى على دراسة العقليات ، وعد أول من أخذ بمذهب المشائين فى الإسلام ، فى وقت كان فيه أغلب المقبلين على الدراسات العقلية من غير العرب الأصلاء .

وبالرغم من عراقة أصل عائلة الكندى وشرف محتدها فقد رحل بعض أفرادها إلى العراق ، وأصابوا فى عهد الدولة العباسية مناصب كبيرة ، وكان أبوه من أصابهم بعض المناصب ، فقد كان أميراً على الكوفة .

لم يذكر المؤرخون على وجه التحديد تاريخ مولد الكندى ، ويرجحون أن مولده كان سنة ١٨٥ هـ ، أى فى الأيام الأخيرة لحياة أبيه ، وهم إذ كانوا لم يحددوا تاريخ مولده ، فإنهم بالتالى لم يهتدوا إلى تاريخ وفاته ، فقيل إنه توفى فى أواسط القرن الثالث الهجرى .

فهو إذن قد نشأ يتيما ، وفاته أن يمرح بين ربوع الجاه والسلطان ، وإن لم يفته أن يعيش فى بحبوحة من المال والرفاهية . كفلته أمه فدبرت أمره ومآله ، ورأت فيه مخايل الذكاء وحب المعرفة فألحقته بدور العلم .

ووفقا للتقاليد المرعية فى تلك الأيام حفظ فيلسوفنا القرآن على يدى معلم ، ثم تعلم الخط والحساب . وأنس فى نفسه ميلا إلى الرياضيات ، فأقبل على العلوم الرياضية والفلك . ولكن لم تفته المشاركة فى علم الكلام ومباحثه ، وهذا أمر طبيعى بالنسبة لأى مفكر فى زمانه ، فقد كانت فتنة القول بخلق القرآن على أشدها ، وكان لا بد من إبداء الرأى فيها . إلا أن مشاركة الكندى فى ميدان الجدل كان بقدر ، فقد كان عف اللسان ، بعيداً بطبعه عن الفتن والدسائس ،

(١) بمناسبة مهرجان الكندى الذى عقد أخيرا فى بغداد .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

فلم يشأ أن يخوض بصورة فعالة فى معارك أهل الأدب ورجال الدين خوفا من حدوث ما لا تحمد عقباه ، وآثر العزلة والبحث العلمى ، والاطلاع .

فإلى جانب مشاركته فى علم الكلام وإقباله على الرياضيات ، قرأ فى الفلسفة التى نقلها المترجمون عن فلاسفة اليونان والفرس والهند، بل حاول أن يتعلم اللغة اليونانية ليقرأ بها آثار اليونانيين فى منابعها الأصيلة ، ويحاول من جهة أخرى أن يترجم منها إلى اللغة العربية والثابت أن الكندى كان يعرف اللغة السريانية وقد نقل منها بعض الكتب إلى اللغة العربية ، كما رواه القفطى فى « أخبار العلماء بأخبار الحكماء » من أنه نقل كتاب بطليموس المسمى كتاب « الجغرافيا فى المعمور من الأرض » إلى اللغة العربية نقلا جيدا ، عن السريانية . ولقد عده أبو معشر ، كما رواه ابن أبى أصيبعة فى « عيون الأنباء فى طبقات الأطباء » أحد أربعة رجال حذقوا الترجمة فى الإسلام ، وهم : حنين بن إسحاق ، ويعقوب بن إسحاق الكندى ، وثابت ابن قرة الحرانى وعمر بن الفرخان الطبرى .

وقد عاش الكندى - كما ذكرنا - مرفها ، فقد كان له ضيعة بالبصرة ، وكانت له فى بغداد دور يؤجرها . ورجل هذا شأنه من الغنى وحب العلم كان من الطبيعى أن تكون له مكتبة زاخرة بالكتب النفيسة ، سميت بالخزانة الكندية . كما يقول ابن أبى أصيبعة .

وللجاحظ بالنسبة لفيلسوفنا نوادر تصفه بالبخل . والظاهر أن الذى حدا بالجاحظ إلى هذا ، هو - كما يقول أستاذنا المرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق فى كتابه : « فيلسوف العرب والمعلم الثانى » - « إن نوع الحياة التى كان يحياها الكندى الفيلسوف بحكم ما فيها من عزلة وانقطاع عن مجامع الأدباء والعلماء ، واتصال بالمترجمين والفلاسفة وهم غير مسلمين ولا عرب ، لم يكن من شأن ذلك أن يجعل الكندى خفيفا على أرواح من يرون فى الحياة غير ما يرى . ولعل هذا هو السر فى أن عمر بن بحر الجاحظ جعل من الكندى فى كتابه « البخلاء » موضوع أسماء وفكاهات » .

عاش الكندى إذن عيشة الفيلسوف ، وهى ما نعرف من نظام فى المأكل والمشرب ، واقتصاد فى الأهواء ، ومجاهدة لشهوات النفس الأمارة بالسوء ، فكان شعاره حكمته المأثورة « اعص الهوى ، وأطع ما شئت » ، ونبراسه العبارة التى رواها الشهرزورى فى « نزهة الأرواح » « من ملك نفسه ملك المملكة العظمى ، واستغنى عن المؤن . ومن كان كذلك ارتفع عنه الذم ، وحمده كل واحد ، وطاب عيشه . ولو أفسد أحد أحسن أعضائه كان مذموما ،

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وأشرف الأعضاء الدماغ ، ومنه الحس والحركة وسائر الأفعال الشريفة ، ومستعملو السكر يدخلون الفساد على أدمغتهم ، ومتى توالى السكر على أحد بدون مرض دماغه ، واشتد ضعفه وبعده عن القوة الممدة للأفعال الإرادية والنفسانية » .

هذا ، ولقد كتب الكندى فى الفلسفة ، والمنطق ، والرياضيات فى أغلب فروعها مثل الحساب والهندسة والفلك والموسيقى ، والطب ، والكيمياء ، والسياسة ، وهو كما يقول ابن النديم فى « الفهرست » : « له فى أكثر العلوم مؤلفات من المصنفات الطوال والرسائل القصار .

وقبل أن تعرف ، أو بالأصح قبل أن تكتشف كتبه ، كانت الآراء تختلف حول الكندى وقيمته العلمية ، وفيما إذا كان متكلما ومعتزليا ، أو فيلسوفا له مذهبه المتكامل فى تفسير مشاكل الكون ، أو هل هو ممن احتذى حذو أرسطو أم سار على نهج خاص .

واكتشاف كتب الكندى أو على الأصح اكتشاف بعضها لم يأت دفعة واحدة ؛ بل إن بعض رسائله كان معروفا لدى الغربيين ، وترجم إلى اللغة اللاتينية ، وتدارسه محبو الفلسفة . ولكن اكتشاف المستشرق الألمانى العلامة ريتر لمجموعة رسائل الفيلسوف فى مكتبة أياصوفيا سنة ١٩٣٢ أحدث أثرا عظيما فى معرفتنا له . ولقد نشر هذه الرسائل فى جزءين الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة سنة ١٩٥٠ ، ونشر الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى إحداها وهى « كتاب الكندى إلى المعتصم بالله فى الفلسفة الأولى » سنة ١٩٤٨ .

ورسالة الكندى فى الفلسفة الأولى من أطول رسائله ، يقول فيها - بعد الديباجة - : إن صناعة الفلسفة من أشرف الصناعات الإنسانية ، منزلة ومرتبة ، فهى صناعة حدها علم الأشياء بحقائقها بقدر طاقة الإنسان » . وغرض الفيلسوف إصابة الحق من الناحية النظرية والعمل به فى الحياة . وإذا كانت صناعة الفلسفة شريفة ، فإن أشرف أبوابها هو البحث فى الفلسفة الأولى أى البحث فى معرفة العلة الأولى للكون ، وبالتالى يكون أشرف فيلسوف هو الباحث فى علل الكون أو الباحث فى علم الحق الأول الذى هو علة كل حق . فالعلة الأولى أولى بالشرف ، وأولى بالجنس وأولى بالترتيب ، وأولى بالزمان ، فإنها علة الزمان .

والباحثون فى الحق - على رأى الكندى - من أتى منهم بيسير منه ، له الشكر العظيم ، فضلا عمن أتى بكثير منه ؛ وذلك لأنهم أفادوا الناس من ثمار فكرهم ونوروا لهم الطرق الخفية . وقد ذكر الكندى أن أرسطوقال : إنه ينبغى أن نشكر آباءهم ، إذ كانوا سبب كونهم .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وقائع ملموسة :

من ثمار الإيمان

للأستاذ محمد رجب البيومي

« ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين » (قرآن كريم)

أدى عمر بن الخطاب صلاة الفجر ذات مرة ، ثم تطلع إلى من وراءه من الناس ، فوجد المصلي حاشدا يموج بالراكع والساجد ، والمسبح والمرتل ، ونظر غير بعيد فلمح متمم بن نويرة يجلس فى زاوية هادئة وقد وضع رأسه بين يديه كمن يفكر فى شجن مرير ، فنهض أمير المؤمنين من مكانه ، ودنا منه فحياه فى تواضع ، وأخذ يسأله عن نفسه ومعاشه وبيته ، واستنشده آخر ما قال فى رثاء أخيه مالك ، فاسترسل الشاعر

(بقية المنشور على صفحة ٦١٢)

فعلم حقائق الأشياء ، عند الكندى ، علم شريف نافع ، ذلك لأن فيه « علم الربوبية ، وعلم الوحدانية ، وعلم الفضيلة ، وجملة علم كل نافع والسبيل إليه ، والبعد عن كل ضار والاحتراس منه ، واقتناء هذه جميعا هو الذى أتت به الرسل الصادقة عن الله ، جل ثناؤه . فإن الرسل الصادقة صلوات الله عليها إنما أتت بالإقرار بربوبية الله وحده ، وبلزوم الفضائل المرتضاة عنده ، وترك الرذائل المضادة للفضائل فى ذواتها وإيثارها » .

وبعد ، فهذه كلمة قصيرة عن حياة الكندى الفيلسوف العربى ، وعن مقدمة رسالته فى الفلسفة الأولى ، بمناسبة مهرجان الذكرى فى بغداد . ولعل حكومات العرب تضع فى اعتبارها - دائما - إقامة مهرجانات ذكرى للمفكرين العرب . فقد أقيم منذ أكثر من عشر سنوات مهرجان ابن سينا . وأقيم منذ سنتين مهرجان الغزالى ، ولست أدرى لم اهتم المسئولون بمن جاء بعد الفارابى وبمن جاء قبله ولم يهتموا به وهو فيلسوف عظيم أسس مذهبا فلسفيا متكامل الأطراف وله فى جميع فروع الفلسفة آراء أصيلة ؟ . ولسنا هنا نلفت النظر نحو الفارابى وحده ، بل إنا نرجو أن يكون جميع مفكرى الإسلام موضع الاعتبار ، فإن هذا يربطنا بما ضيعنا التليد .

سعيد رايد

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وقائع ملموسة :

من ثمار الإيمان

للأستاذ محمد رجب البيومي

« ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين » (قرآن كريم)

أدى عمر بن الخطاب صلاة الفجر ذات مرة ، ثم تطلع إلى من وراءه من الناس ، فوجد المصلي حاشدا يموج بالراكع والساجد ، والمسبح والمرتل ، ونظر غير بعيد فلمح متمم بن نويرة يجلس فى زاوية هادئة وقد وضع رأسه بين يديه كمن يفكر فى شجن مرير ، فنهض أمير المؤمنين من مكانه ، ودنا منه فحياه فى تواضع ، وأخذ يسأله عن نفسه ومعاشه وبيته ، واستنشده آخر ما قال فى رثاء أخيه مالك ، فاسترسل الشاعر

(بقية المنشور على صفحة ٦١٢)

فعلم حقائق الأشياء ، عند الكندى ، علم شريف نافع ، ذلك لأن فيه « علم الربوبية ، وعلم الوحدانية ، وعلم الفضيلة ، وجملة علم كل نافع والسبيل إليه ، والبعد عن كل ضار والاحتراس منه ، واقتناء هذه جميعا هو الذى أتت به الرسل الصادقة عن الله ، جل ثناؤه . فإن الرسل الصادقة صلوات الله عليها إنما أتت بالإقرار بربوبية الله وحده ، وبلزوم الفضائل المرتضاة عنده ، وترك الرذائل المضادة للفضائل فى ذواتها وإيثارها » .

وبعد ، فهذه كلمة قصيرة عن حياة الكندى الفيلسوف العربى ، وعن مقدمة رسالته فى الفلسفة الأولى ، بمناسبة مهرجان الذكرى فى بغداد . ولعل حكومات العرب تضع فى اعتبارها - دائما - إقامة مهرجانات ذكرى للمفكرين العرب . فقد أقيم منذ أكثر من عشر سنوات مهرجان ابن سينا . وأقيم منذ سنتين مهرجان الغزالى ، ولست أدرى لم اهتم المسئولون بمن جاء بعد الفارابى وبمن جاء قبله ولم يهتموا به وهو فيلسوف عظيم أسس مذهبا فلسفيا متكامل الأطراف وله فى جميع فروع الفلسفة آراء أصيلة ؟ . ولسنا هنا نلفت النظر نحو الفارابى وحده ، بل إنا نرجو أن يكون جميع مفكرى الإسلام موضع الاعتبار ، فإن هذا يربطنا بما ضيعنا التليد .

سعيد رايد

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

فى إبداعه ، وعمر الأديب الراوية يهتز للمعنى الجيد ، ويهش للتعبير الصادق ويلمس بإحساسه الأدبى ما وراء هذه الزفرات المنظومة من مشاعر لاهبة تذوب أسى وتغتلى اضطراما ، ثم انحدرت دمعتان ساخنتان على خد الخليفة العادل ، فتطلع إليه الشاعر وسأل متعجبا :

ما يبكيك يا أمير المؤمنين ! ؟

فقال له عمر فى صوت تخنقه العبرة ، وتعوقه الزفرة ، وددت أنى كنت شاعرا فأرثى أخى زيد بن الخطاب بمثل قولك :

وكنا كندمانى جذيمة حقبة
من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
فلما تفرقنا كأنى ومالكا
على طول وصل لم نبت ليلة معا

فتطلع إليه متمم متحيرا ، ثم أسعفه خاطره المؤمن فقال : هنيئا لك يا أمير المؤمنين أن رزق أخوك الشهادة فى سبيل الله ، فلقى الجنة راضيا مرضيا ، ولو مات أخى مالك على مثل ما مات عليه زيد بن الخطاب ما رثيته ببيت واحد ، إذ راح ينعم برضوان الله !

فانطلق بالبشر وجه الفاروق سريعا ، وزال عنه ما جلله من كآبة الشجن العابر ، وصاح متهللا ، والله ما عزانى أحد بمثل ما عزانى متمم ، الحمد لله رب العالمين .

هذه القصة الصغيرة تحمل وراءها معنى كبيراً ، فعمر الصارم الجاد كان يستجيب لعاطفته الرحيمة حين تهب عليه لوافح الذكرى المؤسية ، فيستشعر لهيب الحزن يندلع فى صدره ثم يستروح برد التآسى حين يجلس إلى شاعر مفجوع فيسمعه أصدق الرثاء ، ويريق بين يديه عبرات الشجى الضارع ، حزينة النغم ، دامية الرنين ، ويود لو كان شاعراً يفصح عن ذاته لينطلق أواره الحبيس فى قافية مجلجلة ذات تصوير وتمثيل ، ولكنه يفاجأ بحقيقة سارة لا يدرى كيف غابت عنه على وضوحها البارز ، وصدقها الأكيد ، فأخوه الشهيد ينعم برضوان من الله أكبر ، ومهما انسدل بينهما حجاب الغيب الآن فسيأتى يوم يرفع فيه الستار ، وسيتطلع الأخ الصابر ليجد أخاه مع الذين قتلوا فى سبيل الله حيا يرزق ! وإذن ففيم الأسف الجازع والشجى المرير ، ! ! إن هذا المعنى المؤمن يتراءى له فجأة فينزل على صدره المحرور نزول الندى المناطر على الزهرة الملتاحة ، فتنبسط أساريره بعد انقباض ، ويصيح صوته منطلقاً بعد احتباس ما عزانى أحد بمثل ما عزانى متمم ! الحمد لله رب العالمين ! !

ليس الفاروق وحيداً فى بابه ، فنحن نشاهد عشرات المصابين ، تفجؤهم الكارثة الصاعقة يطيش لها اللب الحازم ، ويتزلزل تحتها الفؤاد الراسخ ، ولكنهم يثوبون إلى نفوسهم

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

المؤمنة فيعلمون أن اللقاء قريب ، ويرون فى أحلامهم الهادئة أطياف الحبيب النازح يفتر ثغره ، ويشرق جبينه ، فيتأكدون أن قبره روضة من رياض الجنة وأنه فارق موطن البلاء فى الحياة ومنعق الشقاء فى الدنيا لتهدأ روحه الناعمة بين أشجار وحدائق ، وحور وولدان ، ثم يرسلون إلى روحه هدايا عبقة تفوح فى آى من الذكر الحكيم ، ولا يزالون كذلك يرونه فى الحلم ليلا ويستمطرون عليه الرحمة نهاراً ، فهو القريب البعيد ، والغائب الحاضر ، ولن يصعب رحيل إنسان ، يبعده القبر ويدنيه الإيمان !

لن أقف عند هـــذا الحد ، فأقرر أن الإيمان الصادق يهون المصيبة عند وقوعها ، بل أتجاوز ذلك فأقرر صادقا أن من مزايا هـذا الإيمان المخلص أنه يهون المصيبة على نفس الصابر الخاشع قبل أن تقع ، فهو يوطن نفسه بادئ ذى بدء على احتمال المكروه ، وتوقعه فى دنيا محفوفة بالمكاره الكارثة ، حتى إذا حانت ساعته المحتومة صادفت قناة صلبة تهب عليها الريح من كل مكان ، فما تقدر أن تزحزحها قليلا عن مطمأنها الثابت فى مستقر الأرض ، وإذ ذاك يصير الكارث المذهل رغم فداحته القاصمة مما لا يكاد يؤبه له من الأشياء !

قال محمد بن خلف : كان لإبراهيم الحربى ابن وكان له إحدى عشرة سنة ، وقد حفظ القرآن ، ولقنه من الفقه والحديث شيئا كثيراً على حداثة عمره ، ثم امتحن بفقده ، فجئت أعزيه ، فقال لى فى هدوء : كنت أشتهى موته !! فتعجبت كثيراً ، وقلت : يا أبا إسحاق ، أنت عالم الدنيا ، تقول مثل هـذا فى صبيك وقد نبه ، ولقنته الفقه والحديث ! فأسند رأسه إلى الحائط ، وأطرق قليلا ثم قال : لقد رأيت منذ عام فى النوم كأن القيامة قد قامت ، وكأن صبيانا بأيديهم القلال فيها الماء ، يستقبلون الناس فيسقونهم ، وكأن اليوم حار شديد الحرارة ، فقلت لأحدهم : اسقنى من هذا الماء ، فنظر إلى ثم قال : لا ، لست أبى ، فسألت أى شىء أنتم ؟ فقال قائلهم : نحن الأطفال الذين متنا فى الدنيا وخلفنا آباءنا ، نقوم اليوم فنستقبلهم بالماء .

قال إبراهيم : فلهذا تمنيت موت الغلام ! !

ونحن نتساءل فى ضوء هـذه الحادثة : كم يكون جزع الوالد على ولده الذكى النجيب ، إذا بدت عليه مخايل العبقرية فى سن مبكرة ، فحفظ القرآن ، وروى الحديث ، ودرس الفقه ، ثم تخطفه الموت من بين أحضان والده وقد تعهد عوده الناضر بالرى حتى كاد أن يورق ، كم يكون جزع هـذا الوالد إذا لم يجر الإيمان بالله مجرى الدم فى عروقه ، وكم تسود الحياة فى عينه فلا يرى فى ضياء الشمس ،

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

ونور القمر بصيصا من شعاع ، ولكن الله قد لطف به ، فرزقه الأمل وهو شيء كثير .

تصور هذه الحادثة بخيالك ، ثم امض فى سبحاتك إلى إنسان جاحد بالله ، منكر الغيب ، كافر بالحساب ، ودع الموت يفجعه فى نجل عزيز ، أو أخ حبيب ، وقل لى بربك: كيف يستشعر الراحة فى مصابه ، ولا أمل عنده فى لقاء آجل ، ولا ثقة لديه فى رب قادر ، إنه من شجونه الدامسة فى ليل مطبق ، بطيء الكواكب ، وإن اليأس الجهم ليضاعف عليه نكبته ، ويرميه فى أمواج من السخط والقلق والفجيعة ، وإذا كنا نعرف أنه لا حياة مع اليأس ، ولا يأس مع الحياة ، فلا حياة هادئة لهذا المعذب التعس ، وقد فقد الأمل وسدت بعينيه منافذ الرجاء !

إن كنت فى شك من ثمرة الإيمان فأخذت تنكر علاجه النفسى ، ودواءه الروحى ، وتظن موضوعنا هذا كلمات تنمق ، وخيالات ترص ! إن كنت فى شك مما أؤكد من القول ، فسأضع أمامك صورة ناطقة لشخصية مشتهرة ، ذاع حديثها فى الناس وتناقل الدارسون أخبارها المتواترة جيلا بعد جيل ، ثم ضرب بها المثل السائر ، فقيل (أبكى من الخنساء) هذه الشخصية المشتهرة ذات المثل السائر تنهض دليلا صادق البرهان لما نقول ، وأنت أمام تاريخها المشهود وشعرها الذائع لا تملك أن تشك فيما نقذف به من الدليل .

لقد فقدت الشاعرة الودود أخاها صخرا فى الجاهلية ، فلم تتحمل كارثة الموت بفقده ، واندفعت تصل الليل بالنهار فى نواح متصل ، وشعر دامع ثم ارتدت ثياب الحداد فآلت على نفسها أن تظل عالقة بها ، ما تردد فى صدرها نفس ، وكانت ذات إحساس شاعر ، فليست ممن تهون لدى نفوسهن كارثة تحيق ، بل تتغلغل فى الأعماق ، غائرة اللذع ، مشبوبة الالتياع ، فهى تذكر فقيدها النازح عند طلوع الشمس ، وعند غروبها ، وتتلمس العزاء لدى المفجوعات من أترابها ، مع ما تعتقده فى قرارتها من بعد الفارق الشاسع بين مصاب ومصاب .

وما يبكون مثل أخى ولكن
أعزى النفس عنه بالتأسى

هذا الأخ الفقيد ، كان - على ما تروى المأثورات بارا بأخته ، فهو يؤثرها على بيته وأهله ، ولم يكن ذلك مستغربا من بدوى شهم يرعى الأحدوثة ، ويهتز للحمد ، وقد وجد من معارضة زوجته ملاما جعله دبر أذنه ، ويظهر أن الأريحية كانت طبعه الأصيل ، فأشعار الخنساء فيه تضعه موضعه البارز فهو صخر الندى ، كثير الرماد ، نحار إذا تشتو البادية .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

حمال ألوية هباط أودية
شهاد أندية للجيش جرار

لاجرم ، مثل هذا الرجل الشهم كان يروع الغريب بمآثره ، ويبده البعيد بأياديه ، فما ظنك بأخت قريبة تسمع ثناء الناس عليه ، وتزهى به أمام زوجها وأولادها ، وترى الضيفان يؤمون ساحته فى السلم ، والشجعان يحتمون برايته فى الحرب ، فمن أى نواحيه جئته وجدت الفتوة الماجدة ، والمروءة المهتزة ، والشمم الرفيع

قد يقول قائل : إننا نعتمد فى أوصاف صخر على ما ذكرته أخته فى معرض الرثاء ، ولعلها اندفعت فى مغالاة عاطفيـــة تجعل السفح قمة ، والسراب ماء ، ونحن نقول : إن الشاعرة تعرضت إلى جميعة أخرى فى أخ شقيق هو معاوية ، فرثته رثاء معقولا دون أن تتزيد فلو كان ديدنها المبالغة لوضحت فى رثاء الشقيق قبـــل الابن ! ! ثم إن الشعر العربى لعهدها لم يسلك مسلك الإغراق بل كان فى أكثره فطريا يعكس ما يجول فى النفس ، وكفى ، وقد تناقل الرواة حديثها عن صخر فما شفعوه بنقد ، وهى بعد فنانة لها منافسون أقوياء حراص على أن يرتفعوا بأشعارهم عن مستواها دون أن يرزقوا عاطفتها الثائرة ، فكان أن غلبت الفحول :

هذه الشاعرة الجازعة قد تعرضت فى شيخوختها الواهنة إلى نكبة أكثر هولا ، وأعظم فجيعة من نكبتها فى صخر ، وكان الظن بها أن تصوغ قصائد الرثاء لاهبة كاوية ، فالنكبة نكبة أربعة من أولادها المغاوير كانوا فى ميعة الشباب ، وعنفوان الرجولة ثم تخطفتهم السيوف الكافرة فى يوم واحد ، وهى نكبة أكبر من أن توصف ، ولكن ظروفها الزمنية جعلتها محتملة ؛ لأن الخنساء المؤمنة فى دنيا الإسلام غير الخنساء المشركة فى دنيا الجاهلية ، وسنعرض من أقوالها ما يجلو هذه الحقيقة ، لتكون بروعتها المؤثرة أثراً طيباً من آثار اليقين المخلص وثمرة شهية من ثمار الإيمان .

لقد زحفت الجيوش الإسلامية لحرب الفرس فى القادسية ، ونهض الشباب من أشبال العرب وأبطال المسلمين يؤدون ضريبة الدين ، فى فتح خالد ، يزلزل عروش البغى ، ويعلى منار العدالة والحرية والمساواة ، ورأت الشاعرة المؤمنة أشبالها الغطاريف يتسابقون إلى النصر مستبشرين ، فهزتها أريحية البطولة وسرها أن تسهم بأفلاذها الأربعة فى نصرة دين عزيز يجمع الناس على المودة والتعاطف والإيمان ، ثم دفعتها لوذعية الأدب وعبقرية الذكاء وجلال اليقين أن تخطبهم خطبة جهيرة فتقول :

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

أى بنى : إنكم أسلمتم طائعين ، وهاجرتم مختارين ، والله الذى لا إله إلا هو إنكم لبنو رجل واحد ، ما خنت أباكم ، ولا فضحت خالكم ، ولا هجنت حسبكم ، ولا غيرت نسبكم ، فاعلموا أن الدار الآخرة خير من الدار الفانية ، فاصبروا وصابروا واتقوا الله لعلكم تفلحون ، فإذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها ، فيمموا وطيسها ، وجالدوا رئيسها ، تظفروا بالكرامة والغنم فى دار الخلد والقيامة » .

ثم يمضون إلى القتال ... وتمر الأيام ، فتتلمس الأبناء متطلعة ، فيعود الظافرون إلى الخنساء فيخبرونها بانتصار الإسلام واستشهاد الأبناء ، ما بقى منهم أحيد ، فتردد فى صوت خافت تقطعه الشيخوخة الواهنة « الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم وإنى لأرجو أن أجتمع وإياهم فى مستقر رحمته ، ثم لا تزيد .

أى معجزة نادرة قلبت الخنساء من نائحة جزوع إلى واثقة صبور ، هل كان خطب الأخ مهما عظمت به الكارثة وتضاعف فيه الشجن ، أكثر فداحة من نازل محيق يعصف بأربعة من الشباب البسلاء أرضعتهم دماءها ، وأطعمتهم حياتها ، ومنحتهم رجاءها ثم غابوا مستشهدين وتركوها فريدة وحيدة تجالد الشيخوخة اليائسة والعمى المظلم ، والضعف الراعش ثم تتلمس النصير فلا يعين .

لم يكن المصاب القديم أفدح من الرزء الطارئ دون جدال ، ولكنه صحب اليأس وجافاه الأمل ، فبدت كارثته على احتمالها شديدة لا تطاق ، أما مصاب الأبناء فقد هونه الإيمان ويسره الرجاء ، فرجعت الأم إلى دينها القوى ، فأخبرها أن اللقاء قريب ، وأن أفلاذها الأبطال فرحون بما آتاهم الله من فضله ، يستبشرون بنعمة من الله ، ورأتهم بإيمانها الشاعر يطيرون فى آفاق الفردوس ، تعبق دماؤهم الشذية بأريج الاستشهاد ، وتتألق أسرتهم الوضيئة ببريق المثوبة ، وإذ ذاك قالت فى ثقة المؤمن ، وعزيمة الآمل : الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم وإنى لأرجو أن أجتمع بهم فى مستقر واحد » .

إن بيت القصيد فى هذه العبارة هو كلمة أرجو ، وبها وحدها صار البعد قربا ، والقبر جنة ، والمحنة منحة ، وهى وحدها التى دفعت إبراهيم الحربى أن يحلم بالحوض المشهود ، يوم يقوم الناس لرب العالمين ، كما أهابت بالفاروق فصاح « والله ما عزانى أحد بمثل ما عزانى متمم » !

فيا لحلاوة الرجاء ، ويا لعذوبة الآمال .

محمد رجب البيومى

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الأزهر والتطور

للأستاذ محمود الشرقاوى

— ٣ —

قبل أربعين سنة قامت ثورة فى بلد من بلاد المسلمين كان سلطانها يحكم بلادهم جميعاً باسم الخلافة ، وقد هدمت هذه الثورة أساس هذا الحكم وأزالت من الخلافة الاسم والرسم وخرجت بهذه الجماعة من نسبة الإسلام وما يصلها به من سبب وقالت عنه قولة منكرة : إنه ريح الصحراء ، وهذه المحنة العاتية التى مرت منذ قريب بجماعة المسلمين هذه فى (دولة الخلافة) كان لها من الأسباب والنتائج ما يجب على رجل الفكر الدينى أن يعرفه ويدرسه وأن يتأمل ما تبطنه هذه الأسباب من احتمالات أخرى فى بلاد أخرى من بلاد الجماعة الإسلامية ، حتى يحذر وينذر ويتطلع ويشير .

وفى هذه السنوات الأخيرة خرجت إلى نور الحياة وكرامه الحرية بلاد كثيرة ، فى إفريقيا خاصة ، فيها جماعات كثيرة من المسلمين . وهذه الجماعات التى عاشت دهراً طويلا أو قصيراً فى ظلام العدم وذل العبودية تتطلع إلى المستقبل ، تقناوشها وتتناوش جماعة المسلمين فيها عوامل ذات قوة بالغة وذات خطر بالغ أيضاً ومطامع بالغة كذلك فى توجيه المستقبل لهذه الجماعة الإسلامية توجيهاً خاصاً قد يدابر الحياة العامة لبقية الجماعة الإسلامية ، وقد يدابر الإسلام نفسه ويعمل على جر الجماعة الإسلامية فى هذه الدول الجديدة إلى خارج الدائرة كلها .

وعلى رجل الفكر الدينى ، الذى يمثله الأزهر المتطور ، نحو هذه الجماعة الإسلامية واجبات ، أولها فهم أوضاعها ودراسة أحوالها وإدراك مشاكلها ثم المشاركة الإيجابية فى توجيهها نحو الحياة الإسلامية والاجتماعية الصحيحة ليبقيها (داخل الدائرة) .

وفى السنوات العشرين الأخيرة شهدنا مأساة كبرى لجماعة إسلامية اغتصب بلادها ومحا دينها وقوميتها مغتصب خائن غادر . ولهذه النكبة أسباب بعيدة وقريبة ، واضحة وخفية .

هذه أمثلة نوردها من مشاكل أو مسائل قائمة فى حياة الجماعة الإسلامية المعاصرة التى نعتقد أن لرجل الفكر الدينى حيالها واجب ،

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وأن التطور الجديد — أو التطوير — يجب أن يعينه على فهمها أو أن يوجب عليه فهمها وتعمق حقائقها وأسرارها والمشاركة الإيجابية المخلصة فيها . وما نريد أن يكون الأزهريون جميعاً من هذا الطراز ، بل نريد منهم قلة واعية قادرة .

* * *

يخرج الأزهر معلمين للغة ومشترعين وموظفين ، وسيخرج ، عند إنشاء كلياته الجديدة ، أطباء ومهندسين وزراعيين ، ولكن هذه الطائفة ، من رجال الفكر الديني ، التي عليها أن توجه جماعة المسلمين في العالم كله ، هي ما نرجو أن نراه ثمرة لهذا التطوير ، أو التطور : طبقة تكون ، بفهمها وثقافتها وإخلاصها أهلا للريادة والقيادة .

وتقول المادة ١٥ من مشروع القانون بتطوير الأزهر إن : « مجمع البحوث الإسلامية هو الهيئة العليا للبحوث الإسلامية وتقوم بالدراسة في كل ما يتصل بهذه البحوث وتعمل على تجديد الثقافة الإسلامية وتجريدها من الفضول والشوائب وآثار التعصب السياسي والمذهبي وتجليتها في جوهرها الأصيل الخالص وتوسيع نطاق العلم بها لكل مستوى وفي كل بيئة ، وبيان الرأي فيما يجد من مشكلات مذهبية أو اجتماعية تتعلق بالعقيدة ، وحمل تبعة الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة » .

ثم يجعل القانون ، في المادة ١٦ منه ، تكوين مجمع البحوث هذا من خمسين عضوا من كبار علماء الإسلام يمثلون جميع المذاهب الإسلامية ، ويكون من بينهم عدد لا يزيد على العشرين من غير مواطني الجمهورية العربية المتحدة .

ونستطيع هنا أن نقول : إن هذا المجمع للبحوث هو امتداد أو تجديد أو « تطوير » لجماعة كبار العلماء . وجماعة كبار العلماء كان الغرض من إنشائها - وهو غرض لم يتحقق مع الأسف ، شيء منه - كان الغرض من إنشائها هو : « أن يعود إليه - أي إلى الأزهر أولئك الفقهاء المحققون والمحدثون الثقات والمفسرون المطلعون واللغويون البلغاء والمؤرخون الصادقون وأهل الصلاح والتقى » . « ... ليكون الأزهر منها أمثال عز الدين ابن عبد السلام والسراج البلقيني وجلال الدين السيوطي والسبكي وابن هشام والشهاب القرافي ، وكلهم مصريون ، والإمام الأصفهاني وإبراهيم بن عيسى الأندلسي والإمام الزيلعي وأبو حيان محمد ابن يوسف الغرناطي وتاج الدين التبريزي وعلاء الدين الحموي والحافظ العراقي والرضي الشاطبي وشيخ الإسلام زكريا

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الأنصارى والحافظ ابن حجر العسقلانى وقاسم بن محمد التونسى » [1] .

وهؤلاء العلماء الذين تمنى مشروع إصلاح الأزهر قبل خمسين سنة أن يخرج الأزهر الجديد أندادا لهم ، هؤلاء العلماء مازلنا نرجو من الأزهر المتطور أن يخرج أندادا لهم من السلفيين المتابعين ، وآخرين شجعانا مجددين مستقلين من أمثال ابن القيم وابن تيمية وابن حزم والشيخ محمد عبده والمراغى . وهؤلاء وهؤلاء يرجى أن يكون منهم - كما قال مشروع إصلاح الأزهر قبل خمسين سنة وكما لا نزال نقول - يرجى أن يكون منهم : « تاج الجامعة الأزهرية ، ومن أهلها أن يكونوا أساطين العلم وحفاظ الشريعة ونصوص لغة القرآن . لتركن الضمائر الواجفة إلى علمهم ، وتهدأ النفوس الراجفة بهديهم وإرشادهم وتطمئن قلوب المؤمنين بقيامهم حفاظا لليقين ، وحراسا على شريعة النبى الأمين » [2] .

وهناك أمنية أعتقد أن كل مسلم مخلص يتمنى من صميم قلبه ، كما أتمنى أن يحققها ، أو يمهد لها ، التطور أو التطوير : هى أن يكون الأزهر الجديد عاملا من عوامل التقريب ، وأوشك أن أقول التوحيد ، بين المسلمين ، كما يأمرهم دينهم .

والإسلام ، كما نعلم ونقول ، يدعو إلى الأخوة الإنسانية والمصافاة بين جميع البشر فكيف بذلك بين أهله ومعتقديه ... ؟

ونحن نعلم أن الأزهر مدرسة ثقافية علمية إسلامية ويجب أن يبقى كذلك ، وهو - عن هذا الطريق وحده - يستطيع أن يصنع شيئا كثيراً فى سبيل هذه القربى - أو الوحدة - التى نريدها بين المسلمين إذا أخلص وسعى ، وأجهد جهده .

وفى الباب الثالث من مشروع القانون لتطوير الأزهر إشارة إلى هذا السبيل كنت أود أن تكون أوفى وأوضح [1] . وهذه المادة تقول إن الأزهر ، بعد تطويره ، يعمل على « تجديد الثقافة الإسلامية وتجريدها من الفضول والشوائب ، وآثار التعصب السياسى والمذهبى ، وتجليتها فى مظهرها الأصيل الخالص » .

تجريد الثقافة الإسلامية من الفضول والشوائب وآثار التعصب السياسى والمذهبى

(٢،١) ص ٤٨ من الطبعة الأميرية سنة ١٩٢٨ من مشروع قانون إصلاح الأزهر ، الذى وضعته ، فى سنة ١٩١٠ ، لجنة من المرحومين : عبد الخالق باشا ثروت وإسماعيل صدقى وفتحى باشا زغلول ، والذى كان من ثمرته قانون ١٩١١ المعروف بقانون الشيخ شاكر .

(١) المادة ١٥ من المشروع .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

هـذا التجريد أو تنقية الثقافة الإسلامية من بقايا التعصب السياسى والمذهبى سبيل يجب أن يسلكه الأزهر وأن يسير فيه بكل جهده وإيمانه وإخلاصه . فبين المسلمين الآن من الفرقة المذهبية ما يثير الحزن والشجن . فإذا تأملنا نشأة هـذه المذاهب ، التى كانت من أسباب الفرقة بين المسلمين بدل أن تكون من أسباب التيسير عليهم ، وتأملنا كذلك أسباب السيادة التى سودت بعضا منها على الآخر ، إذا تأملنا نشأتها وجـــدناها ، فى الأكثر ، نشأة طبيعية ، كما تنشأ المدارس الفكرية ، ثم كانت السيادة لبعضها لأسباب قد يكون للسياسة والحكم مدخل فيها : وهذه السيادة المقررة ، وهذا الشيوع والغلبة على بقية المذاهب لم تكن لتفوق الأولى على الثانية من الوجهة العلمية أو الدقة فى الفهم ، بل لذلك أسباب هى إلى الساسية أقرب منها إلى العلم ، ونحن نعرف أيضا أن بعض هـذه المذاهب ـ غير الأربعة ـ كانت له فى يوم من الأيام وفى أزهر العصور من دول الإسلام مثل هذه الغلبة ، وهذا التفوق الذين نجدهما الآن للمذاهب الأربعة ، فقد بقيت السيادة فى الذهن وفى الحكم لأصحاب مذهب الاعتزال أكثر من خمسين سنة فى زمن الدولة العباسية .

يقول أبو بكر الصيرفى ، الفقيه الشافعى الأصولى : « كانت المعتزلة قد رفعوا رءوسهم حتى أظهر الله أبا الحسن الأشعرى فجزمهم فى أقماع السمسم . ومن وقف على طبقات المعتزلة للقاضى عبد الجبار علم ما كانوا عليه من العدد والعدة » (١) .

فإذا رجونا من الأزهر ألا يكون نصيراً لمذهب بعينه من بين المذاهب الإسلامية فيتعصب لها . بل أن يكون محيطا بها جميعا متخذاً التقريب بينها سبيلا للخروج بالمسلمين جميعا من العصبية المذهبية ثم سبيلا بعد ذلك للتقريب بينهم . إذا رجونا من الأزهر المتطور أن يفعل ذلك فإنا لا نطلب شططا ، بل نجد لذلك كثيرا من الأسباب القائمة والذرائع التاريخية والأسناد الثقافية التى لا تحتاج لغير الإقدام والشجاعة والحيلة معاً . ونجد ، قبل ذلك وفوق ذلك ، أن حاضر المسلمين وبلادهم ومستقبلهم يوجبان ذلك ويحتمانه .

وأمامنا كثير من النذر .

محمود الشرقاوى

---

(١) ص ٤٩ ـ ٥٠ من كتابنا « تقويم الفكر الدينى » ـ البيان العربى .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

نظرية التعسف في استعمال الحق

للأستاذ أحمد فتحي أبو سنة

— ٣ —

عرفنا أن أنواع التعسف أربعة وأن الثلاثة الأولى منها مبنية على قاعدة سد الذرائع التي تقول إن المشروع إذا أدى إلى محظور كان محظوراً والمباح إذا أدى إلى حرام كان حراما .

والرابع كذلك استعمال محظور لما جاوره من عدم الاحتراس ، وبناءاً عليه يكون المتعسف في استعمال الحق قد تسبب في أمر محظور فيعتبر متعدياً بطريق التسبب : لتقصيره عند استعمال حقه : لقصد الضرر أو بالسعي في حصول مفاسد غالبة أو في تحقيق أغراض غير مشروعة أو لعدم الاحتراس: فيكون مسئولا عن هذا التقصير ، والمسئولية في الأصل الأول والرابع عن القصد ، وفي الثاني والثالث عن التقصير ، ويترتب عليه حكم مرتكب المحظور وهو في كل شيء بحسبه كما يأتي : فلا فرق في حكم الشريعة بين من يأتي بما هو محظور من أول الأمر كالضرب والغصب ومن يأتي بمشروع أدى إلى نتيجة تقصيرية تتعلق به مسئولية المخالفة .

وبهذا يتبين أن التعسف في استعمال الحق في حكم الفقه هو من الفعل الضار أو الامتناع الضار والعقد المحرم . مثال الامتناع الضار امتناع المحتكر عن بيع ما احتكره والناس بحاجة إليه حيث يجبر على البيع ويعزر ، وامتناع التاجر عن الثمن المسعر حيث يجبر عليه ويعزر ، وامتناع العمال الذين تتوقف عليهم إدارة المصانع الضرورية للدولة كمصانع الأسلحة ومواد البناء والأطعمة حيث يجبرون على العمل بأجر المثل وامتناع الطبيب الذي تعين لعلاج مرض معين .

الأحكام المترتبة على التعسف :

وحكم التعسف إما التعويض إذا أدى إلى إتلاف مال أو نفس كمن حفر في ملكه بجوار حائط جاره فانهدمت ، وإما الإبطال إذا كان في التعاقد كوصية الضرار وبيع العينة وإما رفع الضرر كبناء المالك ملاصقا لجاره فسد عليه نوافذ الضوء والهواء [1] وكجباية ضرائب ظالمة ومنع المحتكر ، وإما التعزير كما في دعاوى التشهير وإما المنع من ممارسة الحق المتعسف في استعماله كما في منع الزوج من السفر بزوجه إذا قصد به إيذاءها والحجر على المديان والمفتي المحتال على المحرمات والطبيب الجاهل .

---

(١) مرشد الحيران مادة (٦١) .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وفاء النظرية في الفقه الاسلامي ووضوحها

لعلنا تبينا من العرض السابق أن هذه النظرية غـــدت مستوعبة لجميع حالات التعسف ، واضحة المعالم لبنائها على أصول مضبوطة لا اضطراب فيها : فإن مبنى الأصل الأول وهو قصد الدار وإن كان أمراً شخصيا لكن يمكن كشفه بالقرائن الظاهرة والأصل مبنى على مقياس مادى . وهو الموازنة بين المصلحة والمفسدة ، والأصل الثالث معياره معرفة النظم الإسلامية : والاجتماعية والاقتصادية والسياسية وكل عمل مأذون فيه يراد به تحقيق غرض يخالف هذه الأنظمة يعتبر من التعسف كمن أهدى ويريد الرشوة ، أو اشترى ويريد الربا ، أو تطوع للجندية ويريد التجسس على أنظمة الجيش والأصل بنى على عدم الاحتراس من الضرر وهو واضح يكاد يدل على نفسه .

أما القوانين الأجنبية التى يقال عنها إنها تقدمية وافية : فإنها لم تعرف هذه النظرية إلا فى هذا العصر ومع هذا فهى فيها ناقصة وغامضة : فالقانون السويسرى يبنيها على سوء النية وكفى ، والقانون الروسى يبنيها على مخالفة الأغراض الاجتماعية ، والاقتصادية لا غير .

ولهذا أحسن واضعو القانونين المصرى والسورى فى استمدادهما من الفقه الإسلامى[1] لأنهم وجـــدوها فيه تجمع بين الوضوح والوفاء بخلاف القانون اللبنانى فإن « جسران الفرنسى » واضع هذا القانون استمدها من القوانين الغربية[2] ولهذا جاءت فيه ناقصة .

ملاحظة : ولكن يلاحظ على القانونين المصرى والسورى أنهما قد قصرا أحوال التعسف على الثلاثة الأولى وتركا التعسف بسبب هدم الاحتراس مع أن معنى التعسف فيها أوضح .

إثبات التعسف فى استعمال الحق أمام القضاء

يثبت التعسف أمام القضاء بجميع الطرق المثبتة للحق غير أن تكييفه يتوقف إلى حـــد كبير على ظروف القضية وعلى عرف الجماعات فقد يكون استعمال الحق تعسفا فى بيئة دون أخرى وضرراً فى حال دون حال وذلك كرفع صوت المذياع إذا كان فى السوق العامة أو فى الأحياء الآهلة بالسكان وبين سكان البادية أو الحاضرة .

ولما كان سوء النية والتحايل لتحصيل المفاسد والأضرار هما أكثر أسباب التعسف وجب على القاضى أن تكون له خبرة واسعة بقرائن الأحوال وفقه نافذ بأحوال الناس الاجتماعية ليجمع منها أدلة قصد الإضرار ويكتشف التحايل باستعمال المباحات على

(١) المذكرة الإيضاحية للقانون المدنى المصرى مادة ٥ ، ٦ .

(١) محاضرة الأستاذ زهدى يكن التى ألقاها فى مؤتمر المحامين ببغداد سنة ١٩٥٨ .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الوصول إلى المحرمات والأغراض غير المشروعة . نعم هناك حالات نصب الشارع عليها علامات ظاهرة كالطلاق فى مرض الموت لأجل الفرار من ميراث الزوجة .

بعض تطبيقات مبدأ الإساءة فى استعمال الحق :

١ — حق الوكيل فى عزل نفسه :

الوكالة من العقود غير اللازمة فلكل من الوكيل والموكل حق العزل ، وبناء على هذا قد يستعمل الوكيل حقه : فيفاجأ الموكل بعزل نفسه فى وقت يعجز عن القيام بما وكل فيه أو عن التوكيل به كالمرافعة فى قضية قرب موعد نظرها وهى محتاجة إلى دراسة واسعة ، وكالقيام بعمل ضرورى عاجل والموكل غائب .

وهذا فى نظر الفقه تعسف فى استعمال الحق لأنه إضرار عظيم بالموكل بقصد أو بغير قصد وقد رأينا أبا حنيفة يشترط فى عزل أحد الطرفين علم الطرف الآخر منعا من الإضرار لجواز أن يكون الوكيل تصرف لصالح الموكل تصرفات فيها تبعات مالية ولجواز أن يكون هناك أعمال فى تركها تغرير بالموكل وإضرار به .

وبناء على هذا فقواعد مذهبه تقضى ببقاء الوكالة وإلزام الوكيل بإنجاز ما وكل فيه دفعا للضرر وتأديبه إن فرط على أن الوكيل بالأجر ليس له أن يعزل نفسه قبل إنهاء ما وكل به [1] كما فى السمسار فإنه وكيل بالأجر [2].

٢ — حق الخاطب فى فسخ الخطبة :

الخطبة وعد بالزواج وإخلاف وعد بعذر مشروع وعلى هذا ففسخ الخطبة بسبب جائز كالمرض المعدى أو المانع له من المعاشرة الزوجية ، وعجز الزوج عن دفع المهر ، والخلاف المستحكم بين الخطيبين أو أسرتيهما . وإن كان الفسخ من غير سبب كان الإخلاف للوعد من غير عذر إخلافا ضاراً لأن الناس عادة يعلنون بالخطبة ويركنون إليها فينصرف عن الخطيبة من يفكر فى الزواج منها . فإذا فسخ الخطيب من غير سبب فقد فوت عليها فرص الزواج التى كانت سانحة ونشر حولها الشائعات من أسباب الرفض ، الأمر الذى يثور النفوس وترتكب بسببه الجرائم لا سيما فى هذا الزمن الذى فسدت فيه الأخلاق وكثرت الظنون السيئة فتتعطل بذلك مصلحتها الأساسية التى أعدها الله لها — وإخلاف الوعد إذا ترتبت عليه أمثال هذه المفاسد كان منكرا يجب تغييره ومعصية يستحق فاعلها التعزير عليها .

تكييف الفسخ بلا سبب :

وعليه فللقاضى أن يعاقب الفاسد لا على مبدأ تعويض الضرر بل على مبدأ التعزير على

(١) لباب اللباب لابن راشد المالكى

(٢) فتح القدير ج ٧ ص ٧٨ .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الإتيان بهذا المنكر وهو إخلاف الوعد المستتبع للمفاسد ، والتلاعب بمصالح الناس وأعراضهم ؛ لأن التعزير ثابت على كل فعل أو قول فيه إيذاء للمسلم بغير حق زجراً للناس عن ارتكاب المفاسد والمضار واستصلاحا لهم لقوله صلى الله عليه وسلم : (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده) وهو خطاب لأولياء الأمر وهذا مبدأ إذا عمل به حمل الذين يريدون الخطبة على الإمعان فى التروى قبل الإقدام عليها وعلى أن يفرقوا بين العدول عن شراء سلعة تم الوعد بشرائها - وفسخ خطبة فتاة كريمة على نفسها وعلى قومها .

٣ - من الطرق :

الطلاق أبغض الحلال إلى الله كما قال النبى صلى الله عليه وسلم لكنه مشروع عند الحاجة كعدم عفة الزوجة بل قال بعض الفقهاء بوجوبه حينئذ : خشية أن تفسد فراشه وتدخل عليه من ليس من أولاده ، ولئلا يقع تحت طائلة اللعنة الواردة فى الديوث الذى لا يغار على حريمه . ومن مواضع الحاجة سوء خلقها فى معاملة الزوج أو معاملة الناس ، وتضرر الزوج بها فى الحياة الزوجية العاطفية لمرض بها أو لعدم انسجامه فى الطباع ، وتفريطها فى حقوق الله وهى لا تطيعه فى أدائها حتى لا يعاشر امرأة عاصية . ومن الأسباب عقمها إذا لم يستطع أن يتزوج بأكثر من واحدة .

فإذا وقع الطلاق لغير حاجة كان مبغضة إلى الله ولاسيما إذا كانت الزوجة ذات أولاد منه وكانت فقيرة وقد رتبت حياتها على العيش معه .

وعند هذا لا ننكر أن الزوج قد يسىء استعمال حقه فيه لما يترتب عليه من الإضرار بالزوجة .

هل يجوز المنع من إيقاعه إلا بإذن القاضى :

و بعض الناس يريد أن يتخذ من مبدأ التعسف فى استعمال الحق سبيلا إلى المنع من إيقاعه إلا بإذن القاضى ، وعندنا أن هذا خطأ لأن إثبات التعسف فى الطلاق وإثبات أن الزوج أوقعه من غير حاجة مشروعة تدعو إلى إيقاعه ، القضاء لا يستطيع إثباته بطرقه المعروفة ومعاييره الصحيحة ؛ لأن الكثير من أسباب الرخصة فى الطلاق التى شرحنا بعضها خفى : لا يستطيع المسلم ذكره لأن الله تعالى يحب الستر على عباده ، وفتح هذا الباب قد يؤدى إلى مصارحة بأشياء هى من السرية والخطورة بحيث يضر الزوجة إعلانها ، بل قد يضطر الزوج الذى لا خلاق له إلى انتحال أسباب كاذبة ضارة بالمرأة ولا يستطيع القضاء الوقوف عليها . وماذا يفعل القاضى إذا قال الزوج إنى أكرهها وإن أمسكتها كان على بغض ومضارة .

والحق : أن عقدة الزواج عاطفية بناها الله على المودة والألفة فمن الطبيعى فى الغالب ألا يترك الزوج زوجته التى أحبها وسكن إليها وأنفق فى سبيلها إلا لداع قد يستتبع المقام

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

معها من المضار ما لا يعلمه إلا الله ويشعر الزوج عندئذ أن بيتها جحيم لا يطاق . والمعروف فى الشريعة أن المرأة إذا كرهت زوجها كان لها أن تفتدى له من مالها ليفارقها كما قالت جميلة امرأة ثابت بن يسار لرسول الله صلى الله عليه وسلم : (إنى أخاف الكفر فى الإسلام لشدة بغضى إياه) فماذا يكون الحال إذا اشتد بغضه لها ومنعه القاضى من تطليقها لأنه لم تقم لديه مبررات للطلاق ولئن كان البغض من المبررات عند القاضى فلكل واحد من الأزواج أن يدعيه .

وعليه : فأقل حالات الطلاق عندئذ ارتكابا لأخف ضرر . والأحوال القليلة التى قد يفسد فيها تقدير الزوج ، المجتمع مضطر إلى تحملها إذ لا سبيل إلا هذا .

والذى ينبغى تلافيها وإصلاح المجتمع وإشاعة مبادئ الإسلام الصحيحة بين أهله بجميع الطرق الممكنة .

٤ - هل تعدد الزوجات :

تعدد الزوجات مشروع قطعا إلا عند خوف الزوج أن يظلم من فى عصمته فعندئذ لا يكون حقاله .

والظلم المانع هو الظلم فى الإنفاق أو فى الإقامة عند الزوجة أما المحبة وميل القلب فأمره إلى الله وقد بين سبحانه وتعالى أنه خارج عن استطاعة البشر . قال تعالى : « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » . والدليل على أن العدل المشروط فى الآية ليس هو المحبة التى أخبر الله عنها أنها غير مستطاعة قول النبى صلى الله عليه وسلم : (اللهم إن هذا قسمى فيما أملك فلا تأخذنى فى ما تملك ولا أملك) يعنى ميل القلب .

والتعدد مشروع لحاجات اجتماعية وعاطفية لا يستطيع بنو الإنسان الاستغناء عنها والذين صنعوا التعدد بالقانون والقضاء وقعوا فيه من طريق الشر والجريمة : وليس هنا بسط أسباب التعدد وإنما إجمال ما نريد أن نقوله هنا ، إن الله العليم بأحوال عباده وما يصلحهم شرعه لمصالح اجتماعيه سامية . وأقلها عند المحافظة على العدل الواجب أنه ارتكاب لأخف الضررين وهو المتعة من طريق حلال .

ولهذا لا يمكن أن يثبت من طريق القضاء فى حق التعدد تعسف فى استعماله متى تحقق العدل الواجب .

نعم : قد يتعدى الناس فيفعلون ما ليس مشروعا وهو التزوج مع العجز عن تحقيق العدل فإذا شاع ذلك بين الناس ولم تكن لهم من ضمائرهم رقابة على أنفسهم فى تنفيذ أوامر الدين ساغ للقضاء أن يتدخل فيمنع من التعدد كل من يثبت بالأدلة أن حالته المالية لا يستطيع معها أن يمون نساءه أو يعدل بينهم .

أحمد فهمى أبو سنة

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الضرائب فى الإسلام

للأستاذ أحمد الشرباصى

— ٣ —

النوع الثانى من الضرائب فى الإسلام هو « خمس الغنيمة » . والغنيمة هى ما أخذه المسلمون من المنقولات فى حربهم الكفار عنوة ، فيؤخذ من هذه الغنيمة خمسها ، يكون لله تبارك وتعالى ، فيصرف فيما يرضيه من أعمال الخير والبر ، ووجوه الإصلاح والتعمير ، والدعوة إلى الإسلام ، وعمارة الكعبة ؛ وكذلك يأخذ النبى عليه الصلاة والسلام من هذا الخمس ما يكفيه ويكفى نساءه وأقاربه الذين حرمت عليهم الصدقة ، وهم بنو هاشم وبنو عبد المطلب ، ويأخذ من هذا الخمس المحتاجون من المسلمين ، وهم اليتامى والمساكين وابن السبيل [1] .

والدليل على ذلك هو قول الله تعالى فى سورة الأنفال : « واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شىء قدير » .

وكذلك روى أن النبى رفع وبرة من الأرض حين رجوعه من غزة حنين وقال : (مالى مما آفاء الله عليكم ولا مثل هذه إلا الخمس ، والخمس مردود عليكم . ويروى أن بعض المسلمين سألوا النبى الغنائم ، حتى عدلوا دابته عن الطريق ، وتعلقت سمرة (شجرة) بردائه ، فقال النبى : اعطونى ردائى ، فوالذى نفسى بيده لا تجدونى كذوبا ولا بخيلا ؛ لو كانت غنائمكم مثل سمر تهامة نعما لقسمتها بينكم ، وما لى فيها إلا الخمس ، والخمس مردود عليكم) [1] .

وإنما قال النبى كلمة (لى) لأنه هو الذى سيتولى إنفاقها على وجوه الخير التى أمر الله بها وعلى نفسه وأهله واليتامى والمساكين وابن السبيل .

والحكمة فى هذا التوزيع أن هناك مصالح عامة لابد من تحقيقها ورعايتها ، ولما كانت هذه المصالح عامة للجميع ، والله هو رب الجميع ، قيل إن هناك نصيبا من هذا الخمس لله ،

---

(١) تفسير المنار ج ١٠ ص ٧ .

(١) الأموال ، ص ٣٠٦ .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

ثم إن الرسول متفرغ للدعوة وخدمة الأمة، ولذلك حق له ولأهله أن يأخذوا ما يكفيهم من هذا الخمس، وكذلك ذوو قرابته لأنهم لا يأخذون من الصدقات، ثم إن اليتامى والمساكين وبنى السبيل يحتاجون إلى من يعاونهم ويدفع الحاجة عنهم، فتكفل نصيبهم من هذا الخمس بتحقيق ذلك.

ويرى العلامة ولى الدين الدهلوى أن سهم الرسول يوضع بعده فى مصالح المسلمين الأهم فالأهم، وسهم ذوى القربى فى بنى هاشم وبنى المطلب جميعا، وأن الإمام مخير فى تعيين المقادير، ويعطى سهم اليتامى للأولاد الصغار الفقراء الذين فقدوا آباءهم، وأن سهم الفقراء والمساكين لهم ويفوض كل ذلك إلى الإمام، يجتهد فى الفرض، وتقديم الأهم فالأهم، ويفعل ما أدى إليه اجتهاده (١).

والأصل فى الخمس - كما يقول الدهلوى - أنه كان المرباع (الربع) عادة مستمرة فى الجاهلية، يأخذه رئيس القوم وعصبته، فتمكن ذلك فى علومهم، وما كانوا يحدون فى أنفسهم حرجا منه، وفيه يقول القائل:

وإن لنا المرباع من كل غارة
تكون بنجد أو بأرض التهائم

فشرع الله تعالى الخمس لحوائج الدين والأمة، ليكون خير عوض عن نظام المرباع، فيرضى نفوسهم من جهة، ويصلح أمرهم من جهة أخرى؛ لأن هذا الربع كان لرئيس القوم وعصبته لا يشركهم فيه غيرهم، فجاء الإسلام ووسع دائرة الانتفاع به.

يقول الدهلوى: «جعل الله الخمس لرسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأنه عليه السلام مشغول بأمر الناس لا يتفرغ أن يكتسب لأهله، فوجب أن تكون نفقته فى مال المسلمين، ولأن النصرة حصلت بدعوة النبى صلى الله عليه وسلم والرعب الذى أعطاه الله إياه فكان كحاضر الوقعة، ولذوى القربى لأنهم أكثر الناس حمية للإسلام، حيث اجتمع فيهم الحمية الدينية إلى الحمية النسبية، فإنه لا فخر لهم إلا بعلو دين محمد صلى الله عليه وسلم، ولأن فى ذلك تنويها بأهل بيت النبى صلى الله عليه وسلم، وتلك مصلحة راجعة إلى الملة.

وإذا كان العلماء والقراء يكون توقيرهم تنويها بالملة يجب أن يكون توقير ذوى القربى كذلك بالأولى (١).

* * *

وهناك نوع آخر من المكاسب التى يغنمها المسلمون من أعدائهم، وهو «الفىء». وقد جاء أكثر من قول فى التفرقة بين

(١) تفسير المنار ج ١٠ ص ١٢.

(١) من كتاب الحجة البالغة.

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

« الغنيمة » و « الفيء » ، فقال الحسن بن صالح : « سمعنا أن الغنيمة ما غلب عليه المسلمون بالقتال حتى يأخذوه عنوة ، وأن الفيء ما صولحوا عليه ، يقول من الجزية والخراج [1] » .

ويقول الإمام الشافعي : « الغنيمة هي الموجف عليها بالخيل والركاب ، والفيء هو ما لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب [2] » .

وقال الماوردي : « الغنيمة والفيء يفترقان في أن مال الفيء مأخوذ عفوا ، ومال الغنيمة مأخوذ قهراً » [3] .

وهناك من يرى أن الغنيمة هي الأموال المنقولة التي أخذت من المشركين بالقتال ، والفيء هو الأرض أو العقار ، وهو في الأصل أخذ عنوة ثم اتفق عليه ، ويجوز أن يؤخذ بالصلح دون قتال ، يقول الدكتور ضياء الدين الريس :

« التعريف الحقيقي للغنيمة أنها الأموال ، أي المنقولات التي أخذت من المشركين بالقتال. والفيء هو الأرضون أو العقار ، وهي في الأصل أخذت عنوة ثم اتفق عليها ويجوز أن تؤخذ بالصلح بدون قتال ، وهذا هو أكثر استعمال الفيء ، أو المقصود به في الأغلب :

ويكون من الفيء ما يستتبع الغلبة على الأرضين وهو الجزية ، وكذا كل مال يحصل عليه من غير المسلمين بدون قتال . فمعنى الغنيمة إذن قد انحصر في أنها المال المنقول الذي يحصل عليه نتيجة الحرب ، أما معنى الفيء فقد اتسع لما يؤخذ عنوة أو بالصلح ، وقد ورد أن عمر عبر بالفعل عن الأرضين بالعين ، وهو مرادف للعقار ، وهذه التفرقة بين المنقول والعقار هي من اجتهاد عمر رضي الله عنه ، وثمرة فهمه لكتاب الله وروح الشريعة » [1] .

ولكن نجد صاحب « تفسير المنار » يقول : « والتحقيق أن الغنيمة في الشرع ما أخذه المسلمون من المنقولات في حرب الكفار عنوة ، وهذه هي التي تخمس ، فخمسها لله وللرسول كما سيأتي تفصيله والباقي للغانمين يقسم بينهم ، وأما الفيء فهو عند الجمهور ما أخذ من مال الكفار المحاربين بغير قهر الحرب لقوله تعالى : « وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب » الآية ، وهو لمصالح جمهور المسلمين . وقيل كالغنيمة [2] .

وهذا الفيء الذي وصل من المشركين عفوا من غير قتال ولا استخدام خيل

(١) الخراج ليحيى بن آدم ص ١٧ .
(٢) الأم ، ج ٤ ص ٦٤ .
(٣) الأحكام السلطانية ، ص ١٢١ .

(١) الخراج في الدولة الإسلامية ، ص ١١٠ .
(٢) تفسير المنار ، ج ١ ص ٤ .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

أو ركاب يؤخذ ليصرف على مصارفه التى أشارت إليها الآية : « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » .

ويروى أنه لما قرأها عمر رضى الله عنه قال : هذه الآية استوعبت المسلمين .

ولكن الماوردى يرى أن مال الفىء يؤخذ منه الخمس . يقول : « إن كل مال وصل من المشركين عفوا من غير قتال ، ولا بإيجاف خيل ولا ركاب فهو كمال الهدنة والجزية وأعشار متاجرهم ، أو كان واصلا من جهتهم كمال الخراج ، ففيه إذا أخذ منهم أداء الخمس لأهل الخمس مقسوما على خمسة » وقال أبو حنيفة رضى الله عنه : لا خمس فى الفىء ونص الكتاب فى خمس الفىء يمنع من مخالفته . قال الله تعالى : « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » فيقسم الخمس على خمسة أسهم متساوية [1] » .

وكما نشاهد لا نجد فى الآية نصا على خمس الفىء ، ولكننا نجد فيها ذكر لمصارف الفىء وهى خمسة مصارف ، فكيف ذهب الماوردى إلى هذا مع أنه جاء فى « كليات أبى البقاء » أن الفىء « حكمه أن يكون لكافة المسلمين ولا يخمس » ؟ .

ومال الفىء يقسم على خمسة أسهم متساوية سهم منها كان لرسول الله فى حياته ، ينفق منه على نفسه وأزواجه ويصرفه فى مصالحه ومصالح المسلمين ، ولما كان الرسول قد مات فقد اختلفوا فى نصيبه : لمن يكون ؟ أيقوم ورثته فيه مقامه ، أم يسقط بموته ، أم يكون ملكا للإمام بعده لقيامه بأمور الأمة مقام النبى ؟ ...

ويعجبنى رأى الشافعى هنا وهو أنه يكون مصروفا فى مصالح المسلمين ، كأرزاق الجيش وإعداد الكراع (الخيل) والسلاح ، وبناء الحصون والقناطر ، وأرزاق القضاة والأئمة وما جرى هذا المجرى من وجوه المصالح ؛ والسهم الثانى سهم ذوى القربى ، ويرى أبو حنيفة أن حقهم فيه قد سقط ، ولكن الشافعى يرى أن حقهم فيه ثابت بلا تفرقة بين غنى وفقير ، والنفس أميل إلى رأى أبى حنيفة ومن وجدناه من هؤلاء محتاجا نستطيع إدخاله فى المساكين .

والسهم الثالث لليتامى من أصحاب الحاجات فلا يكفى أن يفقد الولد أباه فى الصغر — وهو المسمى باليتيم — ليستحق فى هذا السهم بل يضم إلى ذلك حاجته إلى المعونة ، والسهم الرابع للمساكين ، وهم الذين لا يجدون ما يكفيهم ، والسهم الخامس لبنى السبيل ،

(١) الأحكام السلطانية ص ١١٢ .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وهم المسافرون الذى لا يجدون ما ينفقون[1]

ويجب أن لا ننسى تذكر الحكمة فى توزيع الفيء بالصورة السابقة فإن الآية الكريمة السابقة قد دلت عليها فى آخرها ، فهى بتمامها تقول مع التى قبلها : « وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شيء قدير . ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب » .

وقد كان هذا الفيء من « بنى النضير » وكان المسلمون يومئذ قسمين: الأنصار والمهاجرون فالأنصار فى دورهم وعقارهم ، والمهاجرون قد أخرجوا من ديارهم بلا عقار وبلا مال ، فأراد الرسول عليه الصلاة والسلام أن يقرب ما بين القسمين من فروق وتفاوت ، فجعل الفيء هذا للمهاجرين دون الأنصار إلا رجلين من الأنصار كانت بهما حاجة .

وإنما فعل ذلك حتى لا يكون المال مقصورا على أيدى الأغنياء ممنوعا عن الفقراء ويقول الرازى هنا : « ومعنى الآية : كى لا يكون الفيء الذى حقه أن يعطى للفقراء ليكون لهم بلغة يعيشون بها ، واقعا فى يد الأغنياء ودولة لهم »[1] والدولة ما يتداول .

ويقول ابن كثير فى تفسير هذه الآية : « أى جعلنا هذه المصارف لمال الفيء كيلا يبقى مأكلة يتغلب عليها الأغنياء ويتصرفون فيها بمحض الشهوات والآراء ، ولا يصرفون منه شيئا إلى الفقراء »[2] .

ويقول القرطبى : « فأما الفيء فقسمته وقسمة الخمس سواء ، والأمر عند مالك فيهما إلى الإمام ، فإن رأى حبسهما لنوازل تنزل بالمسلمين فعل ، وإن رأى قسمتهما أو قسمة أحدهما قسمه كله بين الناس ، وسوى فيه بين عربيهم ومولاهم ، ويبدأ بالفقراء من رجال ونساء حتى يغنوا »[3] .

إذن هناك حكمة اقتصادية اشتراكية تكافلية عظيمة جعلت الإسلام يشرع هذا الإصلاح الاقتصادى المحقق للتوازن المادى بين أبناء الأمة المؤمنة المتضامنة .

وينبغى أن نعرف الفروق بين « الزكاة » وأموال الفيء والغنيمة ، فالزكاة حق معلوم واجب مأخوذ من المسلمين المالكين للنصاب بينما الفيء والغنيمة مأخوذان من الكفار وأعداء المسلمين .

---

(١) المرجع السابق ص ١١٣ .

(١) تفسير الرازى ، ج ٨ ، ص ١٣٠ .

(٢) تفسير ابن كثير ، ج ٤ ص ٣٣٦ .

(٣) تفسير القرطبى ، ج ٢٨ ص ١٥ .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

بين الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية

للأستاذ محمد محمد أبو شهبة

— ٤ —

من المقارنات والفروق الدقيقة عناية الشريعة الإسلامية بالجانب الخلقي والإنساني بخلاف القوانين الوضعية فإنها قد تغفل الجانب الخلقي والإنساني ، ولذلك جاءت بعض القوانين الوضعية عارية عن رعاية الأخلاق الكريمة بل جاءت هادمة لها . ويعجبني في هذا المقام كلمة قالها أحد قضائنا الكبار قال : « إن المشرع الذي وضع أحكامها - أي القوانين كان فاجرا ، فقد نقل بغير تصرف عن التشريع الفرنسي أحكاما لا تساير البيئة التي نعيش فيها ولا تتفق مع تقاليد بلادنا فضلا

أن الاعتداء على العرض عمل مباح متى جاوزت المرأة الثامنة عشرة ، وكانت المواقعة برضاها ، ولا تثريب عليها لو ظهرت بين الناس تحمل ثمرة الفاحشة في أحشائها ، أو حملت وليدها من سفاح بين يديها » (١).

وإنك لتلمس هذا الفرق واضحا غاية الوضوح في موقف الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية من جريمة الزنا ، فالشريعة الإسلامية تعاقب على جريمة الزنا في حد ذاتها سواء

(١) من محاضرة قيمة للأستاذ أحمد موافي .

(بقيه المنشور على صفحة ٦٧٢)

والفرق الثاني أن الزكاة محددة المصارف فقد نص القرآن الكريم على الجهات التي توزع فيها الزكاة ، فليس في هذه المصارف اجتهاد لمجتهد ، وأما أموال الفيء والغنيمة ففي مصارفها ما يتناوله اجتهاد الأئمة ، والفرق الثالث متصل بالفرق السابق ، وهو أن مصارف الزكاة مختلفة عن مصارف الفيء والغنيمة في بعض المواطن ، والفرق الرابع أن الزكاة يجوز أن يقوم أصحابها بتوزيعها على مستحقيها ، وإن كان الأصل - كما ذكرنا من قبل - أن يجمعها ولي الأمر ، وأما الفيء والغنيمة فلا يجوز لأهله أن ينفردوا بدفعه إلى مستحقيه حتى يتولى ذلك أهل الاجتهاد من الولاة (١).

وهكذا نرى كيف تتعدد أوعية الضريبة في الإسلام بحق وعدل ، وكيف تتعدد مصارفها لتعمير وإصلاح !.

أحمد الشرباصي

(١) انظر الأحكام السلطانية ص ١١١ .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

بين الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية

للأستاذ محمد محمد أبو شهبة

— ٤ —

من المقارنات والفروق الدقيقة عناية الشريعة الإسلامية بالجانب الخلقي والإنساني بخلاف القوانين الوضعية فإنها قد تغفل الجانب الخلقي والإنساني ، ولذلك جاءت بعض القوانين الوضعية عارية عن رعاية الأخلاق الكريمة بل جاءت هادمة لها . ويعجبني في هذا المقام كلمة قالها أحد قضائنا الكبار قال : « إن المشرع الذي وضع أحكامها - أي القوانين كان فاجرا ، فقد نقل بغير تصرف عن التشريع الفرنسي أحكاما لا تساير البيئة التي نعيش فيها ولا تتفق مع تقاليد بلادنا فضلا

أن الاعتداء على العرض عمل مباح متى جاوزت المرأة الثامنة عشرة ، وكانت المواقعة برضاها ، ولا تثريب عليها لو ظهرت بين الناس تحمل ثمرة الفاحشة في أحشائها ، أو حملت وليدها من سفاح بين يديها » (١).

وإنك لتلمس هذا الفرق واضحا غاية الوضوح في موقف الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية من جريمة الزنا ، فالشريعة الإسلامية تعاقب على جريمة الزنا في حد ذاتها سواء

(١) من محاضرة قيمة للأستاذ أحمد موافي .

(بقيه المنشور على صفحة ٦٧٢)

والفرق الثاني أن الزكاة محددة المصارف فقد نص القرآن الكريم على الجهات التي توزع فيها الزكاة ، فليس في هذه المصارف اجتهاد لمجتهد ، وأما أموال الفيء والغنيمة ففي مصارفها ما يتناوله اجتهاد الأئمة ، والفرق الثالث متصل بالفرق السابق ، وهو أن مصارف الزكاة مختلفة عن مصارف الفيء والغنيمة في بعض المواطن ، والفرق الرابع أن الزكاة يجوز أن يقوم أصحابها بتوزيعها على مستحقيها ، وإن كان الأصل - كما ذكرنا من قبل - أن يجمعها ولي الأمر ، وأما الفيء والغنيمة فلا يجوز لأهله أن ينفردوا بدفعه إلى مستحقيه حتى يتولى ذلك أهل الاجتهاد من الولاة (١).

وهكذا نرى كيف تتعدد أوعية الضريبة في الإسلام بحق وعدل ، وكيف تتعدد مصارفها لتعمير وإصلاح !.

أحمد الشرباصي

(١) انظر الأحكام السلطانية ص ١١١ .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وقعت من محصن[1] أو غير محصن ، وإن فرقت بين العقوبتين فجعلت الرجم للأول ، والجلد للثانى من غير نفى عند بعض الأئمة ، ومع النفى عند البعض الآخر ، ولم تفرق الشريعة بين حالة الرضا من المزنى بها ، وحالة عدم الرضا ، ولا بين من جاوزت الثامنة عشرة ، ومن دونها كما فعل القانون ، فالعقوبة لازمة كما أن الشريعة اعتبرت العقوبة حقا لله تعالى صيانة للمجتمع عن الفساد ، فليس لولى الأمر أو القاضى التصرف فيها بالتخفيف أو الإعفاء منها أو الزيادة فيها ، وليس للمجنى عليها أو عليه حق التنازل ؛ لأنها حق الله وهو ما يعبر عنه بحق المجتمع .

أما القوانين الوضعية فأمرها فى هذا الباب عجب ، فهناك قلة من القوانين لا تعاقب على الزنا ولو وقع من متزوج أو زوجة وذلك كالقانون الانجليزى وحجتهم فى هذا أنه لا فائدة من معاقبة من لا تردعه مبادئ الأخلاق وأن إثارة الفضيحة قد ينجم عنها ضرر للأسرة أبلغ مما يترتب للمجتمع[2] ،

وإذا خول الزوج المجنى عليه وحده الحق فى تحريك الدعوى فإن العقاب حينئذ يتوقف على مزاجه ودرجة تأثره ، والجزاء الطبيعى فى نظر هذه التشريعات هو الحكم بالطلاق أو الفرقة .

وغالبية القوانين الوضعية لم تعاقب على كل وطء حرام أى على الفعل باعتباره رذيلة فى حد ذاته ، وإنما تجعل العقاب على الفعل الذى يحصل من شخص متزوج على اعتبار أن فيه انتهاكا لحرمة الزوجية ، ولا تجيز فى الوقت نفسه تحريك الدعوى إلا بناء على شكوى من المجنى عليه الذى له أن يتنازل عن الدعوى فى أى حالة كانت عليها فتنقضى بهذا التنازل .

ومن هذه القوانين القانون الفرنسى وهو الذى اعتمدت عليه بعض البلاد الإسلامية التى تأخذ فى أحكامها بالقوانين الوضعية ، ومنها بلادنا المصرية . فهذا القانون وما استمد منه كقانون العقوبات المصرى يعاقب على الزنا إذا حصل من امرأة متزوجة ، أو من رجل متزوج ، ويفرق بين جريمة الزوج ، وجريمة الزوجة من عدة وجوه : فالجريمة لا تقوم بالنسبة إلى الزوج إلا إذا وقع منه الزنا فى منزل الزوجية . بخلاف الزوجة فإن الجريمة تقوم إذا وقعت منها فى أى مكان ، وتعاقب الزوجة على الزنا بالحبس لغاية سنتين بينما يعاقب الزوج بالحبس مدة لا تزيد على ستة

(١) شروط الإحصان أن يكون حرا بالغا عاقلا مسلما قد تزوج امرأة زواجا صحيحا ودخل بها .

(٢) ما تعللوا به مغالطة مكشوفة فقواعد الأخلاق لن تفيد إلا مع أصحاب الفطر السليمة والنفوس الخيرة ، أما النفوس الشريرة التى تستمرئ الجريمة فلن يفيد معها إلا العقوبة الزاجرة الرادعة ، والتستر على الأسرة فى مثل هذا هدم للأسرة والمجتمع معا .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

أشهر ، وللزوج أن يعفو عن الزوجة بعد الحكم النهائي عليها ، وأما الزوجة فلا حق لها إلا في التنازل السابق عن الحكم النهائي ويقضي أيضاً بأن للزوجة التي زنى زوجها في منزل الزوجية الحق في أن تزني مع غيره ولا تثريب عليها في هذا لأنها أتت عملا يقره القانون ، أما إن وقع الزنا بين غير متزوجين وكان برضا المزني بها وقد جاوزت الثامنة عشرة فلا جريمة فيه وبالتالي فلا عقوبة ، فإن وقع بغير رضاها أو كانت دون الثامنة عشرة فهي جريمة اغتصاب وعقوبتها الأشغال الشاقة المؤبدة أو المؤقتة إلا إذا كان الجاني من أصول المجني عليها أو متوليا تربيتها أو ممن لهم سلطة عليها فتكون العقوبة الأشغال الشاقة المؤبدة لا غير (١) .

ومن هذا العرض يتبين لنا سمو التشريعات الإسلامية على القوانين الوضعية وأصالتها في إصلاح المجتمعات ، والحفاظ على الأعراض والحرمات من وجوه .

١ — أن الشريعة الإسلامية تعاقب على الجريمة في حد ذاتها أما القوانين الوضعية فبعضها لا يعاقب عليها قط ، وبعضها يعاقب عليها إذا كان فيها انتهاك حرمة الزوجية وليس من شك في أن ترتب العقوبة على الجريمة ذاتها أصلح للمجتمع وأدعى إلى تطهيره من هذا المرض الخطير الذي يهدد الأسرة والمجتمع لما فيه من اختلاط الأنساب وانتهاك الأعراض ، وإفساد الصحة ، ونقل الأمراض ولا سيما التناسلية منها .

٢ — أن الشريعة الإسلامية لا تعتبر رضا المزني بها مبرراً لعدم اعتبار الزنا جريمة وبالتالي لعدم العقوبة بخلاف القوانين الوضعية فإنها اعتبرت الرضا ممن زاد سنها عن الثامنة عشرة نافياً للجريمة ، ومعنى هذا جعل التشريع تبعا للأهواء والشهوات كما أن فيه المساعدة على تفشي الانحراف والفساد في المجتمع ، إذ الغالب والكثير أن لا تقع هذه الجريمة إلا بالتراضي وصدق الحق تبارك وتعالى حيث يقول : « ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض » .

٣ — أن الشريعة الإسلامية تجعل العقوبة من حق الله سبحانه أو بمعنى آخر من حق المجتمع كله ، لأن معظم الضرر يعود على المجتمع لا على مرتكب الفاحشة فحسب فمن ثم لا يجوز للحاكم أو القاضي الإعفاء أو التخفيف منها ، ولم يعتبر الشارع الحكيم تنازل المجني عليه أو عليها مغيرا من صفة الجريمة ولا رافعا للعقوبة لأن ذلك ليس حقا متمحضا له يتصرف فيه كما يشاء وإنما هو حق الجماعة ،

(١) شرح قانون العقوبات للدكتور محمود مصطفى ص ٢٣٠ ، ٢٣٦ ، ٢٥٧ ، ٢٦٥ — نهج الشريعة والقانون في تقرير الأحكام للمستشار أحمد موافي ص ٤ — ٦ .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

والضرر لا يقع على المجنى عليه بقدر ما يقع على الجماعة كلها وهذا - ولا ريب - أصلح للمجتمع ، وتطهير له من الخنا والفجور ، والتحلل والزوال .

٤ — أن الشريعة الإسلامية تعتبر زنا الزوج جريمة يستحق عليها العقاب سواء أكان ذلك فى منزل الزوجية أم لا بخلاف القوانين الوضعية فلا تعتبره جريمة إلا إذا كان فى منزل الزوجية لا غير ، ومعنى هذا حصر قوانين الجريمة فى أضيق حدودها وفتح الأبواب للتحايل على القانون ، إذ لا يعدم الزوج أمكنة أخرى كثيرة لإشباع نزواته وشهواته ، وبذلك لا ينطبق عليه القانون ، وفى ذلك ما فيه من فتح أبواب الفسق والفجور ، وتضييق أبواب العفة والتحصن ، وصيانة الأعراض .

٥ — أن الشريعة الإسلامية تعاقب على الزنا إما بالجلد أو بالرجم ، وهى عقوبة زاجرة رادعة لا محالة ، أما القوانين الوضعية فلا تعاقب إلا بالحبس وهى عقوبة لا تؤلم الزانى إيلاما يحمله على الزهد فى اللذة التى يتوقعها وراء الجريمة ، ولا تثير فيه من العوامل النفسية المضادة ما يصرف العوامل النفسية الداعية إلى الجريمة أو كبتها ، وليس من ريب فى أن عقوبة الحبس أدت إلى إشاعة الفساد والفاحشة فى المجتمعات التى لا تحكم بالشريعة ، وأكثر الناس الذين يمسكون عن الزنا ، ويستعصمون من الوقوع فيه لا تصرفهم عنه عقوبة الحبس ، وإنما يصرفهم عنه الدين وماله من سلطان على النفوس ، أو الأخلاق الفاضلة التى لم يعرفها أهل الأرض إلا عن طريق الدين ، وهذا هو السر فى أن البيئات التى لا يقوى فيها وازع الدين ، أو وازع الأخلاق تكثر فيها الفاحشة ، والاستهانة بالأعراض ، ويكثر فيها تبعا لذلك الأولاد الغير الشرعيين .

٦ — أن عقوبة الزنا فى الشريعة الإسلامية لم تجئ ارتجالا ، ولم توضع اعتباطا ، وإنما جاءت بعد فهم علمى صحيح بتكوين الإنسان وعقليته ، وتقدير دقيق لغرائزه وميوله ، ووضعت لتحفظ مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة فهى عقوبات علمية تشريعية ، أما كونها علمية فلأنها وضعت على أساس العلم بالنفس البشرية . أما كونها تشرعية ، فلأنها شرعت لمحاربة الجريمة وهذه ميزة تمتاز بها العقوبات التى وضعتها الشريعة لجرائم الحدود ، وجرائم القصاص ، والدية ونحوها ، ولا تكاد توجد هذه الميزة فى عقوبة من العقوبات التى تطبقها القوانين الوضعية ، ولا ريب فى أن العقوبة التى تقوم على فهم نفسية المجرم هى العقوبة التى يكتب

(البقية على صفحة ٦٨٢)

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

حياته ليثبت فى سجل الإنسانيه آية من آيات السمو البشرى ، ومثلا من أمثلة الإنسانية الرفيعة فى الإيمان بالحق والقيام فى وجه الظالمين الطغاة ».

« وتدور المعركة فى ساحة المحكمة فيشهد التاريخ أعنف معركة وأعجبها « يسجل فيها آزاد » نصرا حاسما للإنسانية ، به يتقرر مصيرها ويتحدد موقفها لأجيال عديدة مقبلة».

ولعلك - أخى القارئ - بعد هذا فى شوق إلى أن تقرأ شيئا مما ألقاه مولانا آزاد فى ساحة المحكمة لترى إلى أى مدى وصل فى الإيمان بالحق وعدم المبالاة بالطغاة الظالمين .

موعدنا معك فى المقال الآتى إن شاء الله .

عبد المنعم النمر

(بقية المنشور على صفحة ٦٧٦)

لها النجاح ؛ لأنها تحارب الإجرام فى نفس الفرد وتحفظ مصلحة الجماعة ثم هى بعد ذلك أعدل العقوبات لأنها لا تظلم المجرم ولا تحمله مالا يطيق فى سبيل الجماعة ، وهى عادلة أيضاً بالنسبة للجماعة لأنها تحفظ للمجتمع حقه ولا تضحى به فى سبيل الأفراد والعقوبة التى تحابى الأفراد على حساب الجماعة إنما تضيع مصلحة الفرد والجماعة معا لأنها تؤدى إلى ازدياد الجرائم واختلال الأمن ، ثم توهين النظام وانحلال المجتمع وإذا دب الانحلال فى مجتمع قضى على الأفراد وعلى المجتمع الفناء.(١) وهكذا يتبين لنا بعد المقارنة والموازنة سمو التشريعات الإسلامية وعدالتها ودقتها والفرق الكبير بينها وبين القوانين الوضعية ، وأن الواجب على الأمم الإسلامية كلها أن تأخذ بالتشريعات الإسلامية ككل لا يتجزأ ، ولاسيما وقد أفلست القوانين الوضعية فى محاربة الرذيلة والقضاء على الفساد فى أقطار الغرب والشرق على السواء ، وإن كانت بلاد الشرق الإسلامى لا تزال أحسن حالا من بلاد الغرب فيما يتصل بالأعراض ، والمحافظة على الأنساب وذلك لأنها مهما أخذت بتقاليد الغرب ونظمه فلا تزال فيها بقايا من خلق ومن حياء ، وذلك بفضل ما بقى لها من دين قويم ، وعادات موروثة كريمة ، لا يزال يستعصم بها كثير من الناس فى هذه الأقطار .

هذا وقد طال الحديث اليوم فلنرجىء الكلام عن رعاية الشريعة للجانب الانسانى إلى مقال آت إن شاء الله ؟

محمد محمد أبو شهبة

(١) التشريع الجنائى الإسلامى مقارنا بالقانون الوضعى ٦٣٦ ، ٦٤٦ .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

من معاني القرآن

« إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون » .

[قرآن كريم]

من معانى العدل والإنصاف والقصد فى الأمور، والمثل والنظير والجزاء والفداء .

وكلمة الإحسان معناها فعل الحسن .

وإيتاء معناها إعطاء ، والقربى القرابة ، والفحشاء هى الفاحشة ، وهى القبيح الشنيع من القول أو الفعل ، والمنكر ما لا تسيغه العقول القويمة والفطر السليمة .

يعظكم ينصحكم ويذكركم مع النصح بالعواقب ، تذكرون تتعظون .

المعنى :

تأكدوا أن الله يأمركم فى كل أمر من أموركم بالتزام القصد ، وتوخى الحق والإنصاف ، فلا تتبعوا الهوى فيما يكون بينكم وبين أنفسكم وأهليكم ولا فيما يكون بينكم وبين غيركم من الناس .

وهو يأمركم مع العدل بالإحسان والفضل ، الإحسان فى النية بالإخلاص وسلامة القلب والطوية ، والإحسان فى القول بالكلمة الطيبة وبالدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والإحسان فى الفعل بإتقانه والإجادة فيه ، وابتغاء الخير والصلاح لكم وللناس منه ، وإذا كان العدل والإحسان إلى الناس مما يطلبه الله ويرغبكم فيه ، فإعطاء ذوى القرابة حقهم ، والبر بهم ، والإحسان إليهم فى القمة العالية من مراتب العدل والإحسان .

والله يطلب منكم أن تبتعدوا عن القبائح الشنيعة وكبائر الذنوب فلا تقترفوها ، وعما ينكره الدين القويم ، والطبع السليم ، والعرف الصالح فلا تقدموا عليه ، وعن ارتكاب الظلم ، والوقوع فى الإثم بالجور والاعتداء على الغير ، والكبرياء وحب الاستعلاء ، فلا تتطلعوا إليه فتقعوا فيه ، والله فيما يأمركم به ، وفيما ينهاكم عنه ، ينصحكم بما فيه خيركم ، ويذكركم بما ينفعكم وما يضركم ، لكى تذكروا أوامره ، وتستحضروا نواهيه ، وتسترشدوا بهما وبأحكامهما فى ابتغاء الخير ، واتقاء الشر ..

والمتأمل فى هذه الآية الكريمة يجدها - على إيجازها - قد جمعت كل ألوان الفضائل فى « العدل والإحسان وإيتاء ذى القربى » وكل ألوان الرذائل فى « الفحشاء والمنكر والبغى » ، ومن ثم كان ابن مسعود رضى الله عنه على الصدق فيما نسب إليه إذ قال: إن أجمع آية فى القرآن فى سورة النحل. ويذكر هذه الآية

عبد الرحيم فوده

فى العدد السابق صحة الآية كالآتى : وأخذهم الربا وقد نهوا عنه إلخ . . .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

من أعلام المسلمين في الهند :

مولانا أبو الكلام أزاد

للأستاذ عبد المنعم النمر

١٨٨٨ - ١٩٥٨ م

— ٢ —

خلاصة ما نشر ، ولد في مكة من أم مدنية عربية وأب هندي ثم حمله أبوه طفلا إلى كلكتا وعنى بتربيته تربية دينية فدرس المنهج الذي كان يدرسه طلاب المدارس الدينية ثم قرأ وتثقف وتعلم الانجليزية وزار البلاد العربية وكان نضجه مبكراً فاتجه لخدمة الدين والوطن عن طريق القلم فأنشأ مجلته « الهلال » لتعبر عن رأيه سنة ١٩١٢ .

كانت مقالاته في الهلال كالصاعقة تنقض على رءوس الإنجليز ومشايعيهم من المسلمين ، ولا سيما جماعة « عليكرة » التي تأثرت بسياسة السير سيد أحمد خان في وجوب ولاء المسلمين للتاج البريطاني ، فما أن وجهت « الهلال » دعوتها الجديدة وتضاعفت شهرتها ، وزاد انتشارها حتى شعرت هذه الجماعة أن زعامتها في خطر ، وكلما خالفت « الهلال » الزعامة القديمة ، كلما ازداد المسلمون إقبالا عليها حتى بلغ انتشارها ورقم توزيعها ٢٦ ألفا ، وهـــذا رقم لم تعهده الصحافة الأوردية من قبل . .

أما الحكومة فقد اضطربت بدورها ، وأخذت تلجأ إلى الطرق المستترة للقضاء على « الهلال » فطلبت من « مولانا أزاد » ضمانا مقداره ألفا روبية فدفعه وفوت على الحكومة هدفها ولكنها - كأية حكومة مستعمرة مستبدة - لم تلق السلاح وسارت في طريقها تضيق على هذه المجلة الخناق لتقضي عليها ، يقول مولانا أزاد في مذكراته : -

« ولكنها سرعان ما طلبت عشرة آلاف روبية أخرى فدفعتها حتى أحول بينها وبين ما تريد ، وقامت الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ م فطالبتني الحكومة بتخفيف حدتي ، وأرادت أخذ تعهد على بذلك ، فأبيت ، فصادرت « الهلال » ومطبعتها سنة ١٩١٥ م ، ولكن بعد أربعة أشهر أصدرت مجلة أخرى باسم « البلاغ » وأنشأت لها مطبعة سميت باسمها وذلك في نوفمبر سنة ١٩١٥ ، فأيقنت الحكومة أنها

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

لن تتمكن من إيقاف نشاطي باسم قانون المطابع فقط ، فلجأت إلى قوانين الدفاع الهندية ، وأخرجتني من « كلكتا » في أبريل سنة ١٩١٦ فلم أجد مكانا أذهب إليه إلا مدينة « رانشي » في ولاية « بيهار » لأن الولايات الأخرى قد منعت التصريح لي بدخولها والإقامة فيها ومع ذلك لم تتركني الحكومة فقد قبضت علي بعد ستة أشهر وبقيت معتقلا حتى الحادي والثلاثين من ديسمبر سنة ١٩١٩ [١] » .

وقد تحدث الزعيم الهندي « نهرو » عن هذه الفترة من حياة مولانا آزاد في كتابه « من السجن إلى الرياسة » ، قال [٢] :

« كان شاباً ألمعيا ، اشتهر وهو في العقد الثاني من عمره بمعرفته العميقة باللغتين العربية والفارسية إلى جانب إلمامه بحاضر العالم الإسلامي وبالحركات الإصلاحية التي كانت آخذة مجراها فيه ، وبالتطورات الأوربية » .

« ولقد تكلم أبو الكلام بلغة جديدة في صحيفته الأسبوعية « الهلال » ولم تكن جديدة في الفكر والنظرة فحسب ، بل إن تركيبها كان مختلفا ، ذلك أن أسلوب « آزاد » كان رجولياً وشديداً ، وكان مؤثراً وقاطعا .

لقد أحدث هذا الكاتب والصحفي الشاب تأثيراً عظيما في الأوساط الإسلامية المثقفة ، ووجه الجيل الناشيء المتحمس لقضايا البلاد الإسلامية ، ولم يكن هناك تعارض مطلقا بين الإسلام والعطف على البلاد الإسلامية وبين الوطنية الهندية ، مما ساعد على تقريب العصبة الإسلامية للمؤتمر الهندي الوطني ، وكان « آزاد » نفسه قد انضم للعصبة ـ وهو بعد صبي ـ في جلستها الأولى سنة ١٩٠٦ » .

« ولم يكن بمقدور السلطات البريطانية راضين « عن الهلال » ، ولذلك طلبوا منها أن تقدم ضمانات ، ثم لم يلبثوا أن صادروها فأنشأ بدلها صحيفة البلاغ ولكنها توقفت كذلك عندما سجنته الحكومة ، ومكث في السجن أربع سنوات ، وعندما خرج من سجنه احتل مكانه فورا بين زعماء المؤتمر الوطني ، وهو منذ ذلك الحين يحتل أرفع المناصب التنفيذية في المؤتمر ، ويعتبر برغم حداثة سنه من كبار أعضائه الذين تقدر مشورتهم أعظم التقدير في الأمور الوطنية والسياسية والمسائل الطائفية ، ومثل كل الأقليات لقد خرج من السجن بعد أربع سنوات قضاها بين جدرانه ، وكأنه اتخذ من ظلمته وبرودته نورا ونارا ... نورا يضيء له طريق الحقيقة في جهاده ونارا تلهب عزمه ويلهب بها نفوس مواطنيه لينقضوا على الاستعمار ويأتوا عليه . .

---

(١) من مذكراته المنشورة في مجلة ثقافة الهند عدد سبتمبر سنة ١٩٥٨ المترجمة عن كتاب « الهند تفوز بحريتها » .

(٢) ص ٢٤١ وما بعدها باختصار .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

خرج ليواصل جهاده بعزم جديد ويخوض معركة اللاتعاون ، متأثرا بالروح الإسلامية التي توجب على المسلمين ترك موالاة الأعداء والتعاون معهم ، ويلتقي في ذلك مع جمعية علماء الهند وجمعية الخلافة وحزب المؤتمر الهندي ، وغاندي . . . حيث يضم الجميع ميدان العمل الواسع من أجل الوطن .

وعند ما ظهر نائب الملك في الهند « لورد ريدنج » أن البلاد مقبلة على حركة « اللاتعاون تفتق ذهنه عن حيلة لإحباط هذه الحركة وهي قيام ولي عهد انجلترا بسياحة في البلاد ظنا منه أن الأهالي سوف لا تمتنع عن مقابلته والحفاوة به ، لأن العائلة المالكة فوق المنازعات والخلافات السياسية وحينئذ تضعف الحركة وتفشل وتعود المياه إلى مجاريها ... وكانت مغامرة من نائب الملك ظن أنه سيكسب فيها ولكنه تبين له حين بدأ ولي العهد في هذه الزيارة أنه خسرها وخسر معها سمعته واهتز منصبه ، وكان لمولانا آزاد جهوده المنتظرة منه في مقاطعة البلاد لهذه الزيارة . .

لقد أعلنت جمعية الخلافة وجمعية علماء الهند ـ وكان لمولانا آزاد مشاركة وزعامة فيهما ـ أعلنتا « أن هذه السياحة تنوب عن الامبراطورية البريطانية التي تحارب الخلافة والبلاد الإسلامية وتريد استعبادها واستعمارها فلا يجوز لأحد من المسلمين أن يشترك في استقبال ولي العهد ولا في الاحتفالات التي تقيمها الحكومة له .

وقد اتخذت الحكومة عدة قوانين وإجراءات مشددة للقضاء على حركة المقاطعة وبدأت بتنفيذ هذه الإجراءات في كلكتا ، لقرب زيارة ولي العهد لها ، ولأنها مدينة كبيرة شبه أوربية لكثرة الأوربيين فيها ، فهب مولانا آزاد وأعلن بيانا على الشعب حضه فيها على نبذ هذه القوانين الجائرة والإقبال على السجون أفواجا وقرر الأمور الآتية : (١)

١ ـ أن الخضوع لمثل هذه الأحكام معناه النزول عن الحقوق المدنية والإنسانية وليس للحكومة أن تمنع الاجتماعات السلمية والأعمال الوطنية الجائزة . وإننا إذا خضعنا لها خوفا من الحبس والإهانة فإننا نكون مجرمين أمام ضمائرنا ، وأمام الإنسانية ، وليس أمام محبي الحرية إلا أن يعصوها ويوطنوا أنفسهم على احتمال جميع المصائب التي تصبها الحكومة فوق رءوسهم دون أن يخضعوا لها طرفة عين .

٢ ـ يجب أن يوسع نطاق التطوع وأن ينبث المتطوعون في كل شارع وزقاق معلنين مقاطعة الزيارة الملكية .

٣ ـ تعقد المجالس والمحافل في جميع الأماكن العامة وكل من يذهب إليها يسلم نفسه للسلطة إذا أرادت القبض عليه ...

٤ ـ كل من يقبض عليه يقاطع المحاكم

(١) ثورة الهند السياسية ص ٢ ـ ٨ .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

مقاطعة تامة فى القول والعمل لأن الحكومة التى تنوب عنها انما جائرة ومقاطعتها واجبة .

٥ — تتوقف هزيمة الحكومة على العدد الذى يدخل منا السجون ، فلنهرول إليها زرافات زرافات حتى تتعب الحكومة من حبسنا ولا نتعب نحن من الإقدام عليه ...

وقد استجاب الشعب فى كلكتا لدعوة مولانا آزاد دون خوف من القوانين المشددة التى أعلنتها الحكومة حتى كانت تعتقل ألف متطوع كل يوم .

وضاقت الحكومة ذرعا بما يجرى فى غير كلكتا كذلك فطبقت هذه القوانين فى كل البلاد ، ولما لم تجد لها أثرا إلا ازدياد حركة المقاطعة واستهتار الشعب بالحكومة وقوانينها وسجونها أقدمت على اعتقال الزعماء ظنا منها أن ذلك سيفت فى عضد الشعب ويقضى على الحركة .

فاعتقلت مولانا آزاد فى ١٠ ديسمبر سنة ١٩٢١ وقدمته إلى المحاكمة أمام محكمة إنجليزية ، وأمام هذه المحكمة ألقى أروع مرافعة وأجرأها وأخلدها على مر الزمن ، صورة نادرة من الجهر بكلمة الحق أمام السلطان الجائر كما أوصى بها الإسلام وكما تمثلها هذا الرجل المجاهد النادر المثال . صورة يجب أن يعرفها بل يحفظها كل إنسان ولا سيما الشباب ليعرفوا مدى تأثير العقيدة فى الإنسان ، وكيف ترفعه إلى مرتبة القديسين حين يقف وهو أعزل إلا من سلاح الإيمان ليجابه القوة الجارفة المستبدة ويقول لها ـ أمام محكمة « إنك ظالمة ، وأنا ظالم إن لم أقل لك إنك ظالمة »

وقد أعجبنى تعليق فضيلة الأستاذ الكبير الشيخ أحمد حسن الباقورى على هذه المرافعة الخالدة وتحليله لموقف مولانا آزاد فى كلمته التى أعدها ليلقيها نائبا عن الجمهورية العربية المتحدة فى احتفال الهند بميلاد مولانا آزاد ولكن الموت كان أسرع إليه من الاحتفال بميلاده .

وقد نشرت هذه الكلمة بعد ذلك فى مجلة ثقافة الهند عدد سبتمبر ١٩٥٨ . فكان مما جاء فيها : « وتظهر عظمة آزاد ويتجلى إيمانه الوثيق بالله وفهمه الصحيح للإسلام حين قدمه الانجليز للمحاكمة بتهمة التحريض على الثورة وجمعوا لذلك أدلة الاتهام من خطبتين كان قد ألقاهما فى مدينة « كلكتا » يدعو المسلمين خاصة والهنود عامة إلى العصيان المدنى ، كان ذلك أو آخر عام ١٩٢٢ ، وآزاد فى بقية من شباب يحرص المرء عليها شد الحرص ويضن بها أن تذهب فى مجال الحياة الجافية المظلمة ولو وقف آزاد هذا الموقف قبل ذلك بسنوات لقلنا إنها فورة الشباب ، ولو وقف هذا الموقف بعد ذلك بسنوات لقلنا إنه يأس الشيخوخة حمله على أن يخرج من الحياة من هذا الباب فى صورة بطل من أبطال التاريخ ولكن شاء القدر أن يتخير لآزاد هذا الموقف بالذات فى هذا الدور من

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

حياته ليثبت فى سجل الإنسانيه آية من آيات السمو البشرى ، ومثلا من أمثلة الإنسانية الرفيعة فى الإيمان بالحق والقيام فى وجه الظالمين الطغاة ».

« وتدور المعركة فى ساحة المحكمة فيشهد التاريخ أعنف معركة وأعجبها « يسجل فيها آزاد » نصرا حاسما للإنسانية ، به يتقرر مصيرها ويتحدد موقفها لأجيال عديدة مقبلة».

ولعلك - أخى القارئ - بعد هذا فى شوق إلى أن تقرأ شيئا مما ألقاه مولانا آزاد فى ساحة المحكمة لترى إلى أى مدى وصل فى الإيمان بالحق وعدم المبالاة بالطغاة الظالمين .

موعدنا معك فى المقال الآتى إن شاء الله .

عبد المنعم النمر

(بقية المنشور على صفحة ٦٧٦)

لها النجاح ؛ لأنها تحارب الإجرام فى نفس الفرد وتحفظ مصلحة الجماعة ثم هى بعد ذلك أعدل العقوبات لأنها لا تظلم المجرم ولا تحمله مالا يطيق فى سبيل الجماعة ، وهى عادلة أيضاً بالنسبة للجماعة لأنها تحفظ للمجتمع حقه ولا تضحى به فى سبيل الأفراد والعقوبة التى تحابى الأفراد على حساب الجماعة إنما تضيع مصلحة الفرد والجماعة معا لأنها تؤدى إلى ازدياد الجرائم واختلال الأمن ، ثم توهين النظام وانحلال المجتمع وإذا دب الانحلال فى مجتمع قضى على الأفراد وعلى المجتمع الفناء.(١) وهكذا يتبين لنا بعد المقارنة والموازنة سمو التشريعات الإسلامية وعدالتها ودقتها والفرق الكبير بينها وبين القوانين الوضعية ، وأن الواجب على الأمم الإسلامية كلها أن تأخذ بالتشريعات الإسلامية ككل لا يتجزأ ، ولاسيما وقد أفلست القوانين الوضعية فى محاربة الرذيلة والقضاء على الفساد فى أقطار الغرب والشرق على السواء ، وإن كانت بلاد الشرق الإسلامى لا تزال أحسن حالا من بلاد الغرب فيما يتصل بالأعراض ، والمحافظة على الأنساب وذلك لأنها مهما أخذت بتقاليد الغرب ونظمه فلا تزال فيها بقايا من خلق ومن حياء ، وذلك بفضل ما بقى لها من دين قويم ، وعادات موروثة كريمة ، لا يزال يستعصم بها كثير من الناس فى هذه الأقطار .

هذا وقد طال الحديث اليوم فلنرجىء الكلام عن رعاية الشريعة للجانب الانسانى إلى مقال آت إن شاء الله ؟

محمد محمد أبو شهبة

(١) التشريع الجنائى الإسلامى مقارنا بالقانون الوضعى ٦٣٦ ، ٦٤٦ .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

التفاؤل والتشاؤم

للأستاذ محمد محمد الشرقاوى

. . لا التفاؤل ـ ولا التشاؤم ـ حين تنفعل به نفس صاحبه ـ بمغير من واقع المقادير ـ حين كانت وحين تكون شيئا .. فقد ارتبطت الأسباب بمسبباتها فى أحوالها العادية .. ديناً ، ودنيا ، وعقلا ونقلا ، وسمعا وطبعا ، . . وعلى المرء أن يأتى البيوت من أبوابها .. دون أن يتأثر ـ فى مجريات الأمور ـ بما يخرج عن دائرة الأسباب ، . . ومن اعتقد أن للأسباب معوقات من دون قدرة الله تعالى .. مما ينعكس فى الخيال . . من صدفة مقارنة ، أو ندرة عابرة .. أو جزم بأن طالع اليمن ، ونجم السعود يحالفان عمله كلما تعرض لرؤى طيبة ، أو اكتنفت ظروفه وقائع مستحسنة .. فقد طوى قلبه على أفكار جاهلية خاطئة ، تدنيه من حمأة الشرك ، وتباعده عن شاطئ الإيمان الصحيح . روى أبو داود عن عبد الله رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الطيرة شرك .. الطيرة شرك .. الطيرة شرك .. وما منا إلا .. ، ولكن الله يذهبه بالتوكل » .

.. أى إن كل فرد هدف لتلاعب الأوهام به . . فترهبه فى غير مرهب ، أو تطمعه فى غير مطمع .. ومثل هذا لا يعرض صاحبه للمؤاخذة الدينية .. لأنه من الفطرة . .

ولكن إذا صار عقيدة جازمة . . تصدر عنها الأفعال إيجابا وسلبا . . فهنا تكون الخطيئة .. وهنا يتوجه التهديد الشديد الذى يتمثل فى ترديد كلمة الشرك ثلاثا على مسامع قوم حديثى عهد بجاهلية .. كانوا يرون التأثير فى الأشياء مع الله لغير الله . . وعلى المسلم الصادق .. أن يكافح تلك الأوهام الكاذبة بالتوكل على الله فى صدق وعمق وإيجابية ، وأن يردد الدعاء المأثور الذى أوصى به الرسول صلى الله عليه وسلم حين يستبد به شؤم موهوم ، أو وسوسة خادعة . . روى أحمد وأبو داود : « ذكرت الطيرة عند النبى صلى الله عليه وسلم فقال : أحسنها الفأل ، ولا ترد مسلما .. فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل : اللهم لا يأتى بالحسنات إلا أنت ، ولا يدفع السيئات إلا أنت ، ولا حول ولا قوة إلا بك » .

فعقيدة المسلم ينبغى أن تصان عن هذا اللغو الذى توارثته العقول الساذجة أن هناك أحوالا تنسجها الصدفة المحضة ، ويفضى إليها

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الاتفاق المجرد .. يكون لها أثر فى نفع مرتجى، أو ضر متقى ، ومثل هذا لا يخرج عن كونه خرافة يمجها العقل القويم ، وينبو عنها المنطق المستقيم ، وتأباها أصول الدين المقررة ، وقواعده المحكمة .

ولقد جاء الإسلام فوجد سوق الدجل رائجة بتلك السلع التافهة ، فسلط عليها نور الحكمة ، فكشف خباياها ، وفضح أمرها .. فتبدد ضبابها تحت إشراقته الباهرة ، وتهاوت هيا كلها أمام حججه القاهرة ، .. فمن ذلك أن الرجل كان إذا أراد سفرا .. أو غيره خرج إلى طير .. أو ظباء .. فزجرها .. فإن طارت يمينا تيمن واستبشر ، وإن طارت شمالا تشاءم وتكدر ، فنهاهم الشرع عن ذلك .. وفى هذا أخرج البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لا عدوى ولا طيرة ، ولا هامة ، ولا صفر ، وفر من المجذوم كما تفر من الأسد » .

والعدوى .. سريان المرض من صاحبه إلى غيره .. والمعنى : لا مرض يعدى بطبعه من غير فعل الله تعالى .. كما كانت تتصور أوهام الجاهلية ، ولا منافاة بين صدر الحديث .. وبين عجزه الذى يدعو إلى الفرار من المجذوم خشية المرض لأن هذا احتياط بتقدير من الله تعالى .. خوفا من التورط فى عقيدة مؤداها : أن العدوى مؤثرة بنفسها على طريق العلة والمعلول العقليين الذى لا يتصور فى العقل انفكاكهما .. الأمر الذى يتنافى مع توحيد الله وجودا وتأثيرا ، وإيجادا وتدبيرا .

فالتحوط ونفى التأثير عن غير الله كلاهما قدر فقه ويتضح هذا مما رواه مسلم : « أنه كان فى وفد ثقيف رجل مجذوم فأرسل إليه النبى صلى الله عليه وسلم : « إنا قد بايعناك فارجع » .. مع ما روى عنه صلى الله عليه وسلم : « أنه أجلس مجذوما يأكل بجواره وقال له : كل ثقة بالله ، وتوكلا عليه » .

فحديث المبايعة يرشد إلى التحصن والحيطة فى الأمور كلها احتراما للأسباب ، ودفعا للبلبلة الألباب ، وحديث المجاورة يضع النقط فوق الحروف ، ويبين أن الله ـ لا غيره ـ هو الضار النافع .

أما الطيرة : فهى توقع المكروه والشر لغير ما سبب ظاهر .. سوى عمل الصدفة .

والهامة طير أو هى البوم كانوا يتشاءمون منه إذا هبط فى مكان ، ويرون فيه نذير البؤس والخراب .

والصفر : هو شهر صفر كانوا يحلونه عاما ، ويحرمونه عاما .

ومن مزاعمهم الزائفة : الغول .. وفى رأيهم أنه نوع من الجن يتراءى للناس فى صور شتى فيضلهم ويهلكهم .. ، .. والنوء .. وهو نجم يأتى بالمطر ، وآخر بالريح .. وهكذا .

وقد حمل الإسلام حملة شعواء على تلك

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الرواسب البالية .. والظنون الطائشة .. التي لا تغني من الحق شيئا .

نعم إذا وجدت أسباب الشر ، وتقدمت عوامل النحس .. كان ذلك دليلا على النتيجة المشئومة .. كما أنه إذا توافرت وسائل الخير ، وبشائر السعد . أدى هذا إلى النتيجة الميمونة .. « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » وهذا يعطينا التفسير الصحيح لما رواه ابن عمر عن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « لاعدوى ولا طيرة ، وإنما الشؤم فى ثلاث . فى الفرس ، والمرأة ، والدار » .

فقد قالوا : إن شؤم الفرس جموحها ، وعدم انقيادها . أو عدم الجهاد عليها ونحوه .. وهذا - كما ترى - مرجعه إلى تقصير فى الترويض ، أو تهلد فى الواجب ، وأن الشؤم فى المرأة سوء خلقها . . أو ثقل مهرها ، أو عقمها ، وهو شؤم له من الأسباب ما يبرره ، وأن شؤم الدار فى ضيقها أو سوء جيرانها ، أو رداءة مرافقها . . أو نحو ذلك مما يؤدى إلى ما لا تحمد عقباه .

ومع أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد نفى نفيا باتا ما انعقدت عليه قلوب الجاهليين من عقيدة التأثير من جانب التشاؤم نجده يحرص كل الحرص على سلامة الشعور الوجدانى فى سريرة المسلم . كيما يبقى دائما مشرقا بنور الأمل . فياضا بمعانى الرجاء حتى تظل حيويته الروحية دافقة لا يعتريها وهن ولا ضعف .

وذلك حين تنعكس على مرآة النفس ألوان معتمة تشكل جزءاً من طبيعة الأشياء .. ولهذا نجد الرسول صلى الله عليه وسلم يساير أعرابياً تملكه التشاؤم من كل أقطاره ، ويدعوه إلى تغيير أوضاعه ، ليعود نور الأمانى إلى حنايا أضلاعه .. روى أبو داود بسند صالح أن رجلا قال يا رسول الله إنا كنا فى دار كثير فيها عددنا ، وكثير فيها أموالنا ، فتحولنا إلى دار أخرى .. فقل فيها عددنا ، وقلت فيها أموالنا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ذروها ذميمة » .

ولم يكن هذا التوجيه من الرسول إلا اختصاراً لطريق العلاج النفسى من غير ما مساس بعقيدة القضاء والتوكل الأساسى .

وهذا يفسر لنا جواب الإمام مالك رضى الله عنه حين سئل عن شؤم الدار فقال : « كم من دار سكنها ناس فهلكوا ثم سكنها آخرون فهلكوا » .

ويلقى ضوءاً على ما أخرجه أبو داود والترمذى عن بريدة رضى الله عنه قال : « كان النبى صلى الله عليه وسلم لا يتطير من شىء ، وكان إذا بعث رجلا سأل عن اسمه . . فإذا أعجبه فرح به ، ورؤى بشر ذلك فى وجهه ،

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وإن كره اسمه رؤى ذلك فى وجهه ، وإذا دخل قرية سأل عن اسمها ، فإن أعجبه فرح بها ورؤى بشر ذلك فى وجهه ، وإن كره اسمها رؤى ذلك فى وجهه » .

فمن هذه الزاوية الوجدانية فى حياة النفس يعالج النبى معنوية المسلم ، ويرفعها من سفساف الأخيلة الكواذب ، والأوهام الهوائم . . إلى معالى الحقائق التى يستند واقعها على العلم والعمل مع العناية بحسها المرهف وشعورها اليقظ . . فقد أعطاهما حقهما من حسن التأثير ، وجمال الانعكاس . . روى البخارى عن سعيد بن المسيب عن أبيه عن جده أنه جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم رجل فقال « ما اسمك قال : حزن . . قال : بل أنت سهل . فقال : لا أغير اسماً سمانيه أبى » قال ابن المسيب : فما زالت الشدة والحزونة فينا بعده

والحزن : ضد السهل ، وهو ما غلظ من الأرض ، فجد سعيد وهو حزن بن أبى وهب القرشى المخزومى ناقش الرسول فى صراحة تامة فيما ذهب إليه من إيثار حسن الأسماء وكانت وجهة نظر جد سعيد أن للمسألة جانباً آخر يشعر بهذا التيمن ففى رواية أحمد وأبى داود أنه قال للرسول : « . . لا . . السهل يوطأ ويمتهن . . ومهما يكن من أمر تأويله فقد كان الأحرى به أن يتوب إلى إرشاد الرسول . . ولكنه تصلب وتحزن . . حتى صارت الشدة والخشونة فى طبعه . . ثم فى نسله . . بيد أنها كانت فى سعيد بن المسيب تشدد للحق وفى الحق .

ومن هذا القبيل مارواه مسلم عن ابن عمر قال : « إن ابنة عمر كانت تسمى عاصية . . فسماها الرسول جميلة » وما رواه أبو داود عن أسامة بن أخدرى أن رجلا يسمى أصرم كان فى النفر الذين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له ما اسمك ؟ فقال : أصرم قال : « بل أنت زرعة » والزرعة اسم من الزرع وهو أطيب لفظاً ، وألطف معنى من أصرم الذى ينبىء بالقطع والبتر » .

وما رواه الثلاثة عن ابن عباس قال : « كانت أم المؤمنين جويرة رضى الله عنها اسمها برة . . فسماها الرسول جويرة وكان يكره أن يقال : خرج من عند برة » أى لما يشعر من الخروج من معنى البر .

وهكذا نجد الرسول فى أكثر من موقف يحب الفأل الحسن ويشيع التفاؤل من أوسع أبوابه ، وأقرب أسبابه فيؤثر الأسماء ذات الأنس والبهجة ، والمعانى صاحبة اليمن والبركة . حتى تعتمل القلوب بمعانى الخير والبر . بقدرما تتوارى عنها أشباح الأتراح .

وهذا هو ما حدا بالرسول صلى الله عليه وسلم إلى استبدال أسماء العاص ، وعتلة ،

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وشيطان ، وغراب ، وحباب ، وشهاب ... بأضدادها ، وقد سمى حربا ، وسلما ، والمضجع والمنبعث ، وأطلق اسم خضرة على أرض كانت تسمى عفرة ، وشعب الهدى على مكان يعرف بشعب الضلالة ، وبنى الرشدة على قوم يعرفون ببنى الزنية ، وبنى مغوية . يروى الثلاثة عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: « لا طيرة وخيرها الفأل ، قيل : يا رسول الله . وما الفأل ؟ قال : « الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم » وفى رواية : « لا طيرة ، ويعجبنى الفأل الصالح : الكلمة الحسنة » والفأل ضد الطيرة وتستعمل فى الخير والشر ، والمعنى لا تطير ثابت .. ولكنى أحب أن أسمع الكلمة الصالحة نحو يا سالم . يا غانم . يا منصور . يا ناصر . .

ولم يدع الإسلام منفذاً يطل منه التشاؤم بشبحه . المعتم إلا ألقى عليه ستارا كثيفا من حسن الظن بالله ، وثقة المرء بنفسه ، وقوة اعتماده بعد الله على عمله وكفاحه ، وقرن بذلك اليمن والنجح والأمل ، ولعل الرؤى والأحلام التى يراها النائم فى المنام تلعب دوراً كبيراً ، وخطيرا فيما ينتاب الإنسان من أوضاع نفسية حسنه أو سيئة ولم يترك الإسلام لتيارات النحس والخداع الضارة أن تسترق الخطى فى غفلة اللا شعور إلى صدر المسلم . بل بادر إلى وضع صمام أمان فى تلك الثغرة المنامية . ويتلخص هذا الصمام فى أمرين : أحدهما إيجابى ، والآخر سلبى فأما الإيجابى . فهو أقوال وأذكار يرددها النائم حين تفزعه الرؤيا وأما السلبى فهو الكف عن حكاية ما يتراءى له فى النوم من صور مزعجة ، وأحوال بغيضة . روى الأربعة عن أبى قتادة رضى الله عنه قال « كنت أرى الرؤيا فتمرضنى . حتى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : الرؤيا الصالحة من الله . فإذا رأى أحدكم ما يحب فلا يحدث بها إلا من يحب ، وإن رأى ما يكره فليتفل عن يساره ثلاثا ، وليتعوذ بالله من شر الشيطان وشرها ، ولا يحدث بها أحداً . فإنها لن تضره » وفى رواية : « فليتفل عن يساره ثلاثا وليقل : اللهم إنى أسألك خيرها وخير ما فيها ، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها » . وروى مسلم عن جابر رضى الله عنه قال : جاء أعرابى إلى النبى صلى الله عليه وسلم . فقال يا رسول الله . رأيت فى المنام كأن رأسى ضرب فتدحرج ، فاشتددت على أثره . فقال عليه الصلاة والسلام : لا تحدث الناس بتلعب الشيطان بك فى منامك » .

وذكرت الطيرة عند النبى صلى الله عليه وسلم . فقال : « أحسنها الفأل . . ولا ترد مسلما . فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل : اللهم لا يأتى بالحسنات إلا أنت ، ولا يدفع السيئات

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

إلا أنت ، ولا حول ولا قوة إلا بك » . رواه أحمد وأبو داود .

قال النووى : الفأل يستعمل فيما يسوء ، وفيما يسر ، وأكثره فيما يسر . . والطيرة لا تكون إلا فى الشؤم ، وقد تستعمل مجازا فى السرور ، وفى الشرع . . خصت الطيرة بما يسوء ، والفأل بما يسر ، ومن شرطه عدم القصد إليه ، وإلا كان من الطيرة الذميمة . قال ابن بطال : جعل الله فى فطر الناس محبة الكلمة الطيبة ، والأنس بها ، كما جعل فيهم الارتياح للمنظر الأنيق ، والماء الصافى ، وإن كان لا يملكه ، ولا يشربه .

وقد ذكر البيهقى أن التطير كان فى الجاهلية شائعا عند العرب ، وذلك بإزعاج الطير عند إرادة الخروج للحاجة ، ثم صاروا يتطيرون بصوت الغراب ، وبمرور الظباء . . فسموا الكل تطيرا لأن أصله الأول . . فكان أحدهم إذا خرج لأمر فإن رأى الطير طار يمنة تيمن به واستمر ، وإن رآه طار يسرة تشاءم منه ورجع ونفر ، وربما كان أحدهم يهيج الطير ليطير فيعتمدها ، ويستند إلى فعلها ، وكانوا يسمون الطير المتيامنة (السانح) والمتياسرة (البارح) ومن أمثلتهم فى هذا المقام « من لى بالسانح بعد البارح » .

قال ابن حجر « وليس فى سنوح الطير ، وبروحها ما يقتضى شيئاً مما اعتقدوه ، وإنما هو تكلف بتعاطى ما لا أصل له . . إذ لا نطق للطير ، ولا تمييز حتى يستدل بفعله على مضمون معنى فيه ، وطلب العلم من غير مظانه جهل من فاعله .

ولم يكن العرب وحدهم هم الذين تورطوا فى هذا الخلق العقلى ، والسفه العقائدى ، بل نجد العجم أيضا قد شاعت فيهم تلك السخافات الفكرية ، فمن ذلك : أن أحدهم كان إذا رأى الصبى ذاهبا إلى المعلم تشاءم ، وإذا رآه راجعا تيمن ! . أو رأى جملا موقرا حملا تشاءم ، وإن رآه واضعا حمله تيمن ، إلى غير ذلك من ترهات وأباطيل تحالف على بثها الجهل والسذاجة . . فجاء الشرع الحكيم وحرر الأفكار من هذا الإسار ، وحقق إصلاحا جذريا فى العقائد ، وقرر . « أن من تكهن أو رده عن سفر تطير فليس منا » كما نطق الحديث الشريف ، قال الحليمى « وإنما كان صلى الله عليه وسلم يعجبه الفأل ، لأن التشاؤم سوء ظن بالله تعالى بغير سبب محقق والتفاؤل حسن ظن به ، والمؤمن مأمور بحسن الظن بالله تعالى على كل حال .

وقال الطيبى : « معنى الترخص فى الفأل ، والمنع من الطيرة أن الشخص لو رأى شيئاً فظنه حسناً ، وعرضا على طلب حاجته .. فليفعل ذلك ، وإن رآه بضد ذلك ... فلا يقبله .. بل يمضى لسبيله ، فلو قبل وانتهى عن المضى .. فهو الطيرة التى اختصت بأن

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

تستعمل فى الشؤم » . أخرج الطبرى عن عكرمة قال : كنت عند ابن عباس ... فمر طائر يصيح .. فقال رجل . خير .. خير .. فقال ابن عباس : ما عند هذا لا خير ولا شر » ، .. وأخرج البيهقى من حديث ابن عمر موقوفا « من عرض له من هذه الطيرة شيء .. فليقل: اللهم لا طير إلا طيرك، ولا خير إلا خيرك ولا إله غيرك » ، وأخرج ابن حبان فى صحيحه من حديث أنس مرفوعا : « لا طيره . . والطيرة على من تطير » ، وللبيهقى من حديث أبى هريرة : « إذا تطيرتم فامضوا ، وعلى الله فتوكلوا » .

وقديما لم تهضم عقليات قادة الفكر، وذوى الزعامة من العرب هذا الخرف والهرف ، ونادوا ببطلانه فى تضاعيف شعرهم ، وسائر أمثلتهم.. واهتدوا إلى ذلك بفطرهم السليمة، وطبائعهم القويمة .. قال شاعرهم : ـ

ولقد غدوت وكنت لا
أغدو على واق وحاتم
فإذا الأشائم كالأيامن
والأيامن كالأشائم

وقال آخر : ـ

لعمرك ما تدرى الطوارق بالحصى
ولا زاجرات الطير ما الله فاعل

وقال ثالث : ـ

وما عاجلات الطير تدنى من الفتى
نجاحا ، ولا عن ريثهن قصور

ولقد كانت الكثرة المكاثرة من أهل الجاهلية يتخذون من نظرية التشاؤم والتفاؤل قضية مسلمة ... يستلهمونها الحكمة ... ويقبسون منها الهدى .. وكانت أحيانا تصح معهم ، لتزيين الشيطان ذلك ، ومن عجب أن تبقى بقية من تلك الرواسب الخرافية .. فى أعماق قلوب الكثير من أبناء الملة الإسلامية ، وأن تتوالد جرائيمها وتتكاثر وتظهر فى المجتمع فى أزياء شتى ، وصور متباينة ... من ضرب الرمل والحصى ... واللعب بالورق ، ومطالعة النجوم ، وقراءة الفنجان والكف ، وفتح الكتب .. ونحو ذلك مما يتخذ شكل الوباء العقائدى فى المجتمع الإسلامى ، ويذهب بألاء العقيدة الصحيحة، ويطمس توهج الحق فى معدنها ثم تظهر آثاره فى الأعمال حمقا وجهالة .. وسخفا وضلالة ..

وإذا يممنا وجهنا قبالة التفاؤل مرة أخرى. نجد أن التوجيهات الإسلامية فى هذا الجانب تحمل فى ثناياها فكرة الإيحاء الحسن الذى الذى نوه علماء النفس بآثاره الحميدة فى رفع معنويات المرء ، ودعم ثقته بنفسه ، وتقوية أمله فى مستقبل أفضل . وهذا يتمثل بأجلى معانيه فى سورة الانشراح حيث يقول الله تعالى « فإن مع العسر يسرا ، إن مع العسر يسرا » وفى هذا يقول علماء البلاغة « ـ إن النكرة إذا أعيدت نكرة كانت غير الأولى ، والمعرفة إذا أعيدت معرفة كانت عين الأولى . وهذا يعنى

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

أن الآية الكريمة تشير إلى أن كل عسر واحد يحف به يسران ، وقد تأكد ذلك من قول ابن عباس وابن مسعود رضى الله عنهما فى تفسير تلك الآية : « لن يغلب عسر يسرين » .

وجاء فى الكشاف أن الرسول صلى الله عليه وسلم خرج ذات يوم وهو يضحك ويقول : « لن يغلب عسر يسرين » . ويقول الزمخشرى بعد ذلك : « سواء كانت الجملة الثانية تكريرا للأولى . . كما كرر قوله : « ويل للمكذبين » لتقرير معناها فى النفوس، وتمكينها من القلوب . أو كانت الجملة الأولى وعدا بأن العسر مردوف بيسر لا محالة ، والثانية وعدا آخر مستأنفا بأن العسر متبوع بيسر ، فعلى كلا التقديرين هما يسران وعسر واحد . أما على تقدير التكرار فلأنه عمل بالظاهر وبناء على قوة الرجاء وأن وعد الله لا يحمل إلا على أوفى ما يحتمله اللفظ وأبلغه ، وأما على تقدير الاستئناف .

فلأنه لا يخلو . . إما أن يكون تعريفه للعهد . . وهو العسر الذى كانوا فيه . . فهو هو . . وإما أن يكون للجنس الذى يعلمه كل أحد . . فهو هو أيضا ، وأما اليسر فمنكر متناول لبعض الجنس . . فإذا كان الكلام الثانى مستأنفا غير مكرر . . فقد تناول بعضا غير البعض الأول بغير إشكال . .

ولقد جاء التاريخ مصداقا لوعد القرآن باليسر إثر اليسر إذا عرض عسر فقد تيسر للمسلمين فتوحات كثيرة ، وحققوا انتصارات متوالية فى قطاعات مختلفة . . ومن وراء ذلك كله يسر هو أعظم شأنا وأجل قدرا : « قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين » وهما حسنا الظفر وحسنا الثواب . . وهذا ما جعل ابن مسعود رضى الله عنه يقسم غير حانث ويقول : « والذى نفسى بيده لو كان العسر فى حجره لطلبه اليسر حتى يدخل عليه . . إنه لن يغلب عسر يسرين » وذلك بالرغم من أن مصحفه رضى الله عنه ليس فيه تكرار هذه الآية . . ولكنه - كما قال صاحب الكشاف - تأوله بيسر الدارين ، وكأنه قصد باليسرين ما فى قوله يسرا من معنى التفخيم .

وحتى فى أشد حالات المؤمن كربا . . يرف الإسلام بجناحين من رحمة . . وتفاؤل حول قلبه المهموم وهو يعانى سكرات الموت . . ليربط على نفس المؤمن فى أحلك ساعاتها ، ويكفكف من غلواء الفزع والهلع فى أحرج مواقفها . . فيقول صلى الله عليه وسلم باعثا الأمن والسلام . . فى محنة الموت الزؤام : « لا يموت أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله » رواه مسلم عن جابر . . أى يعتقد أن الله به رءوف رحيم عفو كريم . . وروى الترمذى عن أنس رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم دخل على شاب وهو فى الموت فقال : كيف تجدك ؟ : فقال : أرجو الله يا رسول الله . . وإنى أخاف ذنوبى . . فقال صلى الله عليه وسلم :

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

« لا يجتمعان فى قلب عبد فى مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو، وأمنه مما يخاف » .

ويتابع الرسول تزويد المؤمن بطاقات هائلة من قوة الروح ، وطمأنينة النفس .. حتى إنه صلى الله عليه وسلم يصرح بأقصى غايات التفاؤل ، وأبلغ معانى البشر والسعادة وذلك فيما رواه أبو داود والترمذى والحاكم فى صحيحه عن معاذ بن جبل عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة » .

وفى رواية لمسلم بلفظ : « قال الله تعالى : يا ابن آدم إنك ما دعوتنى ورجوتنى غفرت لك على ما كان منك ولا أبالى . . يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك ولا أبالى ، يا ابن آدم إنك لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا ، ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة » .

ولا أجد أحفل بالمنى العذاب ، والآمال الزهر أجعله خاتمة المسك فى هذا البحث مما رواه الشيخان عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن لله مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام : منها يتعاطفون ، وبها يتراحمون ، وبها تعطف الوحش على ولدها وأخر تسعا وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة : وبعد ، فقد تبين مما ذكرنا : أن الأقدار لا يغيرها شؤم سىء ولا فأل حسن : وأن الإسلام حارب التشاؤم ونهى عنه ودعا إلى التحلل منه وندب إلى التفاؤل فى كل الأمور لما له من أثر حميد فى المزاج والسلوك:

وأنه عالج الشؤم أحيانا بإزالة أسبابه اختصارا مع عدم المساس بالعقائد المقررة.

وأن التشاؤم والتفاؤل : كلاهما لا صلة له بالأعمال وإنما أحب الإسلام التفاؤل من حيث إنه نوع من حسن الظن بالله ولو بغير سبب، وهو من مستحبات الإسلام فى كل حال، وأبغض التشاؤم من حيث إنه مظهر لسوء الظن بالخالق بدون ما سبب ظاهر. وهو مما يكرهه الإسلام وأن القرآن الكريم قد أيد السنة الشريفة فى إشاعة التفاؤل وبث روح الطمأنينة فى النفوس الواجفة ، والقلوب الراجفة .

وهناك آيات أخرى كثيرة غير آية الانشراح تحمل نفس معناها ومغزاها منها قوله تعالى : « قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعا ، إنه هو الغفور الرحيم » ، وقوله جل ذكره : « إن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » ، وقوله تباركت أسماؤه : « ولا تيئسوا من روح الله ، إنه لا ييئس من روح الله إلا القوم الكافرون » ؟

محمد محمد الشرقاوى
مبعوث الأزهر إلى لبنان

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

أدب مقارن :

ذئب عربي وذئب فرنسي

للأستاذ العوضي الوكيل

نقصد بالذئب العربي ذئب الفرزدق ، همام بن غالب ، وكان قد لقيه مدلجا بليل ، فبسط أمامه الطعام ، ودعاه إليه ، ليتعشيا معاً ، وأخذ الفرزدق الحذر ، فكانت يد منه ترفع اللقمة إلى فمه ، وأخرى تمسك بمقبض السيف ، وهو اللقاء الذي سجله الفرزدق في قصيد قوى منه :

وأطلس عسال وماكان صاحبا
دعوت لناري موهنا فأتاني
فلما أتى قلت ادن دونك ، إنني
وإياك في زادي لمشتركان
وبت أقد الزاد بيني وبينه
على ضوء نار مرة ودخان
وقلت له لما تبسم ضاحكا
وقائم سيفي من يدي بمكان
تعش فإن عاهدتني لا تخونني
فكن مثل من ياذئب يصطحبان

ليس هذا الذئب الذي اكتفى بالتبسم والضحك دون الوثوب والهجوم مقصدنا من هذا الحديث ، وإنما الذئب العربي الذي نعنيه هو الذي لقيه - في إحدى المفاوز أو في الخيال الشعري - أبو عبادة الوليد البحتري ، فتصاولا ، ووقع صراع من جولتين اثنتين ، خر الوحش بعد الثانية منهما على الأرض صريعا إذ رماه البحتري بسهم نفذ إلى قلبه . ثم سجل انتصاره في قصيد رائع .

والذئب الفرنسي ذئب لقيه الشاعر الفرنسي الخالد ألفريد دي فيني ، مع نفر من أصحابه ، وكان معهم كلاب الصيد .

ووقعت بين الفريقين معركة انتهت بقتل الذئب . وسجل الشاعر ذلك في شعره :

وائن التقى الذئبان الفرنسي والعربي ، في المعركة ، ولقي كل منهما حتفه على يد شاعر فإن الشاعرين لم يلتقيا .

لقد لقي البحتري الذئب وحيدا في صحراء قاحلة ، وقد نفذ زاد الشاعر واشتد جوعه فهو يبحث عن طعام ، والذئب يجوس خلال المفازة لعله يصادف فريسة يسد بها جوعته ، فكلاهما جائع ، وكلاهما يبحث عن طعام ، وسيسعد الحظ أحدهما ويتعس الآخر :

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

كلانا بها ذئب يحدث نفسه
بصاحبه والجد يتعسه الجد

ويقف الجائعان وجها لوجه ، الذئب البشرى ، والذئب الحيوانى ، ويجلس الذئب مقعياً متحينا من الشاعر فرصة ، ويفزع الشاعر ويهرع إلى شعره ، وينشد أبياتا حماسية بصوت جهورى لعله أن يخيف الذئب ، ولكن الإنشاد يحدث عكس المطلوب ، فيهيج الوحش ، ويحاول الانقضاض على الشاعر :

عوى ثم أقعى فارتجزت فهجته
فأقبل مثل البرق يتبعه الرعد

فيعاجله البحترى بسهم مريش ، يسدده إليه ، فلا يصيب منه مقتلا ، فيشتد هجوم الذئب ، ويعاود البحترى الكرة فيرميه بسهم آخر مريش ، ويحسن التسديد هذه المرة فيمضى السهم إلى قلب الذئب أو إلى حيث يكون اللب والرعب والحقد كما قال البحترى وفى ذلك يقول :

فأوجرته خرقاء تحسب ريشها
على كوكب ينقض والليل مسود
فما ازداد إلا جرأة وصرامة
وأيقنت أن الأمر منه هو الجد
فأتبعتها أخرى فأضللت نصلها
بحيث يكون اللب والرعب والحقد

خر وقد أورده منهل الردى
على ظمأ لو أنه عذب الورد

وبعد أن خر الذئب صريعاً ، ووضعت المعركة أوزارها ، مضى البحترى فجمع حصى واشتوى الذئب ، ثم نال منه خسيساً سد به الجوع . وغادره ومضى إلى شأنه .

وقد لقى الفريد دى فينى الذئب ، مع نفر من أصحابه - كما قدمنا ، ومع كلاب للصيد ، خرج الجميع للهو والتسلية وإزجاء الفراغ ولم يكن هناك حاجة أن تقوم معركة بين هذا الذئب وذلك الجمع الحاشد من الشاعر وصحابه ، ولا يمكن أن يكون من الشجاعة أن يتكاثر جماعة على ذئب ، وسجل الشاعر الفرنسى على نفسه العدوان ، وأقر به إقراراً لا يقبل الجدل ، فإن الشاعر وصحبه رأوا الذئب من بعيد وحوله صغاره يرقصون فى مرح وأنثاه تنظر إلى بنيها فى فرح وإعجاب ، ولم نستطع هذه الأمومة الوادعة المطمئنة أن تكف العادين عن العدوان ، إذ ما لبث الشاعر وصحبه حتى أحاطوا بالذئب فى شكل هلال - وما أشأمه من هلال - وكل منهم يحشو بندقيته بالرصاص ، ولما رأى الذئب ما حدث مضى إلى كلب من كلاب الصيد التى معهم فهوى على عنقه بأنيابه ومخالبه ، وسمر فكيه فى قوة المستميت :

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

فمضى نحو فاتك من كلاب الصيـ
ـد ضار يهوى على عنق ضار (١)
بفم ســـاعر وقلب تلظى
فى حنايا ضـــلوعه كالجمار

وحال الشاعر وصحبه أن ينقذوا كلبهم فما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، فأطلقوا الرصاص وابلا على الذئب الذى أهلك الكلب قبل أن يهلك ، ووقف ينظر إليهم شامتا بهم ، ولم ينطق بصيحة ألم واحدة حتى وقع على الأرض :

هلك الكلب قبله وهو يرنو
نحونا فى علا وفى استكبار (٢)
لم يدعه وقد رمينا حشاه
ما استطعنا بالنار تلو النار
ورنا نحونا ومال على الأر
ض رضيا أن نال بعض انتصار
ودم الكلب غامر فمـــه الوا
سع حتى كساه ثوب احمرار

ويستخلص الشاعر من ذلك كله عبرة ودرسا ، فى تحمل الألم ، وفى العزم والجلد ، وعدم البكاء والنحيب :

إن معنى البكاء ضعف وذل
من عواء العاوى أمر وأشأم
فتألم مثلى بصمت طويل
عبقرى ومت ولا تتكلم !

إن البحترى لم يقتل ذئبه لهوا وعبثا ، ولكنه المضطر ، ومن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه ، ثم إنه فرد يقابل فرداً وسلاحه قوس وبعض أسهم لعلها لم تكن صالحة كل الصلاحية فإن أحدها أصاب الذئب فلم يفعل شيئا ، ودى فينى يلقى الذئب فى جحفل من أصحابه ، وحشد من كلابه ، وسلاحهم البنادق والرصاص ، وهم يلقون الذئب للهو والعبث .

وإذا كان البحترى قد ختم قصيدته بالحكمة حين تحدث عن جور الليالى وشقاء الكريم فى الدنيا فإن دى فينى قد ختم قصيدته بمقطع يكاد يبلغ نصفها عما استخلصه من موقف الذئب من العظات والعبر وكان أكثر توفيقا من البحترى فى هذا المجال .

العوضى الوكيل

(١) ، (٢) الترجمة لكاتب المقال .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

شخصية ذي القرنين بين قورش والإسكندر المقدوني

للدكتور سعد الدين الجيزاوي

« ويسألونك عن ذي القرنين . قل : سأتلو عليكم منه ذكراً ، إنا مكنا له في الأرض ، وآتيناه من كل شيء سببا ، فأتبع سببا ... (١) » .

قرآن كريم

في كتاب الله الكريم إشارات كثيرة ، تحتاج في تفسيرها إلى سعة اطلاع ، ومعرفة شاملة لأحوال الأمم السابقة ، وما كان لها من نظم ومعتقدات ، ثم إلى ثقافة خاصة بما يؤدي إليه مرور الزمن من تطور في مدلول كثير من المفردات اللغوية ... إلى معرفة متجددة بكل ما يستجد في ميادين الكشوف العلمية الحديثة ؛ ذلك لأن هذا الكتاب الكريم ، من خصائصه أنه قد ضم بين دفتيه أخباراً عن كثير من الأمم السابقة ، ومعتقداتها ، تارة تصريحا ، وتارة تلميحا لحكم الله أعلم بها من خلقه ؛ فعلى من يريد تفسير تلميحاته وإشاراته أن يجد ويبحث عساه يوفق ، وفي هذا فلسفة بعيدة المدى للدعوة إلى التعليم المستمر .

ولأن القرآن في القمة من اللغة الفصحى ، فعلى من يريد أن يعرف مدلولات مفرداته اللغوية بعد أربعة عشر قرناً من نزوله مثلا ، أن يلم بما طرأ على كثير من مفردات اللغة خلال تلك القرون ، وأن يستفيد من مناهج البحث الحديثة في مقارنات اللغات ومعرفة ما بينها من اتفاق أو اختلاف .

وفي كتاب الله الكريم دعوة إلى النظر في ملكوت السماوات والأرض ، والتفكر فيما خلق الله ، وطبيعي أن هذه الدعوة ليست للفرجة ، وإنما هي للبحث والتنقيب لمعرفة أسرار النظام البديع الذي يسير عليه هذا الكون ، والوقوف على عظمة الخالق سبحانه وتعالى ...

ومهما تناهت معارف الناس في تفسير إشارات القرآن الكريم وتلميحاته فإنها لا تعطي القول الفصل أو الكلمة الأخيرة ، بل بقدر ما تتسع له طاقة المعرفة في العصر الذي فسرت فيه ، وهذا بلا شك من دلائل عظمة هذا الكتاب الكريم وأسرار

---

(١) سورة الكهف الآيات من ٨٣ إلى ٩٨ .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

إعجازه ، فهو أبداً جديد ، يساير كل زمان ومكان : « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد [١] » .

ومن إشارات القرآن التي تحتاج في تفسيرها إلى معرفة خاصة بمنشأ الوثنيات وفكرة الذبح تقرباً إلى الأصنام ، ما جاء عن ذبائح الحج التي تعتبر شعيرة من شعائره ؛ فقد كان أهل الجاهلية يذبحون البقر والإبل والأغنام تقرباً إلى الله في شخص الأوثان كما كانوا يزعمون ، والصورة العامة التي كانت عندهم عن الدماء التي تتطاير أمام الوثن أنها ترضي الإله ، ولذلك كانوا لا يكتفون بسيل الدماء ، بل كانوا يأخذون منها وينضحون الوثن إن كان الذبح أمام وثن أو جدران الكعبة إن كان الذبح أمامها .

فلما ظهر الإسلام ، أبقى ذبح الأنعام ، ولكن على صورة تغاير ما كان عليه أهل الجاهلية ، إذ اعتبر الإسلام الذبح لوناً من الإحسان إلى المحتاجين وحبب إلى الذابحين أن يأكلوا من ذبائحهم طيبة بذلك نفوسهم ، لأنهم إنما يذبحون امتثالا لأوامر الله .

وفيما بين تشريع الإبقاء على الذبائح ، وتغيير الصورة التي ألفها الجاهليون لها ، كانت إشارة .

وهذه الإشارة كانت في كلمة « دماؤها » الواردة في قوله تعالى : « لن ينال الله لحومها ولا دماؤها [٢] » .

وكان فهم هذه الإشارة يحتاج إلى دراسة عميقة لمعرفة الفكرة في الذبح أمام الوثن كما كان يفعل الوثنيون ...

ومرت القرون حتى كان عصرنا الحديث ، ثم نظمت دراسات عميقة وبحوث مستفيضة في معرفة أصول الأديان والعقائد جميعاً ، وعقد مقارنات بينها ...

وقد فهم أحد المستشرقين الألمان من المعنيين بدراسات القرآن الكريم أن وراء التعبير بكلمة « ولا دماؤها » سراً ، وقد هداه بحثه إلى أن منشأ عقيدة الذبح أمام الوثن كان عند قدماء الصين حين ظنوا أن روحا سارياً في كل الكائنات هو المسيطر على الكون ، فأرادوا أن يتقربوا إليه ، فاخترعوا الوثن ونصبوه معتقدين أن ذلك الروح السارى يشم رائحة الدماء ، فيرضى عن العابدين ويقضى لهم حاجاتهم كما كانوا يزعمون .

هكذا حدثنا أستاذنا المرحوم الدكتور على العناني ، في إحدى محاضراته بدار العلوم ، وقد ذكر ابن الكلبي [٣] في كتابه

---

(١) فصلت ٤٢ .

(٢) سورة الحج ٣٧ .

(٣) هو أبو المنذر هشام بن محمد السائب الكلبي توفي سنة ٢٣١ هـ .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

« الأصنام » أن وثنية العرب منقولة عن الصين فى أرجح الروايات .

ومن الإشارات التى تحتاج فى تفسيرها إلى ثقافة خاصة ما سمعته من الأستاذ الكبير عباس العقاد فى إحدى ندواته حين سأله سائل : لماذا لا تقوم بوضع تفسير للقرآن الكريم ؟ .

قال الأستاذ : إننى معتزم هذا الأمر ، وعندى فكرة واضحة عن منهج للتفسير يغاير الطرق المألوفة فيه ؛ لأنى أفضل أن يكون التفسير لموضوعات وأن يعنى فى ذلك بدراسة المناهج العلمية الحديثة وتطبيقها ، ولا سيما فيما يتعلق بتطور مدلولات الكلمات ، على ألا يكون التفسير هو الكلمة الأخيرة أو ما قصدته الآيات تماما ، وإنما هو تقريب وطريق إلى الوصول للحقيقة ، وضرب الأستاذ لذلك عدة أمثلة ، أذكر منها مثلا على تغير المفهوم اللغوى لبعض الكلمات ، وكيف أن المفسر لكتاب الله لا بد له من أن يلم بعلم اللغات المقارن ويعرف ما بين أصول الكلمات واشتقاقاتها فى مختلف اللغات ـ ولا سيما المجموعة السامية من اتفاق أو اختلاف . واستشهد لذلك بلفظتى : أمى ، وأمانى ، الواردتين فى الآية الكريمة « ومنهم ـ اليهود ـ أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانى »[1] فقال : ليس المقصود بالأمية هنا الجهل بالقراءة والكتابة كما هو شائع لمفهوم هذه الكلمة ، وإنما هى إشارة إلى ما كان يطلقه الإسرائيليون على غيرهم من اليهود الذين دخلوا اليهودية من أجناس أخرى أى أمم أخرى غير بنى إسرائيل ، فالنسبة إلى أمة أو أمم . ولذلك جاء فى آية أخرى : « الذين يتبعون الرسول النبى الأمى ، الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل »[2] فهو يذكر الإسرائيليين أن هذا النبى الموصوف فى كتبكم ليس إسرائيليا وإنما هو « أمى » ـ وكذلك لفظة « أمانى » فهى ليست من الأمنية والأمل ، وإنما من التأمين على الدعاء بقول « آمين » فقد كان الإسرائيليون يعتبرون كل يهودى ليس من جنسهم لا يستطيع أن يفقه التوراة مثلهم وإنما هو يستجيب لما يسمع دون فهم للأسرار ...

والحق أن هذا الاتجاه قد أثلج صدرى من أستاذنا الكبير ، والله أرجو أن يمكن له ويتيح له من الفرص ما يعينه على التفرغ لهذا المشروع الجليل .

وفى كتاب الله إشارات تاريخية كثيرة لا يتسع هذا المقال للإشارة إليها ، وإنما

---

[1] البقرة ٧٨ .

[2] الأعراف ١٥٧ .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

هناك موضوع هام من بينها قد شغل المفسرين والمؤرخين كثيراً ، ذلك هو شخصية ذى القرنين الواردة فى سورة الكهف :

قرأت بحثاً مستفيضا حول هذا الموضوع فى عددى مارس ويونيه سنة ١٩٥٠ من مجلة ثقافة الهند للسيد الأستاذ أبى الكلام آزاد من علماء الهند البارزين وأحد وزراء معارفها .

وقد سار السيد آزاد فى بحثه على منهج علمى دقيق ، ووصل إلى نتائج ألقت ضوءاً قويا على حيرة العلماء فى تعرف هذه الشخصية. وخلاصة هذه النتائج أن أوصاف ذى القرنين الواردة فى القرآن تتمشى وسيرة الملك (قورش) الفارسى [1] بعيدة عما عرف من سيرة الإسكندر الأكبر المقدونى ، وهو لذلك يرى أن المقصود بذى القرنين فى السؤال والجواب الواردين فى الآيات إنما هو : (قورش) وليس (الإسكندر) .

إن المفسرين مجمعون على أن السؤال الذى وجه إلى النبى صلى الله عليه وسلم إنما كان بإيعاز من اليهود . وطبيعى أن اليهود لم يسألوا مثل هذا السؤال إلا إذا كان لديهم علم بما وراءه من أخبار آبائهم الأقدمين ، والمعروف أن اليهود يكتمون ما يعرفون من الحق : « وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون » [1] ، « وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا : آمنا ، وإذا خلا بعضهم - ممن يذيعون شيئا مما فى كتبهم - إلى بعض قالوا : أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم ؟ » [2] .

ومما يدل على أن اليهود السائلين كانت لديهم فكرة عن الموضوع ، أنهم هم الذين ذكروا اسم ذى القرنين من الإشارات الواردة فى أسفارهم كما سنرى ، وكانوا يعرفون أن العرب يجهلون هذه الشخصية إذ لم يقرءوا عنها فى كتاب ، ولا يعنيهم من أمرها شىء ، فسؤالهم النبى عليه الصلاة والسلام يعتبر فى نظرهم تعجيزاً ، إلا أن يكون حقاً يأتيه وحى من السماء ، فيبين لهم ما طلبوا . ولذلك روى أنهم قالوا لقريش : اسألوا صاحبكم عن ثلاثة أشياء : أصحاب الكهف ، وذى القرنين ، والروح . فإن أجاب عنها جميعا ، أو سكت عنها جميعا ، فليس بنبى ، وإن أجاب عن بعض وسكت عن بعض فهو نبى ، وكان أن أجاب الوحى عن القصتين وسكت عن الروح ، وهى أيضا مبهمة فى التوراة ، فكان فى ذلك إفحام لليهود.

لخص الأستاذ آزاد مذاهب المفسرين فى شخصية ذى القرنين ، وحيرتهم فى الاهتداء إليه ، فذكر أن الصدر الأول منهم اتجهوا

(١) مؤسس الدولة الفارسية فى القرن السادس قبل الميلاد .

(١) البقرة ١٤٦ .

(٢) البقرة ٧٦ .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

فى بحثهم عما إذا كان ملكا أو نبيا أو من البشر ، وهل عاصر إبراهيم عليه السلام أو كان بعده ، ثم اتجهت الأذهان بعد ذلك إلى أنه قد يكون من ملوك اليمن قياسا على وجود لقب « ذو » فى ملوكهم ... غير أن هذا الاتجاه لم يؤدى إلى نتيجة ، إذ ليس فى سيرة أحد من ملوك اليمن ما يشبه أوصاف ذى القرنين كما وردت فى القرآن الكريم . ثم خرج من ذلك إلى أن أبحاث المفسرين لم تؤد إلى نتيجة حاسمة لأنها لم تتجه الاتجاه السديد ، ولو أنهم اتجهوا إلى البحث فى أسفار اليهود لفازوا بالحقيقة .

ومن ثم فقد ركز الأستاذ بحثه أولا على أسفار التوراة ، وأول ما عثر عليه فى ذلك رؤيا النبى دانيال (١) التى رآها إبان أسر اليهود ببابل بعد أن خرب بختنصر بيت المقدس وطردهم منه . وخلاصة هذه الرؤيا أنه رأى فى منامه كبشا قويا له قرنان عاليان ينطح بهما شرقا وغربا ، ثم رأى تيسا أقبل من القرب بقرن واحد بارز بين عينيه ، فاقترب من الكبش فكسر قرنيه وصرعه ، ثم ذكر السفر أن جبريل قد فسر لدانيال رؤياه : بأن الكبش ذا القرنين يمثل اتحاد المملكتين : ميديا وفارس ، فيملكهما ملك واحد لا تقدر دولة على مواجهته ، أما التيس ذو القرن الواحد فإنه يدل على ملك اليونان .

والذى حدث بعد هذه الرؤيا بفترة من الزمن أن ظهر الملك قورش فوحد ميديا وفارس اللتين مثلتا فى الرؤيا بقرنين ، ومثلت شخصية ملكهما بكبش ذى قرنين ، ثم كان زوال أسرة « هخامنشى » التى كان منها قورش بهزيمة آخر ملوكها (دارا بوسند) على يد الإسكندر الأكبر الذى مثل فى الرؤيا بتيس ذى قرن واحد آيات من الغرب .

وفى سفر يشعياه نبوءة أخرى عن ظهور ملك قوى قد صرح فيها باسم (قورش) الذى يكون عليه فك أسر اليهود ... وفى سفر يرمياه إشارة إلى ما حدث لليهود من أسر وإفراج ... وخلاصة هذه الإشارات تدل على أن تصور (قورش) كان قد وجد عند اليهود : فقد مثل فى سفر دانيال بكبش ذى قرنين ، وذكر اسمه فى نبوءات يشعياه ، وأشار إليه يرمياه . ثم جاء فى سفر عزرا أن رؤساء اليهود قد عرضوا نبوءات سالفيهم على الملك (قورش) عندما ظهر ففرح بها وأصدر أمره بتجديد الهيكل .

ومهما قيل فى صحة هذه الأسفار أو التشكيك

(١) سفر النبى دانيال .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

فيها ، فإن ما ورد فيها يدل على عقيدة اليهود الدينية والقومية فى شأن (قورش) .

وقد جاء فى رواية للسدى أن اليهود قالوا : إن ذا القرنين ذكر مرة واحدة فى التوراة ، وهذا هو الواقع إذ لم يرد بهذا الإسم إلا فى سفر دانيال . ولفظ « قرن » مشترك بين العربية والعبرية .

وبناء على كل ما تقدم يكون المقصود فى سؤال اليهود عن ذى القرنين هو : قورش لا غير .

اطمأن الباحث إلى هذه النتيجة من مراجعة أسفار اليهود الذين وجه أحفادهم السؤال إلى النبى صلى الله عليه وسلم . ومما زاد فى اطمئنانه ذلك الكشف الأثرى الهام الذى عثر عليه علماء الآثار خلال القرن التاسع عشر ألا وهو تمثال حجرى يمثل شخص (قورش) أقيم على شاطىء نهر (مرغاب) على بعد خمسين ميلا من مدينة (استخر) عاصمة الفرس القديمة . وهذا التمثال صورة لقورش مطابقة لوصفه فى سفر دنيال ويشعياه : على رأسه قرنان أحدهما وراء الآخر كما ذكر دانيال ، وعلى جانبيه جناحان كجناحى العقاب كما ذكر يشعياه ، وهذا يدل دلالة قاطعة على أن تصور « ذى القرنين » كان قد تولد لقورش .

وتأكد بذلك لدى الأستاذ آزاد ما وصل إليه فقال : « لما تمكنت من مشاهدة آثار إيران العتيقة ، ومن مطالعة مصنفات علماء الآثار فيها ، زال الحجاب ، وظهر كشف أثرى قضى على سائر الشكوك ، فتقرر لدى بلا ريب أن المقصود من « ذى القرنين ليس إلا قورش نفسه ، فلا حاجة بعد ذلك أن نبحث عن شخص غيره »

اتجه الباحث بعد ذلك إلى دراسة سيرة (قورش) معتمدا على روايات مؤرخى اليونان لأنها أدق من الروايات الفارسية ، وقد وجد فيها تفصيلات دقيقة لا تتعارض مع أوصافه كما جاءت فى القرآن الكريم .

وبعد أن عرض ما تقدم من مسألة لقب ذى القرنين وسيرة حياته ، قال : « وبقى الآن أن نرى : هل الحلة التى نصلها له القرآن توافقه أم لا ؟ وسنرى أنها توافقه كل الموافقة » .

ثم أخذ يوازن بين ما جاء فى وصف القرآن له من الإيمان بالله واليوم الآخر ، والعدالة ، والرحمة ، وعدم حرصه على جمع المال وبين ما جاء عن ذلك فى سيرته التاريخية نوجده يتمشى معه تماما .

أما عن مهماته الحربية التى ذكرها القرآن فهى ثلاثة :

الأولى : كانت إلى جهة (مغرب الشمس) وطبيعى أن المراد جهة الغرب لا مكان

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الغروب الحقيقى إذ لا يوجد مكان كهذا ، وقد فسر ذلك فى سيرته بحروبه مع الليديين فى آسيا الصغرى ، وانتصاره عليهم ، وعدم انتقامه من خصومه بعد أن انتصر عليهم ، وإن من يقف على شاطئ آسيا الصغرى الغربى وقت الغروب حيث الخلجان الضيقة يخيل إليه أن الشمس تغرب فى عين حمئة ، إذ لا يبعد أن يكون هناك كدر من تفتت صخور الشاطىء يجعل الماء كدرا فيكون الوصف مطابقا .

والمهمة الثانية كانت إلى (مطلع الشمس) أى إلى جهة الشرق ، فبعد أن فتح ليديا اتجه إلى قبائل رحل عند بلخ (بلوخستان) كانت قد حاولت الغارة على حدود بلاده الشرقية فأخضعهم ، ولما كانوا قبائل رحلا لا يسكنون بيوتا فقد وصفهم القرآن بقوله لم نجعل لهم من دونها ـ الشمس ـ سترا ،

والمهمة الثالثة كانت إلى الشمال حيث يوجد مضيق بين سلاسل جبال القوقاز الممتدة بين بحر الخزر والبحر الأسود ، وكانت تغير من هذا المضيق أقوام همج من آسيا يعيثون فى الأرض فسادا ، فاستنجد أهل البلاد الواقعة جنوب المضيق بقورش ليحميهم ، فبنى سدا منيعا فى هذا المضيق منع تلك الهجمات والغارات ، ولما كان أهل هذه المناطق ليسوا على شىء من التحضر فقد وصفهم القرآن بقوله : «لا يكادون يفقهون قولا » .

وبعد : فهذا ما اتسع له المقال لعرض هذا الموضوع الجدير بالدراسة ، وقد وجدت فى بحث الأستاذ آزاد عمقا فى المادة ، ودقة فى العرض وأرجو أن يكون ما وصل إليه فى بحثه من نتيجة هو الصواب .

وكنت أود أن ينشر ذلك البحث كاملا على صفحات مجلة الأزهر الغراء ، ويا حبذا لو يحدث تبادل بين كبريات المجلات العربية فى سائر الأقطار الإسلامية ، ففى كل منها علماء يحاثون ، وأعتقد أن فى تبادل المقالات التى تدور حول بحوث علمية دقيقة ـ خيرا كثيرا ، ونشرا لمناهج البحث الحديثة .

والله الموفق للصواب ؟

دكتور سعد الدين الجبراوى

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

من دعائم بناء المجتمع :

تكوين الضمير الديني عند الفرد والجماعة

للدكتور عبد العظيم شرف الدين

حقا ، إن تربية الضمير الديني مبدأ أساسي لجماعة تريد أن تحيا حياة مستقرة ، وأن تقدم للإنسانية التي تنتمي إليها من الخدمات الجليلة ما يرقى بشئونها ، وينهض بأبنائها ، فإذا نما الضمير الديني عند الفرد حاسب نفسه على كل ما يأتي وما يدع من الأقوال والأفعال ، وحكم عقله ودينه في سلوكه ، فلا يقدم على عمل ما إلا بعد تفكير وروية ، فإن وجد في هذا العمل خيرا له ولبني وطنه وللإنسانية التي ينتمي إليها أقدم على هذا العمل وتفانى فيه ، وبذل في سبيله كل ما يستطيع ، لا يدخر وسعا في النهوض بما نيط به من الأعمال .

وكذلك إذا نما هذا الضمير الديني عند الجماعة وجدت جماعة يسود التعاون بين أفرادها على ما هم بسبيله من خدمة الجماعة التي ينتسبون إليها ، وأصبحوا يصدرون جميعا في سائر تصرفاتهم عن ضمير حي يقظ ، فهم يخشون العواقب ، ويفكرون في النتائج ويدرسون مشكلاتهم دراسة هادئة واعية ، هدفها تحقيق الخير للجماعة ، والبعد بها عن مواطن الزلل والانحراف .

وللضمير الديني عند الفرد والجماعة سلطان قوي وأثر فعال . بل إن سلطان الضمير أقوى من سلطان القانون ، فالضمير حاضر لا يغيب ، أما القوانين فقد جبلت النفوس على الخروج عليها لأنها مفروضة عليها من سلطة خارجة عنها ، ومن أجل هذا كانت القوانين المتسمة بالإقناع والحجة أكثر تقبلا من المكلفين بها . أما الضمير فهو سلطة ذاتية نابعة من داخل الفرد نفسه تهيمن على شئونه وتشرف على تصرفاته ، وكم من المجرمين يرتكبون جرائمهم مخالفين القوانين في غفلة العيون والرقباء ، ولو كانت عندهم ضمائر حية لما وقعوا فيما اقترفوه من جرائم ، وما أتوه من موبقات ، فالضمير الديني مع الفرد والجماعة في كل حين ، وكلما نما لدى الفرد والجماعة ازداد سلطانه وقوي أثره ، ومن يقع في جريمة ما في غفلة من غفلات الضمير فإن ضميره الحي قد يستيقظ فيحاسبه حسابا عسيرا ، وإن وخز الضمير أشد إيلاما من وقع السيف ، وهناك حوادث عديدة وقع فيها كثير من الناس تحت وطأة ضمائرهم ،

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وأصابتهم أزمة نفسية فهبوا بعد ارتكابهم جرائمهم ، يحاولون التخلص من الحياة أو الاعتراف بما ارتكبوا من جرائم دون أن يراهم أحد تخلصا مما اعتراهم من أزمة نفسية وصراع مستحكم ، وإن تخلصهم من الحياة ليس علاجا للموقف وإنما هو هروب من مجابهة المشكلة وضعف عن علاج الموقف وما هذا كله إلا من وحى الضمير حينما يستيقظ فيستولى على نفس صاحبه ، ويدفعه دفعا قويا إلى اتخاذ هذا الموقف تخليصا للإنسان من عذاب دائم وألم مستحكم .

لهذا ندب القرآن الكريم المؤمنين إلى تقوى الله ، وناداهم بوصف الإيمان ليحملهم حملا قويا على تنفيذ ما ندبهم إليه من تقوى الله فقال : « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ، ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون » وذلك لأن الإيمان بالله إيمانا صادقا من شأنه أن يدعو المؤمن إلى مراقبة الله والخوف من عقابه ، فالمؤمن الصادق الإيمان يعتقد فى قرارة نفسه أن الله مطلع على كل تصرفاته ، وهذا الإيمان يستولى على مشاعره ووجدانه ، ويملك عليه أقطار نفسه فلا يستطيع أن يتحول عن الحق لحظة من اللحظات ، وقد أدرك المؤمنون الصادقون هذا المعنى ، فكانوا منفذين لقول الرسول عليه السلام لمن سأله : « ما الإحسان ؟ قال . أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

وتقوى الله حق تقاته أن يطاع فلا يعصى ، وأن يذكر فلا ينسى ، وأن يشكر فلا يكفر . وينبغى ألا يتبادر إلى أذهان بعض الناس أن هذه الآية تكلف الناس مالا يستطيعون ، وذلك لأن قوله تعالى : « فاتقوا الله ما استطعتم » قد بين المراد من هذه الآية ، ولو كان تقوى الله حق تقاته أمرا لا يستطيع الناس تحصيله أو أمرا يشق عليهم مشقة لا تحتمل لما كلفهم الله تقواه حق تقاته ؛ إذ التكليف بما لا يستطاع عبث ، والله سبحانه منزه عن مثله ، هذا إلى جانب ما يحدثه هذا اللون من التكاليف فى النفوس من تبرم وعدم رضوخ للأوامر والنواهى ، بل إن القوانين الوضعية تعمل جاهدة على أن تتخلص من هذا الضرب من التكاليف التى ترهق الناس ، وإلا أدت بهم إلى العجز عنها والخروج عليها ، فهل يعقل أن يرد مثل هذا فى قانون وضعه الله الخبير بالنفوس وأدوائها وطرق علاجها ؟ ! .

وقد دعا القرآن الكريم فى غير موضع إلى تقوى الله :

فتارة يخاطب المؤمنين بهذا لأن مقتضى الإيمان بالله أن يتقى المؤمن ربه فى السر والعلن واضعا نصب عينيه قوله تعالى : « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ،

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

ولا خمسة إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا (١) » ، وأخرى يذكر الناس بنعمته عليهم إذ خلقهم جميعا من نفس واحدة : « يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا (٢) » ، وتارة يذكر الناس بيوم القيامة وأهواله التى تشيب الولدان ، وتذهل الإنسان عن أهله وبنيه « لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه » (٣) ومن هذا قوله تعالى : « يأيها الناس اتقوا ربكم . إن زلزلة الساعة شىء عظيم ، يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى ، وما هم بسكارى ، ولكن عذاب الله شديد (٤) » .

وقوله تعالى : « يأيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزى والد عن ولده ، ولا مولود هو جاز عن والده شيئا ؛ إن وعد الله حق ، فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور (٥) » .

(١) المجادله : ١ .
(٢) النساء : ٢ .
(٣) عبس : ٣٧ .
(٤) الحج : ١ ، ٢ .
(٥) لقمان : ٣٣ .

وأخرى يذكر المؤمنين بنعمه عليهم وهى لا تعد ولا تحصى كقوله تعالى : « فاتقوا الله وأطيعون . واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون . أمدكم بأنعام وبنين . وجنات وعيون » (١) .

فى هذه المواطن كلها تجد القرآن الكريم يهيب بالمؤمنين أن يتقوا الله ، ويراقبوه فى السر والعلن ، وتمشيا مع منهج القرآن الكريم فى إعداد النفوس لتقبل الأوامر واجتناب النواهى تجده يعد نفوس المكلفين إعدادا قويا لتقبل ما ندبهم إليهم من تقوى الله ممتنا عليهم تارة بنعمة الخلق من العدم وهذه تعد نعمة كبرى بل هى أجل النعم ، ومنذرهم أخرى بيوم القيامة وما فيه من أهوال ؛ وذلك لأن النفس الإنسانية تحتاج إلى الإنذار والتبصير بالعواقب بقدر حاجتها إلى الملاينة والترغيب ، وأحيانا تجد القرآن الكريم يأمر بالتقوى مع لفت الأنظار إلى ما أنعم الله على الناس من نعم تستدعى الشكر وعرفان الجميل ، والشكر وعرفان الجميل من صفات الإنسانية الكاملة الفاضلة : « لئن شكرتم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم إن عذابى لشديد » .

ونظراً لأهمية التقوى فى تحديد علاقة المرء بربه . وعلاقته ببنى جنسه نرى الأنبياء جميعا قد التقوا على هذا المبدأ ، فما من نبى إلا

(١) الشعراء : ١٣١ ، ١٣٢ .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

ودعا قومه إلى تقوى الله ، وفى القرآن الكريم آيات تؤيد هذا الذى قررناه :

كقوله تعالى : « وإلى عاد أخاهم هودا قال : ياقوم اعبدوا الله ، ما لكم من إله غيره أفلا تتقون »[1] واقرأ معى قول الله تعالى : « كذبت عاد المرسلين ، إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون . إنى لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر ، إن أجرى إلا على رب العالمين »[2] . تجد إلى أى مدى حرص هود على دعوى قومه إلى التقوى ، فقد بدأ حديثه معهم بدعوتهم إلى تقوى الله ، ثم بين لهم أنه رسول أمين فى تبليغ الرسالة ، ثم عاد ثانيا إلى دعوتهم إلى تقوى الله وطاعة رسوله فيما يبلغهم عن الله وهو لا يبغى منهم جزاء ، وإنما يبغى الجزاء من الله .

وعلى هذا النسق صور القرآن الكريم موقف صالح من قومه : « كذبت ثمود المرسلين . إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون . إنى لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين »[3] .

فليس عجيبا بعد هذا كله أن نجد القرآن الكريم يحرص على غرس التقوى فى النفوس وقد صور هذا الحرص قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله ، ولتنظر نفس ما قدمت لغد ، واتقوا الله ، إن الله خبير بما تعملون »[4] .

فالآية تدعو إلى تقوى الله أولا ، ثم إلى محاسبة النفس ، ثم تدعو إلى الأمر بتقوى الله ثانيا ؛ فالله خبير بما يقوم به عباده من أعمال وهذا كله من شأنه أن يربى فى النفوس المهابة لله ويخلق فيها عنصر المراقبة ومحاسبة النفس على ما يصدر منها ، وهذا إذا ألفته النفوس ومرنت عليه صار طبيعة من طبائعها التى تصدر منها دون تكلف ووجدت فيه لذة وراحة فأقبلت عليه وازدادت منه .

وقد صرح القرآن الكريم بأن سنة الله قد جرت على أن يرسل ملائكته إلى من اصطافهم من عباده لينذروا الناس ، ويبينوا لهم أن الله واحد يجب الإيمان به وحده ، كما تجب تقواه ، ولكى يحمل النفوس على الإيمان به وعلى تقواه حق تقاته ذكر الناس بيوم القيامة وما فيه من أهوال ثم امتن عليهم بنعمه : فهو سبحانه لم يتركهم إلى عقولهم ، وإلا اضطرب أمرهم ، بل أرسل إليهم رسلا مبشرين ومنذرين ، وإلى جانب هذا فقد خلق السماوات والأرض بالحق ، وخلق الإنسان فى أحسن تقويم ، وأمده بأسباب

(١) الأعراف ٦٥ .
(٢) الشعراء : ١٢٣ ـ ١٢٧ .
(٣) الشعراء : ١٤١ ـ ١٤٥ .
(٤) الحشر : ١٨ .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

البقاء فى هذه الحياة ، وسخر له مافى السماوات وما فى الأرض ليعمر الكون ويتنفع الإنسان بما فيه مما خلقه الله له ، أقرأ معى قوله تعالى: « أتى أمر الله فلا تستعجلوه ، سبحانه وتعالى عما يشركون . ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون. خلق السموات والأرض بالحق تعالى عما يشركون . خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين . والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون . وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ، إن ربكم لرءوف رحيم . والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون »[1] .

مما تقدم يظهر لنا السر فى عناية القرآن الكريم بالدعوة إلى التقوى ، فالتقوى صمام الأمان ، ومن اتقى الله نأى بنفسه عن الدنايا وراقب الله فى كل تصرفاته . وما أحوج الأمم إلى أبناء عاملين ينمو فيهم الشعور بالمسئولية والخوف من الله ، حتى صار لكل منهم من نفسه على نفسه رقيب ، من أجل هذا عمل القرآن الكريم على تركيز هذا المعنى فى نفوس المؤمنين ، وتنمى فيهم الشعور بالمهابة والخوف من الله ، وبهذا نجح فى إعداد أمة مسلمة أبناؤها متفانون فيما هم بسبيله من الدعوة إلى الله وإرساء دعائم الدين الجديد وسط بيئة سيطر عليها الشرك واستولت الوثنية على أبنائها منذ زمن بعيد .

حقا لقد كان العبء ثقيلا على المسلمين فى كل أدوار حياتهم وبصفة خاصة حينما هاجروا إلى المدينة ، وقد وجد المسلمون أنفسهم مضطرين إلى أن يلتقوا مع المشركين فى معارك دامية كان النصر فيها سجالا بين الفريقين ، ولولا أن كل جندى كان يحمل بين جنبيه قلبا يتقى الله ويخشاه لما صبرت الجيوش الإسلامية على حرارة المعارك التى دارت رحاها بينهم وبين أعدائهم ، ولتغير وجه التاريخ . ولكن كيف يتأتى هذا من قوم ضربوا الأمثلة الرفيعة فى البذل والتضحية والفداء . وكان همهم أن تنتصر مبادئهم وتسود أهدافهم وهى مبادئ الحق والعدل والفضيلة وهى المثل العليا التى أرادها رب الناس للناس.

وصفوة القول أن الضمير الدينى هو القوة الدافعة ، التى تدفع كل إنسان إلى العمل الجاد والتفانى فيه ، وإن حاجة الجندى فى المعركة إلى الضمير الدينى أشد من حاجته إلى السلاح وكم من جنود باعوا أوطانهم بثمن بخس لقلة ضمائرهم وانعدام روح التضحية والبذل من نفوسهم . والله الموفق ؟

دكتور عبد العظيم شرف الدين

---

(١) النحل ١ ـ ٨ .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

حصانات السفراء في الإسلام

للأستاذ حسن فتح الباب

— ٢ —

خلعت الدولة الإسلامية على السفراء الأجانب من الحقوق والمزايا ما فاقت به سائر الدول التي انتظمها المجتمع الدولي في ذلك الحين . وكانت تلك المعاملة المثلى انعكاساً لوعيها السياسي الناضج بما تحققه الدبلوماسية الرشيدة من إقرار حسن الجوار بين الأمم والشعوب وما ينجم عن ذلك من استتباب السلام في العالم وكفالة الأمن والاستقرار للبشر أجمعين . وتلك عليا الغايات التي جاء الإسلام مبشراً بها داعياً إليها حاثاً أبناءه على بلوغها .

في ظل السلام الدولي وصفاء العلاقات بين الجماعات الإنسانية يأمن الناس جميعاً على حياتهم وأرزاقهم وحرياتهم فتتاح لهم فسحة من الزمن للتفكير والتأمل في خلق السموات والأرض والنظر في الديانات السماوية فيهتدون إلى دين الله الحق ويدخلون فيه أفواجا لا تصرفهم عن ذلك شواغل الصراع بين الأفراد والجماعات في سبيل الاستكثار بالمغانم وتحقيق المصالح الشخصية ولا تصدهم عنه ويلات الحرب والدمار .

وثمة مقصد آخر للدولة الإسلامية سعت في سبيل تحقيقه إلى توثيق علاقاتها الودية بجيرانها وما تطلبه ذلك من رعاية السفراء وإكبارهم ونعنى به حرص الخلفاء والحكام المسلمين على دعم الجبهة الداخلية في النواحي التجارية والثقافية من طريق التبادل الاقتصادي والعلمي مع الدول المجاورة . وحسبنا أن نذكر في هذا الصدد إزدهار الحركة الفكرية في عهد العباسيين في بغداد والأمويين في الأندلس بفضل السفارات الثقافية المتبادلة بينهم وبين البيزنطيين والفرنجة في أوربا . فلا غرو أن يلقى المبعوثون الأجانب في الديار الإسلامية أكرم معاملة وأن ينزلوا أطيب منزل ولاسيما إذا ذكرنا ما يسفر عن هذا التقدير من حسن استجابة لدى الجانب الآخر فيجد السفراء المسلمون في القسطنطينية حاضرة الأباطرة البيزنطيين وإكس لاشابل عاصمة الفرنجة وغيرهما من العواصم الأجنبية مثل هذه المعاملة الكريمة أينما قاموا أو ارتحلوا

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وفضلا عن ذلك ، فإن المنافسة السلمية التي كانت تسود العلاقات السياسية بين العالمين المسيحي والإسلامي في الصدر الأول من العصر الوسيط كان من ظواهرها المميزة تسابقهما في إظهار العظمة وأبهة الملك والتمسك بقواعد السلوك الدولي الحميد ومآثر الحضارة ، ومن آيات ذلك حسن استقبال السفراء وإكرام وفادتهم وشمولهم بمختلف الامتيازات والصيانات .

ولئن كانت الحوافز السياسية التي ذكرناها قد اقتضت منح السفراء الأجانب في الدولة الإسلامية حقوقا وإعفاءات قاصرة عليهم ، فلا يخفى أن هذا المنح يتفق مع الأحكام الشرعية الإسلامية بل هو منبثق منها ومردود إليها . فالإسلام يأمر بالعرف ويدعو إلى رعاية الذميين وهم أصحاب الديانات السماوية من اليهود والنصارى . وقد قسم الفقهاء المعمورة بحيث تضم ثلاثة أقسام : دار الإسلام وهي البلاد التي تظهر فيها شعائر الإسلام وتسري أحكامه . ودار الحرب وهي البلاد التي لم يغلب أهلها على الإسلام ولا تسري فيها أحكامه . ودار الصلح كما أسماها وخصصها الإمام الشافعي رضي الله عنه . ويعني الأخذ بمضمون هذه النظرية الإسلامية العامة جواز قيام علاقات ودية وعهدية مؤقتة بين الدولة الإسلامية وغيرها من الدول ، مالم تتمكن دار الإسلام من الظهور عليها وعرضت تلك الدول عليها الصلح ، وذلك على أساس احترام مايقوم بينهما من اتفاقات ومعاهدات وإيقاف الحرب وإقرار التعايش السلمي بين الكتلتين المتنابذتين : دار الإسلام ودار الحرب .

ومن مقتضيات إقامة تلك العلاقات العهدية الأخذ بمبدأ منح السفراء الحقوق والامتيازات التي استقرت عليها التقاليد الدولية .

وهكذا منحت الأحكام الشرعية الإسلامية السفراء على اختلاف أديانهم وأجناسهم حصانة وسلاما كاملين في دار الإسلام . وإذا أمعنا النظر فيما نصت عليه هذه الأحكام في موضوع الحصانات الدبلوماسية وجدناها تساير أحدث مبادئ القانون الدولي المعترف بها في عالم اليوم .

ونلاحظ في هذا المقام أن الفقهاء المسلمين قد أخذوا بأحدث نظرية تستند إليها الحصانات ونعني بها نظرية الوظيفة . فكانت السند القانوني لتخويل السفراء الأجانب هذه الحصانات هو تمكينهم من تأدية مهامهم طوال إقامتهم في ديار المسلمين على أتم وجه وأفضله . ولقد أكد الإمام محمد بن الحسن الشيباني في شرح السرخسي على السير الكبير أهمية منح الحصانة الدبلوماسية للسفير بسبب وظيفته ، كرسول يجب أن يمكن من النهوض بوظيفته على الوجه المطلوب .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وقد حرصت الدولة الإسلامية على تمتيع السفراء بكافة أنواع الحصانات وشمولها جميع أفراد حاشية السفير حتى خدمهم وعبيدهم فبسطت حصانتها عليهم جميعا واعتبرت أية إهانة تلحق بأحدهم إهانة موجهة إلى شخص السفير . وهذا على خلاف ما نص عليه القانون الدبلوماسى الحديث من قصر الحصانات على من تتوافر فيهم صفة التمثيل الدبلوماسى أو بتعبير آخر من يقومون بعمل دبلوماسى ، ذلك أنه لا يجوز التوسع فى الامتيازات الدبلوماسية نظرا لأنها استثناء من مبدأ المساواة بين الأشخاص . والممثلون السياسيون هم رؤساء الهيئات الدبلوماسية ومعاونوهم الرسميون من مستشارى السفارة وأمناء سرها والملحقين على اختلاف فئاتهم وقد جرى العرف على تسمية هؤلاء الدبلوماسيين بالحاشية الرسمية وتحمى الامتيازات أيضا أسر هؤلاء الدبلوماسيين أى زوجاتهم وأبناءهم القصر الذين يقيمون معهم فى دورهم . أما الحاشية غير الرسمية مثل أمين المحفوظات والكتبة والخدم فلا تمتد اليهم الامتيازات إلا من باب المجاملة ، وتختلف الامتيازات التى تسبغ عليهم باختلاف الدول ويسير أغلبها على سياسة الانتقاص من تلك الامتيازات وعدم التسامح فيها نظرا لتزايد أفراد الحاشية غير الرسمية ولأن الامتيازات تتعلق بالوظيفة لا بالشخص .

وتبين مما تقدم مدى التسامح الذى تتسم به الدبلوماسية الإسلامية حتى لقد بسطت حمايتها على خدم السفير وعبيده وهو مالم تبلغه أشد الدول توسعا فى منح الامتيازات ، ولاسيما إذا ذكرنا ماسجله التاريخ من زيادة أعضاء بعض البعثات الدبلوماسية فى العصور الإسلامية حتى أربى عددهم أحيانا على المائة تبعا لأهمية السفاره وعلو قدر السفير رئيس البعثة ورئيس دولته .

وكانت رعاية السفراء وحمايتهم تبدأ منذ اللحظة التى يبلغون فيها أرض الإسلام حتى ساعة مغادرتهم لها بعد إنجازهم مهمتهم . فكان الخليفة أو السلطان يرسل مندوبيه إلى حدود الدولة الإسلامية ليستقبلوا الممثلين الدبلوماسيين ويصطحبوهم إلى عاصمته . ويندر أن ترفض الدولة قدوم أحد السفراء ، بل لا يكون ذلك إلى فى وقت وجود حالة غير طبيعية كحالة الحرب بين الدولتين .

وقد عنيت الدولة الإسلامية أشد العناية بقواعد استقبال السفراء ومراسم الحفاوة بهم إجلالا لشأنهم واحتراما لصفتهم . وكانت هذه المراسم تبدأ باستقبال السفراء فى أطراف الدولة ، حيث « ينزلون فى مساكن تليق بهم ويجرى عليهم من النفقات والأطعمة مايرغد به عيشهم . وكذلك يقام لهم بوظيفة المراكب حسبما تدعو الحاجة إليه ... وإن كانت الطرق والمسالك تحتاج إلى خفراء كان أجود أن يسير معهم الخفراء والدلاء » .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وعندما يقترب ركب السفير من حاضرة الدولة الإسلامية ، تعد الاستقبالات الفخمة وتقام الزينات ويجتمع الناس على جوانب الطرقات التى سيسلكها إلى دار الضيافة : ويترك فى دار الضيافة ثلاثة أيام ، ولا يمكن أحد من الاجتماع به ، ثم يستدعى وقد رتبت دار الملك فى ذلك اليوم وتجتمع العساكر والجند ، ويجلس الملك على سرير الملك فى أحسن أبهة وزى ، وتصطف السلحدارية حوله بالسيوف ، ثم يمد السماط وتأكل الناس أكل خدمة لا أكل نهمة وأركان الدولة جلوس على قدر مراتبهم ، ويدخل الرسول والحاجب معه والمهمدارية تتقدمه . فإذا وصل بحيث يلمحه الملك يخدم (يؤدى التحية حسب المراسم المتبعة) الرسول ثم يتقدم إلى وسط الدار ، ثم يتقدم إلى المكان الذى يليق به لمخاطبة الملك ، فيخدم ويقف الحجاب والتراجم حوله ، فيبلغ سلام مرسله ويخدم عنه الخدم اللائقة بهما . فيقابل الملك تلك التحية بما يليق بها من الجواب بالقيام والخدمة أو القيام حسب ما يقتضيه حال المرسل والمرسل إليه . ثم يخرج الكتب التى معه فيضعها على وجهه وعينيه ثم يطرحها بين يدى الملك ، فإن أراد الملك إكرام صاحبها فليقم لتناولها ، وليشر بالخدمة عند قضها وقراءة اسم مرسلها . ثم لا يلبث قليلا حتى يشير إليه الملك بالجلوس فيتأخر ويجلس حيث يجلسه الحاجب أو أمير المجلس . . . فإن سأله الملك عن شىء من أحوال مرسله أجاب عنه بما ليس فيه سر ولا كتمان ، ويترك ما عنده من المشافهة والأسرار إلى مجلس الخلوة ... ثم يشير إلى حاجبه بانصرافه إلى دار الضيافة للاستراحة ، وإن كان معه هدية فليخاطب الحاجب عنه الملك أن الملك الفلانى قد بعث هدية يلتمس قبولها : فيشير الملك بحضورها ، وهى محصلة عند أقرب الأبواب ، فتعرض عليه بما فيها من دواب وجوارح وثياب ، مع ثبت يتضمن ذلك إلا الجوارى ، فلا تعرض ، بل يمضى بها إلى دار الحريم بعد استئذانه مع الخدام ، والقهرمانة تعرض ذلك ... » .

فإذا انفض هذا الحفل وأقام السفير وحاشيته فى الديار الإسلامية ظلوا أعزاء على أهلها فى رعاية الخليفة رئيس الدولة فصينت حرمتهم الشخصية وتمتعوا بهذه الحصانة كاملة غير منقوصة ، شاملة سلامة الشخص وأمنه وحريته وعدم مصادرة أمواله .

وقد استثنى السفراء غير المسلمين من شروط الأمان الذى يمنح لغير المسلمين فى أثناء وجودهم فى دار الإسلام ، فلا يشترط لبقاء السفير مدة سنة واحدة ، بحيث إن زادت يوما واحدا اعتبر ذميا واكتسب جنسية

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الدولة الإسلامية ، بحق الإقليم ، كما كان شأن غير السفراء من غير المسلمين .

وقد أكدت النصوص الفقهية الإسلامية الحصانة الدبلوماسية كقول أبى يوسف فى كتاب الخراج : « إن الولاة إذا مالقوا رسولا يسألونه عن اسمه ، فإن قال أنا رسول الملك بعثنى إلى ملك العرب ، وهذا كتابه معى ، وما معى من الدواب والمتاع والرقيق هدية له ، فإنه يصدق ولا سبيل عليه ولا يتعرض له ولا لما معه من المتاع والسلاح والرقيق والمال ، وكذلك لو أن المسلمين أسروا مركبا فى البحر وقال نفر من ركابها : نحن رسل بعثنا الملك ، فلا يتعرض لهم » وبذلك شملت الحصانة الدبلوماسية السفراء الأجانب فى سفرهم برا وبحرا .

أما الحصانة فى المسائل الجنائية فقد احترمتها أيضا الدولة الإسلامية ، فيقول جمهور من الفقهاء: بأن الحصانة لا تنتهك حتى ولو ارتكب السفير جريمة زنا أو سرقة أو ما شابههما ، وحين نذكر الحد الذى يقام حسب الشريعة الإسلامية على الزانى والسارق ونقارنه بالعقوبة المقررة لهاتين الجريمتين فى القوانين الجنائية الحديثة وهوانها بالقياس إلى العقوبة الإسلامية ، ندرك مدى التسامح فى منح الحصانات والامتيازات الدبلوماسية للسفراء فى ظل الدولة الإسلامية ، إجلالا لشأنهم واحتراما لصفتهم وتمكينا لهم من القيام بأعباء وظيفتهم فى سهوله ويسر مهما ارتكبوا من جرم فادح وإثم كبير .

وإلى جانب الحرمة الشخصية والإعفاء من القضاء الجنائى ، أعفت الدولة الإسلامية السفراء من الضرائب التى فرضتها على الوافدين إليها ، والتى كان أهمها العشر والمكوس . وفى هذا يقول أبو يوسف « لا يؤخذ من الرسول الذى بعث به ملك الروم عشر » .

وكانت جميع أمتعة السفراء تعفى من الرسوم الجمركية عند قدومهم إلى ديار الإسلام ، وكان يسمح لهم بأن يخرجوا - لدى مغادرتهم لها بعد انقضاء مهمتهم - ما يشاءون من المتاع طالما كان ذلك لا يتعارض مع أمن الدولة ، فلا يؤذن لهم مثلا بنقل السلاح لاستخدامه فى دار الحرب ضد دار الإسلام .

وكان السفراء ، لاسيما سفراء بيزنطة ، يتمتعون بحرية القيام بالأعمال التجارية فى أثناء ممارستهم شئون الدبلوماسية ، وقد شجعهم على ذلك إعفاؤهم من كافة الضرائب والمكوس وتخويلهم من الأباطرة البيزنطيين الحق فى حمل بعض البضائع معهم وبيعها فى أسواق البلد الموفدين إليه سدادا لنفقات البعثة من

(البقية صفحة ٧٢١)

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

حتى شمل العلوم البحتة والعلوم التطبيقية والفنون الجميلة والفنون النافعة ، وتطرق علمهم إلى المعامل وآنية الاختبار وروائح الأحماض والبخار — وضروب الصناعات الثقيلة التي تمخر البحر أو تدب على الأرض أو يحارب بها الأعداء .

وكان لهم شرع وقانون يعصمهم من الخطأ ، ويردهم عن الخطل ، ويوضح لهم منازل الحق وهو الشرع الإسلامي والدين الحنيف ، والكتاب المبين الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

وقد استطاعوا بفضل تمسكهم بآداب هذا الدين العظيم ، وهذا الشرع السوي المستقيم ، أن يرسخوا أقدامهم — ويرهبوا أعداءهم — ويمدوا سلطانهم .

ولم يكن الدين حائلا بينهم وبين بلوغ هذه الغايات النبيلة أو الوصول إلى هذه الأهداف الكريمة — إنما كان عونا لهم على العلم وحافزا لهم على المعرفة ، فإذا العصي من الأمر يسهل وإذا القصي من الأمل يقرب — وإذا العسير من الخطب يهون .

وما أحوجنا اليوم — ونحن ننفض عن أبداننا — أثقال الماضي ونحطم قيود التقليد البغيض — أن نسترجع أمجاد آبائنا الأولين في هذه المعارف والعلوم حتى تكون لنا عبرة وأسوة حسنة ، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

جمال الدين الرماوي

(بقية المنشور على صفحة ٧١١)

أرباح التجارة حتى كانت تصدر إليهم أحيانا تعليمات تحثهم على ذلك . فكانوا — حسب التقاليد البيزنطية . يضمون العلاقات التجارية إلى جانب قيامهم بالمهام الدبلوماسية . فعند تولي امبراطور جديد عرش بيزنطة يوفد السفراء إلى شتى الدول الأجنبية — وفي مقدمتها الدولة الإسلامية — لإعلان ذلك ، حاملين في الوقت ذاته بعض البضائع لبيعها في الأسواق. من ذلك سفارة الامبراطور ليسابين إلى بلاط الإخشيد للسماح لسفراء الروم بالتجارة في القاهرة وقد لقي هذا المطلب موافقة إخشيد مصر (سنة ٣٢٤ هـ - ٩٢٦ م) .

وهكذا منحت الدولة الإسلامية السفراء الأجانب في ديارها من أنواع الحصانات والامتيازات ما يماثل نظائرها في أعظم الدول الحديثة تطورا في هذا المضمار . وفي ذلك ما ينهض أبلغ دليل على سماحة القواعد الشرعية في الإسلام في معاملة الأجانب ، ورسوخ قدم السياسة الإسلامية في محيط العلاقات الدولية ، وعراقتها في ميدان الفن الدبلوماسي ، وصدورها في هذا كله عن مبادئ العقيدة الخالدة في الدعوة إلى السلام العالمي ، واحترام العرف والقوانين الدولية الحميدة وإقرار التعاون والتآخي بين الناس جميعا . وصدق الله العظيم : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » .

رائد من فتح الباب

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

نحو منهج رشيد لتطوير الفقه الإسلامي :

بين شريعة الوحي وصناعة الفقه

للأستاذ فتحي عثمان

في القرآن والسنة أحكام اعتقادية ، وقصص إخبارية ، ووصايا أخلاقية ... وكل هذه تخرج عن نطاق الأحكام الشرعية بمعناها ...

فإذا ما استقرأنا آيات الأحكام وأحاديث الأحكام ، وجدناها تعرض لألوان متعددة من القواعد :

١ ـ أخلاقيات العدالة : وهنا تتجه النصوص إلى تربية ذوق تشريعي ومزاج فقهي دون تفصيل أو تحديد . وكل شريعة من الشرائع تحرص على هذا الأساس الأصيل من المبادئ العامة للعدالة ، ويتميز الإسلام بإرساء أخلاقيات التشريع على أساس من العقيدة الدينية مما يجعلها أعمق جذوراً ، وأوسع نطاقاً ، وأطول أمداً .

ومن هذا الباب قول الله تعالى : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، إن الله نعما يعظكم به ، إن الله كان سميعا بصيراً » . « يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ، إن يكن غنيا أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ، وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً » .

٢ ـ قواعد تشريعية مجملة : فإذا ما انتقلنا إلى دائرة التشريع بمعناه الأخص ، وجدنا بعض الأحكام الشرعية هي تقرير لمبادئ العدالة في مجالات العلاقات الإنسانية بصورة عامة ، وهذه القواعد أقرب إلى تكوين فلسفة تشريعية ، من تقديم أحكام تفصيلية مباشرة .

ومن هذا الباب قوله تعالى « يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم » . وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم : « لا ضرر ولا ضرار » .

٣ ـ أحكام تشريعية تفصيلية : وهنا نجد النصوص الشرعية تواجه حالات جزئية معينة بأحكام مفصلة ، ومن هذا الباب أحكام

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الشعائر التي يقصد بها محض التعبد ، وبعض الأحكام في بعض صور المعاملات .

وأبرز مثل في القرآن لهذا النوع في نطاق القانون المدني (الإثبات) آية التداين « يأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه ... » إلخ الآية ، وفي نطاق القانون الجنائي آيات الحدود : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما ... » ، « الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ... » . وتضم أحاديث الرسول أمثلة شتى لهذا النوع من الأحكام التفصيلية .

غير أن ما ورد في السنة من أحكام مفصلة للمعاملات ينبغي أن ينظر إليه بتدبر وتعمق « ومما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم ما سبيله الحاجة البشرية كالطعام ، والنوم ، والمشي . . . ومنها ما سبيله سبيل التجارب والعادة الشخصية أو الاجتماعية كالذي ورد في الزراعة والطب وهيئة اللباس . . . وما سبيله التدبير الإنساني أخذاً من الظروف الخاصة كطرق الحرب - وكل ما نقل من هذه الأنواع الثلاثة ليس شرعا .

« وما كان سبيله التشريع من السنة على أقسام : منها ما صدر على وجه التبليغ بوصف الرسالة كتبيان بمجمل القرآن أو تخصيص عموم ، أو تقييد مطلق ، أو تقرير عبادة ، أو تشريع حل وحرمة .. إلخ . وهذا تشريع عام إلى يوم القيامة . أما يصدر عن الرسول صلى الله عليه وسلم بوصف الإمامة والرياسة العامة للمسلمين - كإنفاذ الجيوش ، وإنفاق الأموال ، وإبرام العهود ، وتنصيب الولاة والقضاة فليس بتشريع عام ، ولا يجوز الإقدام عليه إلا بإذن الإمام . وما صدر عن الرسول صلى الله عليه وسلم بوصف القضاء له هذا الحكم نفسه ، فمن كان له حق على آخر ويجحده وله عليه بينة فليس له أن يأخذ حقه إلا بحكم الحاكم » . ويثير تحديد الوصف الذي ورد به الأثر النبوي خلافا بين الفقهاء بالطبع في بعض الأحيان . ومن ذلك حديث « من أحيا أرضاً ميتة فهي له » فإن جمهور الفقهاء يأخذونه كحكم شرعي عام ، بينما يذهب أبو حنيفة إلى صدوره باعتبار الإمامة ورياسة الدولة فقط . ومما كان محل خلاف أيضا حديث الرسول لهند بنت عتبة « خذي لك ولولدك ما يكفيك بالمعروف » وحديث : « من قتل قتيلا فله سلبه » [1] .

* * *

هذه هي قواعد « الشريعة » بمعناها العلمي الصحيح ...

وهذه الأحكام هي التي جاء بها الوحي ، وتلزم لها الطاعة على وجه الدوام .

(١) شلتوت : فقه القرآن والسنة ص ٣٧ - ٤٠ .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

و « الشريعة » فى هذا الضوء :

ـ أخلاقيات للعدالة ليست محل جدل فى أى عصر ولا عند أى فكر .

ـ وقواعد مجملة هى معين لا ينضب لثروة تشريعية متجددة وهى فى إجمالها محل اتفاق .

ـ وتبقى بعد ذلك الأحكام التفصيلية ، وهذه بدورها ـ فيما تتعلق بالأحكام المستمدة من السنة على الأقل مجال بحث ونظر لتميز الأحكام ـــ الشرعية العامة ، من الأحكام التى صدرت من الرسول بمحض الاجتهاد العقلى ، وقديما سأل الصحابى رسول الله حين أصدر أمره كقائد جيش بالنزول فى مكان معين : أهو منزل أنزلكه الله ، أم هو الرأى والحرب والمكيدة . فأجابه الرسول : بل هو الرأى والحرب والمكيدة ، فقال الرجل فى بساطة وأمانة وحكمة : ليس هذا بمنزل ! !

ـ ومع ذلك فلهـــذه الأحكام علتها المقصودة ، وقد قرر فقهاؤنا فى أصولهم « الحكم يدور مع علته وجوداً وعدما » ، ولهم مباحث جليلة فى « الاستحسان » بالعدول عن قياس جلى إلى قياس خفى لشاهد أولى بالاعتبار ، فضلا عن القاعدة العامة التى تقرر أن الضرورة ، تبيح المحظور .

ـ وتبقى بعد هذا مجالات واسعة لم ترد فيها أحكام مفصلة ، فهى إما مندرجة تحت القواعد الكلية المجملة العامة التى تقرر مبادئ العدالة ، وإما مندرجة فى حكم الإباحة الأصلية : « خلق لكم ما فى الأرض جميعا » . « وسخر لكم ما فى الأرض جميعاً منه » . ومن هنا كانت « المصلحة المرسلة » مصدراً فقهيا مثمراً ، وقد يقيد المباح من أجل المصلحة .

ومن هنا كان المجال فسيحاً أمام « صناعة الفقه » ...

. فقد كان فقهاؤنا يبتكرون أحكاما تشريعية كثيرة ، إعمالا للقواعد العامة المجملة ، وهى وإن كانت توضع وتصاغ بحيث تتضح مآخذها ومصادرها فى نصوص التشريع ، إلا أنها فى حقيقتها جهود عقلية إنسانية ، جاءت ثمرة لمزاج فقهى معين صاغته أخلاقيات الشريعة وفلسفتها التشريعية ممثلة فى قواعدها الكلية العامة .

. وكان فقهاؤنا يجدون فى فهم الأحكام التى وردت بها النصوص ، عن طريق تبين علة الحكم ـ بعد القطع بثبوت النص ، ودراسة ظروف التطبيق .

ومن هنا ينبغى أن نضع تراثنا من الفقه الإسلامى موضعه الصحيح ، ولا نخلط فيه بين الوحى المنزل ، والصناعة الفقهية

إن قسما كبيرا مما تحتويه مدونات الفقه الإسلامى ، صناعة عقلية ، وجهد إنسانى...

« الفقه الإسلامى هو فقه محض : لا تقل

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

عراقته فى ذلك عن عراقة القانون الرومانى...

وهو لا يقل عنه فى دقة المنطق ، وفى متانة الصياغة ، وفى القابلية للتطور ، وهو مثل صالح لأن يكون قانونا عالمياً بل كان بالفعل قانوناً عالميا - يوم امتدت دولة الإسلام من أقاصى البلاد الآسيوية إلى ضفاف المحيط الأطلسى . وكما أنبت القانون الرومانى بعد أن أحييت دراسته فى العصور الوسطى القوانين اللاتينية والقوانين الجرمانية الحديثة - وهى القوانين التى تعيش أوربا اليوم فى ظلها ، كذلك الفقه الإسلامى إذا أحييت دراسته وانفتح فيه باب الاجتهاد قمين بأن ينبت قانونا حديثا لا يقل فى الجدة ومسايرة العصر عن القوانين اللاتينية والجرمانية ، ويكون هذا القانون مشتقا من الفقه الإسلامى اشتقاق هذه القوانين الحديثة من القانون الرومانى العريق ...

« ويقال عادة : إن مصادر الفقه الإسلامى هى الكتاب والسنة والإجماع والقياس ... أما للكتاب والسنة فهما المصادر العليا للفقه الإسلامى ، وقد قصدت بالمصادر العليا أن أقول إنها مصادر تنطوى فى كثير من الحالات على مبادئ عامة ترسم للفقه اتجاهاته ولكنها ليست هى الفقه ذاته ، فالفقه الإسلامى هو من عمل الفقهاء صنعوه كما صنع فقهاء الرومان وقضاته القانون المدنى وقد صنعوه فقها صحيحا : الصياغة الفقهية وأساليب التفكير القانونى واضحة فيه وظاهرة فأنت تقرأ مسائل الفقه الإسلامى فى كتبه الأولى - ككتب ظاهر الرواية لمحمد ، كما تقرأ مسائل الفقه الرومانى فى كتب فقهاء الرومان فى العصر المدرسى ، ثم تنتقل إلى مرحلة التبويب والتنسيق والتحليل والتركيب فى الفقه الإسلامى فتقف على الصياغة الفقهية فى أروع مظاهرها فى أدق صورها ، ثم يقول هؤلاء الفقهاء الأجلاء فى كثير من التواضع إن هذا هو الإجماع أو القياس أو الاستحسان أو الاستصحاب أو ما شئت من المصادر التى ابتدعوها ، وأن الأصل فى كل هذا يرجع إلى الكتاب والسنة ، والواقع من الأمر أنهم صنعوا فقها خالصا هو صفحة خالدة فى سجل الفقه العالمى ... »[1] .

والفقيه المشرع الكبير - العميد السنهورى - قد أبرز بعباراته السالفة الفكرة فى وضوح وإن لم يشأ أن يعرض لمناقشة نصوص السنة نفسها من الداخل ، وتبين ما هو ملزم على وجه الدوام وما هو غير ذلك ، ومدى الإلزام والدوام فى النصوص ذات الأحكام الملزمة على وجه الدوام .

(١) الدكتور السنهورى : بحث نشرته الجامعة العربية .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

نحن إذن أمام صناعة فقهية إنسانية كبرى.

أمام جهود فقهية وتشريعية وقضائية يجب أن تنسب لأصحابها ... تنسب لمالك ولأبي حنيفة وللشافعي ولابن حنبل ولأوزاعي وللثوري ولليث ولداود ولابن حزم وغيرهم وغيرهم ولا تنسب لشريعة الإسلام إلا باعتبارها مدرسة كبرى جامعة لها طابعها العام فحسب.

ومن أجل هذا الجهد الإنساني اختلف هؤلاء الأئمة، واختلف تلاميذ كل إمام فيما بينهم، واختلفوا مع إمامهم في بعض الأحايين، وهل تغيب دلالة اختلاف أبي حنيفة مع صاحبيه أبي يوسف ومحمد ابن الحسن ومع زفر ؟؟.

وعلينا نحن أن نبدأ البناء من الأساس. وأن ننظر إلى التجارب الفكرية السابقة النظرة التاريخية الصحيحة، فهي سوابق لجهد أسلافنا الإنساني علينا أن نتبعها بلواحق من جهدنا الإنساني، ولا بأس من أن نفيد من محاولات من سبقونا على سبيل الاستئناس.

علينا أن نبدأ من دراسة الكتاب والسنة، ومن محاولة تحليل أحكام الكتاب والسنة وتفهمها في ضوء واقع عصرنا وثقافته ويكون تراث أسلافنا إلى جوارنا نستعين به، ولا يكون أمامنا حجبا عن أصول الشريعة وروحها، وعن ظروف واقعنا القائمة.

« وقد جرى العرف بين كثير من العلماء في القرون المتأخرة ألا يفرقوا بين أحكام الشريعة الإسلامية في ذاتها وبين ما يصل إليه علماء المسلمين باجتهادهم وفقههم من أحكام والشريعة هي أمر الله إلى الناس، أما الأحكام الفقهية فهي أحكام من صنع البشر وصلوا إليها عن طريق الفقه والاجتهاد، وكان من أبرز نتائج هذا الخلط بين أحكام الشريعة وغيرها من الأحكام الفقهية أن نزلت أحكام من نفوس عامة المسلمين منزلة الإجلال وأحاطوها بطابع التقديس دون أن يكون لهم في ذلك أي سند أو دليل. بل إن المسلمين ظنوا كذلك أن الاجتهاد لا يخرج عما وصل إليه أهل عصر بعينه وما اتصف به أهل العصر من فهم وما جروا عليه من طرق في التفكير »(١) !!

إنه فارق دقيق ... ينبغي اعتباره عند مدارسة شريعة الوحي وصناعة الفقه، كأساس لتطوير علمي رشيد.؟

فتحي عثمان

(١) محمد أسد (ليوبولدفايس): بحث الدولة المسلمة.

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

علوم نبغ فيها العرب

للدكتور جمال الدين الرمادى

نبغ العرب فى الشعر نبوغا عظيما ، وأدركوا فيه القدح المعلى ، والذروة العليا ، واستطاعوا أن يصلوا إلى المعانى الدقيقة ، والخيالات الرقيقة ، والصور المبتكرة ، والأسلوب العذب الرصين ، والعبارة الشكلية الأنيقة ، كما نبغ العرب فى الفصاحة والبلاغة ، وضروب البيان ، وخاضوا فى علم التاريخ والجغرافيا ، والسيرة ، ونشروا فى ذلك التآليف الكثيرة ، والكتب العديدة ، بيد أن هذه الألوان من المعرفة ، أصبحت معروفة لدى الخاص والعام ، وامتد ذكرها فى الآفاق وتغنى بأثرها الركبان .

ولكن هناك علوما ومعارف شتى أجادها العرب أيما إجادة . ولكن عنصر الأدب والشعر طغى عليها فطمست إلى حين معالمها حتى يخرج من ينفض عنها تراب السنين ، ويجلو عنها صدأ الدهور ، ويستخرج منها تاريخاً حافلا ، وماضيا زاهراً زاهياً ، يتألق سناه ، ويسير الناس على هداه .

ومن ذلك أن العرب ألفوا مراجع فى الاقتصاد السياسى مثل كتاب : الجواهر وأصنافها لمحمد بن شاذان الجوهرى ، وألفه فى القرن الثالث الهجرى للخليفة المعتضد المتوفى عام ٢٧٩ هـ ، وكتاب مزاجات الجواهر وعمل الفولاذ ، وكتاب الإشارة إلى محاسن التجارة للشيخ أبى الفضل جعفر ابن على الدمشقى ، وبحث فى جيد الأعراض ورديئها ، وغشوش المدلسين ، كما يشمل فصولا فى حقيقة الأموال ، كما يضم وصايا نافعة للتجار على اختلاف طبقاتهم .

وتنبه العرب إلى ارتباط الحاجات بالتجارة وتدرج الحاجات والإنتاج ، وأثر الترف فى طرق المعيشة ، وعلاقة الترف بالأثمان ، والإنتاج ، ومساوئ الترف الأخلاقية ، والحرية الاقتصادية ومجالاتها ، وبينوا أن كثرة الترف تدفع الأسعار إلى الغلاء . فالطلب على مواد الترف طلب غير مرن ويؤدى إلى غلاء الأثمان ، ومن جهة أخرى نرى أن احتياج الدولة إلى فرض مكوس متزايدة تزيد على غلاء الأسعار ، أو يجتهد المنتج أو التاجر فى نقل المكوس على عاتق المستهلك .

وتنبه العرب إلى أن المدنية حاجة اقتصادية وحاجة دفاعية ، فهى المكان الذى يترعرع

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

فيه العيش والذى يتولد فيه التضامن الاجتماعى من أجل الحياة .

ولكن الترف والتضامن لا يعتبران الدافع الوحيد لتأسيس المدن ، بل تدعو إلى ذلك حاجة الدولة ، فالمدنية نتيجة لمقدمتين أحداهما اقتصادية وهى الحاجة إلى الدعة ، والأخرى سياسية وهى الحاجة إلى الدفاع .

تنبه العرب إلى كل هذه الشئون الاقتصادية ، وحفلت بها مؤلفاتهم مثل مقدمة ابن خلدون وصبح الأعشى فى صناعة الإنشا للقلقشندى ـ وإغاثة الأمة يكشف الغمة للمقريزى ـ ونحو ذلك ـ وكان لهم شأو كبير فى هذا المضمار الاقتصادى لا يمكن نكرانه أو نسيانه .

وألف العرب فى السياسة ومنهم أبو زيد البلخى المؤرخ الجغرافى الذى كتب كتابين الكبير والصغير ـ وكتب فى السياسة المدنية أبو نصر الفارابى الفيلسوف المشهور ـ ومن الكتب الهامة فى هذا الباب كتاب « سياسة المالك فى تدبير الممالك » لابن أبى ربيع ـ وجاء فى مقدمة الكتاب أن مؤلفه ألفه للمعتصم العباسى المتوفى عام ٢٢٧ هـ .

وبرع العرب فى الكيمياء والصيدلة والطب ، وهم من الأوائل الذين اشتغلوا فى علم الأدوية وتحضيرها ـ وظل العرب فى النهضة العباسية يعتمدون فى المارستان ، ودكاكين الصيادلة على أقرباذين ألفه سابور ابن سهل المتوفى عام ٢٥٥ هـ حتى ظهر أقرباذين أمين الدولة ابن التلميذ المتوفى عام ٥٦٠ هـ وذكر الفرنجة أن العرب هم الذين اكتشفوا حامض النتريك وزيت الساج وحامض الكبريتيك والبوتاس وروح النشادر ، ونترات الفضة ، وأكسيد الزئبق .

ونبغ منهم ابن البيطار الذى تبحر فى دراسة النبات ، وألف كتاب ، المغنى فى الأدوية المفردة ، ومنه نسخ خطية فى ليدن والمتحف البريطانى وأكسفورد وباريس ـ وكتاب جامع مفردات الأدوية والأغذية ـ وطبع فى مصر عام ١٢٩١ هـ ثم ترجم إلى اللغة الألمانية وكتاب ميزان الطبيب .

ونبغ نبوموس بن شاكر فى العلوم الهندسية ، وألف ابن الهيثم كتابا فى أوائل القرن الخامس للهجرة جمع فيه الأصول الهندسية والعددية من إقليدس وإبلينوس .

ومن أشهر كتب المسلمين فى الجبر كتاب الجبر والمعادلة ، وعنى العرب بشرحه ، وتفسيره والتعليق عليه .

واشتهر من علماء الفلك فى الإسلام أبو معشر البلخى ، وسهل بن بشر ، وحنين ابن إسحق ، والبيرونى وغيرهم ، ونادى

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

المسلمون بإبطال علم التنجيم حيث أنه يقوم على أسس واهية ، ودعائم ضعيفة ومضوا يقيسون العروض ، ويرصدون الأفلاك ، ويراقبون السيارات ، ويتبحرون فى دراسة ما كتبه الأوائل والأواخر فى علم الفلك .

ومن الطريف أن المسلمين فضلا عن هذه العلوم والمعارف الآنفة الذكر لم يغفلوا قيمة التدبير المنزلى وهو عندهم فرع من الحكمة العملية وتعريفه : معرفة اعتدال الأحوال المشتركة بين الإنسان وزوجته وأولاده وخدامه ، وطريق علاج الأمور الخارجة عن الاعتدال ، ومن الكتب التى تدخل فى هذا النطاق كتاب « الطبخ » لإبراهيم ابن المهدى ، وغيره لابن ماسويه ، وإبراهيم ابن العباس الصولى ، وجحظة والرازى وغيرهم .

وبرع العرب فى الأعمال المهنية والصناعات الدقيقة ، واهتموا بالتجارة ، واعتبروها من ضروريات العمران إذ أن الله سبحانه وتعالى جعل للإنسان فى كل مكون من المكونات منافع تكمل بها ضروراته وحاجاته ، وكان فيها الشجر فإن له من المنافع مالا ينحصر مما هو معروف لكل أحد ، وقد اعتبروا منافع البدو فى الشجر تختلف عن منافع أهل الحضر ، فأما أهل البدو فيتخذون منها العمد والأوتاد لخيامهم والخدوج لظعائنهم ، والرماح والقسى والسهام لسلاحهم وأما أهل الحضر ، فقد استخدموا الشجر فى بناء بيوتهم وإغلاق أبوابهم وعمل مقاعد لجلوسهم ، وتعرض العرب لصناعة الخرط وإنشاء المراكب البحرية ذات الألواح .

وبرع العرب فى صناعة الحياكة والخياطة واعتبروا هاتين الصناعتين من ضروريات العمران ، وكذلك نبغ العرب فى صناعة البناء ، وهى أولى صنائع العمران الحضرى وأقدمها ، وقد بدأت باتخاذ البيوت والمنازل للسكن والمأوى ودفع الحر والبرد ، ثم تطورت وتعددت وتعقدت على مر الزمان ، وداخلتها فنون شتى فى التنميق والتنسيق والتنجيد والزخرفة وما إلى ذلك حتى غدا الفن الإسلامى يبهر العين ويخلب الفؤاد .

وبرع العرب كذلك فى صناعة التوليد ، واشتهر فى هذه الصناعة عدد كبير من السيدات وتسمى القائمة فى ذلك منهن بالقابلة ، واستعير فى اسمها معنى الإعطاء والقبول ، كأن النفساء تعطيها الجنين وكأنها تقبله كما كانت تخفف عن الأمهات آلام الوضع ويعينهن على الولادة الميسورة .

وكتب العرب فى ضرورة تدخل الدولة فى المجال الاقتصادى والتنمية الصناعية لإنعاش وسائل العيش لأن الدولة شديدة

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الارتباط بالعمران والحضارة ، والعمران من غير الدولة لا يتصور وفى ذلك يقول ابن خلدون : (إن الصنائع وإجادتها إنما تطلبها الدولة ، فهى التى تنفق سوقها ، وتوجه الطلبات إليها ، ومالم تطلبه الدولة ، إنما يطلبه غيرها من أهل المصر ، فليس على نسقها لأن الدولة هى السوق الأعظم ، وفيها نفاق كل شئ ، والقليل والكثير فيها على نسبة واحدة فما نفق منها كان أكثر ضرورة) .

كما كتب العرب فى التعاون مما يعتبر اليوم مادة جديدة للدراسة فى الجامعات واعتبروا أن النوع الإنسانى لا يتم وجوده إلا بالتعاون ، وأن المجتمع إذا فقد التعاون تهاوى بنيانه ، وتداعت أركانه ، وإذا كان الإنسان لا يستطيع أن يعيش بنفسه فقط ، فهو أحوج ما يكون إلى تسخير جهوده لخدمة الآخرين ليستفيد من تسخير الآخرين جهودهم لخدمته .

وبرع العرب كذلك فى كتب المعاملات والإدارة وتنظيم الحكم ويعتبر كتاب فتح القدير لكمال الدين همام وصبح الأعشى للقلقشندى ، وكتاب الأحكام السلطانية للواردى من أخصب الكتب فى هذا الباب

أما الرحلات فظهر فيها مؤلفون نابهون ، نذكر منهم القزوينى الذى ظهر فى القرن السابع الهجرة ، ويرجع نسبه إلى الإمام أنس بن مالك ، ومن أبرز مؤلفاته كتاب « عجائب المخلوقات ، فى الفلك والجغرافيا الطبيعية عند العرب » ، ووصف الأرض وما فيها وما عليها ، ورتب كلا من الحيوانات والنباتات على حروف المعجم ، وكتاب آثار البلاد وأخبار العباد الذى طبع فى غوتنجن عام ١٨٥٠م ، وابن بطوطة صاحب الرحلات المشهورة ، وله كتاب « تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » ، وقد اهتم المستشرقون اهتماما بالغا بهذه الرحلات وترجموها إلى اللغات الأجنبية وعلقوا عليها تعليقات كثيرة ، وبدر الدين الزركشى المتوفى عام ٧٩٤ هـ وصاحب كتاب « الغرر السوافر فيما يحتاج إليه المسافر »

وهكذا كان فضل العرب سابقا شاملا ، وكان مجدهم لا يقتصر على الشعر والأدب وتراث أمرىء القيس والنابغة والأعشى وغيرهم فى العصر الجاهلى أو حسان بن ثابت وكعب بن زهير وغيرهما فى صدر الإسلام أو الأخطل وجرير والفرزدق فى العصر الأموى أو بشار والمتنبى وأبى العلاء المعرى وأبى تمام فى العصر العباسى وابن خفاجه وابن زيدون وابن سهل فى الأندلس - بل لم يقتصر مجدهم على ما كتبه الجاحظ أو ابن العميد أو عبد الحميد أو من إليهم من الكتاب العرب أو المستعمرين - إنما تطاول مجدهم

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

حتى شمل العلوم البحتة والعلوم التطبيقية والفنون الجميلة والفنون النافعة ، وتطرق علمهم إلى المعامل وآنية الاختبار وروائح الأحماض والبخار — وضروب الصناعات الثقيلة التي تمخر البحر أو تدب على الأرض أو يحارب بها الأعداء .

وكان لهم شرع وقانون يعصمهم من الخطأ ، ويردهم عن الخطل ، ويوضح لهم منازل الحق وهو الشرع الإسلامي والدين الحنيف ، والكتاب المبين الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

وقد استطاعوا بفضل تمسكهم بآداب هذا الدين العظيم ، وهذا الشرع السوي المستقيم ، أن يرسخوا أقدامهم — ويرهبوا أعداءهم — ويمدوا سلطانهم .

ولم يكن الدين حائلا بينهم وبين بلوغ هذه الغايات النبيلة أو الوصول إلى هذه الأهداف الكريمة — إنما كان عونا لهم على العلم وحافزا لهم على المعرفة ، فإذا العصي من الأمر يسهل وإذا القصي من الأمل يقرب — وإذا العسير من الخطب يهون .

وما أحوجنا اليوم — ونحن ننفض عن أبداننا — أثقال الماضي ونحطم قيود التقليد البغيض — أن نسترجع أمجاد آبائنا الأولين في هذه المعارف والعلوم حتى تكون لنا عبرة وأسوة حسنة ، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

جمال الدين الرماوي

(بقية المنشور على صفحة ٧١١)

أرباح التجارة حتى كانت تصدر إليهم أحيانا تعليمات تحثهم على ذلك . فكانوا — حسب التقاليد البيزنطية . يضمون العلاقات التجارية إلى جانب قيامهم بالمهام الدبلوماسية . فعند تولي امبراطور جديد عرش بيزنطة يوفد السفراء إلى شتى الدول الأجنبية — وفي مقدمتها الدولة الإسلامية — لإعلان ذلك ، حاملين في الوقت ذاته بعض البضائع لبيعها في الأسواق. من ذلك سفارة الامبراطور ليسابين إلى بلاط الإخشيد للسماح لسفراء الروم بالتجارة في القاهرة وقد لقي هذا المطلب موافقة إخشيد مصر (سنة ٣٢٤ هـ - ٩٢٦ م) .

وهكذا منحت الدولة الإسلامية السفراء الأجانب في ديارها من أنواع الحصانات والامتيازات ما يماثل نظائرها في أعظم الدول الحديثة تطورا في هذا المضمار . وفي ذلك ما ينهض أبلغ دليل على سماحة القواعد الشرعية في الإسلام في معاملة الأجانب ، ورسوخ قدم السياسة الإسلامية في محيط العلاقات الدولية ، وعراقتها في ميدان الفن الدبلوماسي ، وصدورها في هذا كله عن مبادئ العقيدة الخالدة في الدعوة إلى السلام العالمي ، واحترام العرف والقوانين الدولية الحميدة وإقرار التعاون والتآخي بين الناس جميعا . وصدق الله العظيم : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » .

رائد من فتح الباب

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الإسلام دين التوحيد

للأستاذ عباس طه

إن الدراسات الدينية التي توالت في العالم المتمدن منذ أكثر من مائة سنة كشفت عن أمور كثيرة حليقة بإنعام النظر.

أولها أن التدين صفة عامة لجميع بني البشر حديثهم وقديمهم فلم يعثر على أمة لا دين لها، ولا على قبيل من القبائل البائدة قبل أن يدون التاريخ إلا ولها آثار تدل على أنها كانت تدين لنحلة، وأنها كانت تعرف أن وراء المحسوسات عالماً محجوباً عن الأبصار فيه كائنات ترجى معونتها وتستدر رحمتها.

ولما انتصف القرن التاسع عشر زادت الدراسات الدينية تغلغلا في صميم الأديان القديمة فظهر ما بينها من الصلات الوثيقة وما يجمعها من العقائد والتقاليد.

كان مذهب الماديين في تدين الإنسان إلى ما قبل مائة وخمسين سنة أن الإنسان لما ظهرت فيه صفة التعقل واتسع مداها للخيالات والتصورات اضطرب خيال المخاوف التي تحيط به من كل جانب، والمخاطر التي تناوئه من كل مكان أن يعتصم بملجأ يحتمي فيه من هذه النوازل ولو توهما، فلجأ إلى خياله فصور له عالماً عالياً وراء هذا العالم تعمره آلهة وأنصاف آلهة وملائكة مقربون، وأن من هذا العالم تتنزل على الناس النعم والنقم، ومنها تصدر الأوامر لعوامل الطبيعة أن تسخر على بعض الناس وأن تضن على الآخرين. وما زال بهم الخيال حتى صور لهم ما يجب أن يتقرب به إلى تلك الأرواح العلوية من القرابين والهدايا المنوعة من الأطعمة ومن ضروب العبادات ركوعاً وسجوداً وصياماً وجهادا الخ.

ومن هذه الحالة الساذجة نشأت الأديان الكبرى المعروفة حاملة طابع واضعيها من الرجال أصحاب المطامع الواسعة أو من الرجال ذوي العقول الراقية أمثال - باسكال، جول سيمون، أرنست رينان - وأضرابهم ممن وصلوا من العقيدة بالخالق إلى درجة التوحيد والتنزيه المطلقين. ولم يحفز العلماء الماديين إلى مثل هذا التطرف في الحكم إلا وقوفهم مع الحس المجرد وزعمهم أنه لا سبيل إلى سائر المعقولات الإنسانية غير الحواس الخمس.

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

ولكن الروحيين ونريد بهم الذين يعتقدون بأن العالم مركب من عنصرين : أحدهما مادى فان والآخر روحانى باق ، قد قرروا أن الإنسان اهتدى إلى عالم الروح بما ركب فيه منه ولولا ذلك لم يشعر به ولم يهتد إليه ، وقد أظهر الإنسان حتى فى أشد أدوار توحشه تعلقه بذلك العالم واعتداده به أكثر مما أظهر من تعلقه بالعالم المادى ، ومن يتأمل فيما فرضه على نفسه من العبادات الجسدية والتضحيات القربانية والشكائم التى اتخذها لصد ميوله طائعا مختارا يجد أن أثر العالم الروحانى على نفسه كان شديدا إلى حد لا يمكن القول معه بمذهب الحسيين . فلو كان الخوف من جوائح الحياة هو الذى اضطر الإنسان لياجأ إلى عالم ما وراء الطبيعة ، لخفت وطأة الاضطرار عنه كلما ازداد علمه بأسباب تلك الجوائح ، ولكن المشاهد خلاف ذلك ، فقد اشتد تطلع أهل العلم إلى ذلك العالم اشتدادا يزوا به المتوحشين والجهال أضعافا مضاعفة . ولا يعقل أن مثل الطبيعى العبقرى ـ باسكال ـ والفليسوف السياسى جول سيمون والنقادة الفرنسى الكبير أرنست رينان ـ وغيرهم يبقون مع أثر وراثى سداه ولحمته الوهم ، ولا يتخلصون منه مع بلوغهم درجة الإمامة فى الفلسفة والنظر السليم .

ولا جرم أن نظرية الماديين قد سقطت حتى فى نظر العلماء الذين لا يؤيدون الأديان الشكلية مثل جيو Guyo مثلا فقد كتب فى كتابه (اللادينية فى المستقبل) يقول : (إن نظرية الفلاسفة الحسيين كان ينتظر سيادتها المطلقة على العقول منذ بضع سنين وقد كان رضيها الكثيرون بدون أن يستنتجوا منها سائر نتائجها الضرورية ، أما الآن فقد اتضح أنها واهية) .

أما النظرية السائدة اليوم فى البيئات العالية للدراسات الفلسفية بسبب أنها غير ظنية ويمكن تحقيقها إذا صعد الإنسان ببحثه إلى مناشئ العقائد الإنسانية . وهذا الأمر مهما يكن صعبا ، فإن وراءه رجالا يهتمون به غاية الاهتمام ، وأحسن من تصدى لهذا الموضوع الجليل فأجاد هو الأستاذ « ماكس موللر » الألمانى ، فإنه بسط فيه كتابا جليلا ـ أصل الدين وارتقاؤه ـ أثبت فيه بالنصوص الدينية السنسكريتية ، وهى أبعد الديانات عهدا أو أقدمها تاريخا ، أن الإنسان أول ما عبد عبد الخالق جل وعلا على صفته غير المحدودة . وأما هذه الأوثان والأصنام فليست إلا بنات الخيال استدعتها محبة الإنسان للمس كل ما يشعر به فى نفسه فقال :

« إن هذه الآلهة المجسمة ليست إلا تمثيلا طرأ على الإنسان بعد تلك الفكرة الطبيعية وبناء على هذا فقد ركع آباؤنا وسجدوا أمام الله الحق حتى قبل أن يجسروا على الإشارة إليه باسم ».

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

ثم جزم هذا المؤلف بأن أصل الأديان كلها واحد ، وما استدعى اختلافها إلا ما أحدثته النزعات الإنسانية والأهواء النفسانية من حب التحديد والتقييد والحصر

هذا كلام لم يجاف العقل ولا النقل وهو مصداق لقوله تعالى « كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم ، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه » وقوله « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين . ما تدعوهم إليه ، الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب . وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم » .

ولا مراء أن أول ما كان عليه الإنسان من الدين هو التوحيد الخالص من شوائب الخيالات ، وأنه كان عاما فى جميع النوع البشرى فلما دخلت عليه التلوينات الخيالية تعددت أشكاله ، وتنوعت صوره وذهب كل فريق من الناس بما تأثر به عقله منها فأصبح للناس أديان شتى وابتنى على تكثرها وقوع النزاع بين الجماعات البشرية .

إن قول الأستاذ ـ ماكس مولر ـ إن الإنسان مفطور على توحيد الله يعد ترديداً لقوله تعالى: « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

وقوله : إن النوع البشرى كان له دين واحد هو ما ذكرناه آنفاً من التوحيد موافق لما ذكر فى القرآن وهو قوله تعالى: « كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين » الآية ، ومعناها كان الناس أمة واحدة فاختلفوا فأرسل الله لهم أنبياء ورسلا يهدونهم إلى الحق ، وهم ما اختلفوا إلا بسبب ما تسلط عليهم من الأهواء والخيالات والصور الذهنية المختلفة وذلك بدليل قوله تعالى فى آية أخرى: « وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ولو لا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم فيما فيه يختلفون » ومعناه صريح وهو أن الناس كانوا فى مبدأ أمرهم على دين الفطرة الحق فاختلفوا باتباع الأهواء والأخذ بالأباطيل ولو لا كلمة سبقت بتأخير معاقبتهم إلى يوم القيامة ، لقضى بينهم عاجلا فيما فيه يختلفون بإهلاك المبطل واستبقاء المحق . فهذا الاستكشاف العلمى الذى لم يحد الأستاذ ـ ماكس مولر ـ تصديق للقرآن فيما ذكره عن دين الإنسان ولكن حفزه إليه ما ثبت من

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

مراجعة أقدم المخطوطات والمحفورات البشرية فى اللغات الهندية القديمة ، وفى البيئة التى يرجح أن الإنسان الأول سكنها وتكاثر فيها . وانتشر منها إلى سائر بقاع الأرض .

وزاد الله تعالى هذا الأمر بيانا فصرح بأن الإسلام الذى أنزله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ليس بدين جديد ، ولكنه الدين الأول الذى أنزله على نوح ، وهو معدود بأنه أبو البشر الثانى ، فإنه قد ثبت أن جوائح مائية كانت اجتاحت ذرية آدم إلى نوح وكان عددهم قليلا على نسبة قرب نوح من آدم .

وقد اشتبه على بعض الناظرين هذا الأمر ، وقالوا : كيف يطغى الماء على اليابسة فيجتاح أمة برمتها ، كأنهم لا يعلمون أن الحوادث الأرضية كثيراً ما أحدثت ما يعرفه من تقبع أحوال الخليقة بعد تدوين التاريخ ، فقد ثار مرة بركان فيزوف سنة ٧٩ بعد الميلاد فغمر مدينة بومبيتى برمتها وأباد أهلها جميعا وهم لاهون [1] ، وكثيراً ما حدث زلزال فأطغى السائلة على اليابسة وأهلك مئات الألوف كما حدث فى مسينا بإيطاليا سنة ١٩١٠ إذ زلزلت الأرض هناك زلزالا شديداً فهدم الدور على أهلها وأطغى المياه على المدينة فقتل من أهلها نحو مائتين وخمسين ألفا وكانت كارثة ارتاع لها الناس جميعاً .

إن العالم اليوم يتطلب الدين الأول للإنسان الموافق للغريزة التى فطر عليها الإنسان خالصة من شوائب الخيالات ، وهذا هو الإسلام بأخص معانيه ، وليس له معنى غيره وإن كان لا بد من الاستشهاد بقول عالم اجتماعى على صحة ما نقول فهذا الأستاذ هنرى بيرنجيه يقول فى المجلد ٢٤ من مجلة المجلات الفرنسية .

إذا كان النقد التاريخى قد هدم كل الأشكال المتحجرة فى الأديان ، فإنه لم يستطع أن يعدو على الغريزة الدينية بل شهد باستمرارها وشيوعها فى كل دور من أدوار التاريخ ، فكل تلك الآلهة المختلفة والمتعاقبة تشهد على أن الإنسان مفطور على الاعتقاد بالله رغم أنفه .

إلى أن قال : « هذه هى الشرارة السيكولوجية (النفسية) التى استخلصها من رماد العصور الماضية تاريخ المقارنة بين الأديان فمن المستحيل علينا أن نطفئها ولكنه سينقلها إلى المستقبل » ؟

عباس طه

[٨]

(١) بومبيتى مدينة من مقاطعة نابولى بإيطاليا كانت معتبرة ملهى الأمراء الرومانيين وكان يسكنها ثلاثون ألف نسمة فلما ثار بركان فيزوف القريب منها غمرها كلها فجأة بطبقات من الرمال والصخور السائلة والحمم البركانية ، ثم عفى النسيان عليها حتى سنة ١٧٤٨ فعثر فلاح إيطالى على تماثيل على الأرض فأمرت الحكومة بالحفر هناك فانكشفت لهم المدينة .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

ما يقال عن الإسلام

تطور الفكر السياسي الإسلامي

للأستاذ عباس محمود العقاد

كتاب حديث من مطبوعات أواخر سنة ١٩٦٢ طبعته هيئة فان نوستراند Van Nostrand لدراسة العلوم السياسية بمطابعها فى الولايات المتحدة والبلاد الانجليزية ، وعنوانه العام (الحكومات والسياسة بالشرق الأوسط فى القرن العشرين) وموضوعه البحث فى تطور نظام الحكم فى البلاد الإسلامية التى يطلق عليها اسم الشرق الأوسط مع بعض التوسع ، وأشهرها مصر وتركيا ولبنان وسورية والعراق والجزيرة العربية وإيران ، ومؤلفه هـ . ب . شرابى أستاذ مساعد لتدريس علم التاريخ بجامعة (جورجتاون) ولا نعلم عنه شيئا غير ما جاء فى تعريفه بقلم الناشرين لكتابه ، وخلاصته أنه تعلم بالجامعة الأمريكية فى بيروت وأتم دراسته بجامعة شيكاغو وتخرج منها سنة ١٩٤٨ ثم نال منها شهادة الدكتوراه فى الفلسفة بعد خمس سنوات .

على أن الظاهر من طريقته فى الكتابة عن الموضوعات الإسلامية أنه يجرى فيها على نهج الأكثرين من المستشرقين ، وطريقتهم الغالبة عليهم أنهم لا يزنون الموضوع الواحد بميزان واحد فيما يتعلق بالإسلام وبالأمم الإسلامية وفيما يتعلق بغير الإسلام وغير المسلمين ، فهم ينظرون - أبدا - نظرة جانبية إلى المسائل الإسلامية ، ولا يعممون النظر على قاعدة واحدة إلى هذه المسائل وإلى نظائرها فى البلاد الأوربية والأمريكية ، وعندهم - دائما - أن مسائل الإسلام موسومة بالغرابة والمخالفة لما عداها من من المسائل العالمية ، فهم يتطلبون الشذوذ الغريب ابتداء من النظرة الأولى ، ولا يحسبون أن التعليل العلمى يتسع لتفسير الإسلاميات وغير الإسلاميات على قاعدة واحدة من قواعد الفهم والتحليل ، وقد تسربت طريقتهم هذه فى التأليف إلى عقول قرائهم وتلاميذهم من الشرقيين المسلمين وغير المسلمين ، فكلهم يبتدئ البحث بالتفرقة بين ما يبحثه من شئون الإسلام وما يبحثه من أمثالها فى التاريخ القديم

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

أو التاريخ الحديث من شئون الأمم الشرقية والغربية الأخرى . وكلهم يخص الإسلام بمنظار (خاص) من أول نظرة ، ولا يحمل ذلك المنظار نفسه حين يتحول بالنظر إلى سواه .

وأظهر ما يظهر ذلك فيما كتبه المؤلف عن تطور الفكر الإسلامى قديما وحديثا إلى أواسط القرن العشرين ، فإنه يجعل الإسلام فى تقديراته مطالبا بأحد أمرين مستحيلين : أحدهما أن ينص فى عقائده من مبدأ الأمر على أحكام غير دينية تتبع فى نظام الحكومة ، فهو إذن دين وغير دين ، وعقيدة وشىء مخالف للعقيدة ، وذلك أغرب ما يخطر على البال بالنسبة إلى الدين خاصة وبالنسبة إلى كل نظام من أنظمة الشرائع والدساتير على التعميم .

والأمر الآخر أن يتنزل الدين الإسلامى بنصوص قواعده مصحوبة بنصوص تعديلاتها وتطبيقاتها التى تغنى المسلمين عن التصرف فيها على حسب المصالح والضرورات ، فيحصل التعديل والتصرف قبل أوان الحاجة إليه ، ويصح من ثم أن يقول المؤلف ومن على رأيه إن التشريع الحكومى فى الإسلام غير متحجر وغير مخالف للسنن المعهودة فى غيره من التشريعات ..!

ومثل هذا « التصرف » أيضا غير ممكن ، بل غير معقول ، فإنما المعقول دون غيره أن توضع القواعد الدينية وتوضع الرخصة فى تعديلها على حسب شروطها ومناسباتها... أما أن يتنزل الدين بنصوص قواعده ونصوص تعديلاتها معا فذلك ما لم يحصل قط فى شرع دينى ولا فى شرع موضوع .

قال المؤلف فى الصفحة الحادية عشرة بعنوان الشريعة : « إذا دققنا فى القول لم نجد فى الإسلام نظرية مستقلة للحكومة ، إذ كل ما يرتبط بالحكومة والدولة يدخل فى نطاق الديانة، فلا فاصل بين الدينيات والدنيويات، والمسلم الذى يدين بالله وبرسالة نبيه محمد عضو من أعضاء الجماعة الإسلاميه بحق الانتماء إلى الديانة فقط ، لا بحق القرابة أو اللغة أو العنصر ... ومن الوجهة السياسة تتسم الجماعة الإسلامية ، أو الدولة الإسلامية ، بسمات أربع وهى :

١ — أن الله رأسها والقرآن كما تنزل على النبى دستورها الوحيد .

٢ — وأن كلمات الله هى الشرع الوحيد وليس للجماعة أن تجرى لها شرعا غيره .

٣ — أن وظيفة دستور الحكومة وشكلها وأحكامها أبدية ولا يمكن تغييرها كيفما اختلف الزمان والمكان .

٤ — أن الغاية من الحكومة هى إقامة الدين وتنفيذ كلمات الله .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

قال : « ويتضح من هذا أن الشريعة — وهي جملة الأوامر الإلهية — ليست قانونا بالمعنى المفهوم من القانون في العصر الحديث — ولكنها قضايا معصومة ترسم للمسلم أحكام سلوكه في حياته كلها دينيا وسياسيا واجتماعيا وفي الأسرة والبيت » .

وليس يعنينا في هذا المقام أن نناقش تصوير المؤلف لحقيقة الإسلام ، ولكننا نقلناه بحرفه لنسأل : وهل للدستور أو للقانون على الأساس الصحيح في كل صورة من صوره قاعدة تخالف هذه القاعدة في جملتها ؟ .

وهل يصل المؤلف ببحثه يوما إلى دستور « وضعي » قويم بدأ العمل به في أمته بجميع تفصيلاته وتعديلاته دفعة واحدة ؟ وهل في دساتير العالم دستور لم يقم على قواعد ثابتة لا تتغير مهما تتغير بعد وضعها نصوص المواد والقوانين المتفرعة عليها ؟ .

إن أقدم الأمم الديمقراطية عملا بالحكم النيابي هي الأمة البريطانية ، ودستورها في أساسه قواعد لا تقبل التغيير وأن تغيرت المواد التي لم تكتب بتفصيلاتها حتى اليوم . ومن هـــذه القواعد حرية الفرد ، وحرية الاعتقاد ، وحرمة المنزل ، ومبدأ النيابة وتقرير الضريبة ، ومبدأ المسؤلية الوزارية ومبدأ السيادة البرلمانية في وضع القوانين ، ومبدأ سريان القوانين في جميع الأقات واشتراط الموافقة على وقفها أو تعليقها على حسب الطوارئ والضرورات ، فهل يكون الدستور الصالح كذلك ولا غرابة فيه . ثم تكون الغرابة كل الغرابة في دستور الإسلام ؟ .

وبين أيدينا الساعة خبر عن دستور دولة عصرية يصح أن يقال فيه إنه من أخبار آخر ساعة ، لأنه مكتوب على رأس سنة ١٩٦٣ في تقويم يسمى بتقويم « ايطاليه » وهي دولة عرفت الحكم « الثيوقراطي » أو الديني ، وعرفت حكم الملوك والأمراء ، وعرفت الحكم الدكتاتوري ، وهي تعرف اليوم نظام الحكم الديمقراطي ومن أحزابه حزب يسمى بالحزب المسيحي ، وخلاصة نظامها السياسي كما جاء في الصفحة الأولى من التقويم لسنة ١٩٦٣ « أنه قائم على أسس التقدم الاقتصادي والاجتماعي ، مع احترام الحرية الديمقراطية واستقرار العملة والمشاركة الكريمة في الدفاع عن العالم الحر وتشجيع الدعوة إلى الوحدة الأوربية والتعايش السلمي بين أمم العالم » .

وليس مع هذه المبادئ نص واحد من نصوص الدستور المكتوب أو نصوص قوانين المعاملة والعقوبات ، فماذا في هذا التعريف بأسس الحكم في هذه الدولة ، أو في الدولة البريطانية ، يتعذر نقله إلى التعريف بدستور الإسلام ؟ .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

اننا لا نغير حرفا من نظام الحكومة الإسلامية إذا قلنا على هذا المنوال :

إن قواعد الحكم كلها منصوص عليها فى آيات القرآن الحكيم .

إن الإمام يتولى الحكم بالبيعة .

إن الإسلام يوجب على المسلمين أن تكون فيهم أمة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ومنها « أهل الذكر » الذين يسألون عن أحكام الذكر الحكيم .

إن السيادة التشريعية موزعة بين الإمام وأهل الذكر وإجماع الأمة ، أو ما هو فى حكم الإجماع .

إن أحكام الشريعة الإسلامية تنفذ فى كل زمن وفى كل مكان ، ولا يعلق تنفيذها أو يؤجل إلا وفاقا لسيادة التشريع .

إن الفرد حر مسؤل .

إن مصلحة الأمة أساس فى تطبيق الشريعة وفى وضع الأحكام التى لم تذكر بتفصيلاتها وعوارضها فى آيات الكتاب .

إن المجتمع الإسلامى ينكر احتكار الثروة ويحرم الربح بغير عمل ويقرر من ثروة الأمة كلها حصة للعجزة والمحرومين .

إن الحدود الجنائية لا تعطل أبدا إلا لعلة واضحة من علل الضرورات والشبهات .

إن هذه الضرورات والشبهات مرجعها كله إلى حق السيادة المطلق . وهو حق الإمام الراعى وأهل الذكر والرأى المتفق عليه بين جمهرة الرعية .

فهل فى هذا الوصف قيد شعرة من الانحراف عن حقيقة الدستور الإسلامى ؟

وهل هو على هذا الوصف بدعة فى الدساتير التى تصلح للتطبيق وينتظم عليها أمر الجماعات الإنسانية ؟

إن المستشرقين وتلاميذهم ، وأصح من ذلك أن « المستغربين » وأتباعهم من الشرقيين هم الذين يبتدئون بالاستغراب - أصلا - فى كل بحث من بحوثهم الإسلامية ...

وأن هؤلاء لا يكلفون ، نفسهم أن يبتدئوا بالبحث فى شئون الإسلام « غير مستغربين » ولا مفرقين بين نظرة ونظرة وميزان وميزان ، ولكنهم لو تكلفوا ذلك فى كل ما بحثوه لعلموا أن الغرابة هنا حاصلة ولكنها فى طريقتهم وفى اتجاه عقولهم أو نيات ضمائرهم وليس فى الإسلام شىء من الغرابة ، إلا ما استغربه المستشرقون وتلاميذهم من الشرقيين !

عباس محمود العقاد

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

مختارات من الشعر القديم والحديث

في رحاب النبوة :

يا حبيب الله

للأستاذ إبراهيم مجا

نادتى . . إنى قريب منك ، يا خير البريه
يا حبيب الله ، يا أجمل نفس بشريه
يا أبر الخلق بى ، يا أكرم الناس عليه
نادتى ، فالشوق لم يترك من الصبر بقيه

* * *

أنت فى روحى إشراق ، وفى قلبى محبه
لم يذق ما ذقته فيك من الوجد أحبه
حيما جئت وقلبى كله شوق ورغبه
قلت للغربة ، من أجلك ، ما أحلاك غربه !

* * *

منذ أن كنت صغيراً حدثونى عن صفاتك
عن رفيف النور فى وجهك ، عن حلو سماتك
عن سنا الرقة فى طبعك ، أو فى بسماتك
فتشوقتك ، حتى غبت فى أعماق ذاتك

* * *

ومضى العمر بنا فى هذه الدنيا الكبيره
وقرأت السيرة الغراء مرات كثيره
فتجلت قصة تعرض أحداثا مثيره

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

يا حبيب الله

قصـــة صاغت من الليل قلوباً مســـتنيره

* * *

كم تحملت عـــذاب الجسم . . آه لعـــذابك
وتحملت عـــذاب النفس من أجل صحابك
وتغربت ، وكم قاسيت من ظلم اغترابك
وتساميت ، فما تشكو لغـــير الله مابك

* * *

لو طلبت المجـــد ، وافاك بملك أو إماره
أو طلبت المـال ، لبـاك وأهـــداك نضاره
أو طلبت الجـاه ، جاء الجـاه يوليك اقتـــداره
حسب نور الشمس أن يبعث فى الكون شعاره

* * *

عشت لا تطلب إلا أن يرى الليـل النهـارا
فترى إشراقة النـــور عيون تتوارى
ويفيض النور ينبعاً صافياً يســـقى الحيارى
وربيعاً يملأ الكون نمـاء وازدهاراً

* * *

أيها العابد فى غارك ، فى غار حراء
أيها الباحث عن بدرك فى ليل الخفاء
هكذا تســـتنزل الوحى قلوب الأنبياء
هكذا تستقبل الدنيا تباشـــير الضياء

* * *

أيها الداعى إلى الله . وفى الكون جهاله
أيها الهـادى إلى نبع السنا ركب الضـلاله
كم تحملت أذى الشرك ، وقاسيت نضاله
يا رسول الله ، ما أعظم أعباء الرساله !

* * *

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

أيها السارى على الصحراء فى ظل السكينه
ورفيق العمر يفديك من الأيدى العينه
وعلى البعد قلوب مؤمنات فى المدينه
خرجت بالحب أعيادا وإنشادا وزينه

* * *

أيها الواقف فى بدر تصف المسلمينا
ضارعا لله أن يمحق بغى المعتدينا
مشفقا أن يرجع الباطل بعد الحق دينا
ثم لاح النصر خفاق السنا فى العالمينا

* * *

أيها السائر فى الصحراء ، والجند كثير
تبتغى مكة إذ جاءك بالفتح البشير
وحواليك قلوب تتمنى لو تطير
وعلى وجهك إشراق ، وفى قلبك نور

* * *

أيها الظافر فى مكة ، والكفار أسرى
وجباه الظلم والطغيان تعنو لك قسرا
والألى كم حاولوا قتلك ، لا يلقون عذرا
ثم كان الصفح من قلبك إحسانا وبرا

* * *

يا رسول الله ، ما أروع هاتيك الصفات !
ليتنى أدركت أيامك يا خير الهداة
فأتانى النور من قلبك يمحو ظلماتى
وفديت اللمحة الغراء منه بحياتى

* * *

يا حبيب الله ، ما زال الهوى غضا نضيرا

(البقية على صفحة ٧٣٤)

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

رب مال في كنزه يجهد النا ... س لأعدى أعدائهم هو صائر
يالدنيا يلقى بها ، حاتم الجو ... د ، فقيراً ، ويحرز اليسر «مادر»
شهد الله : أن فلسفة البخ ... ل تفوت النهى ، وتعيي البصائر
من يكن حل لغزها ، ومعما ... ها ، فإني في حله جد حائر
قد عذرنا الفقير إن شح لكن ... لم نجد للغنى في البخل عاذر
قتل البخل والبخيل ، فهذا ... زق سوء ، وذاك داء مخامر
يالتعس البخيل يعبد ربا ... سمي المال ، وهو أفجر فاجر
وثن لا يزال يعبده قو ... م طغام الأحلام حمق السرائر
لو على البر أنفقوه لبانوا ... في وئام ، والعيش أخضر ناضر

علي الجندي

(بقية المنشور على صفحة ٧٣٢)

قلبي المشتاق يسقى غصنه ماء نميرا
فنما الغصن ، وقد أينع في قلبي زهورا
يا حبيب الله ، خذ ما شئت زهرا وعبيرا

* * *

سوف أحيا طول أيامي أناجيك بحبي
وأنا المشتاق لا يهفو إلى غيرك قلبي
أنت ما أرجوه من دنياي في بعدي وقربي
إن تكرمت وناديت ، فبالروح ألبي

* * *

ناداني إني قريب منك يا خير البريه
يا حبيب الله ، يا أجمل نفس بشريه
يا أبر الخلق بي ، يا أكرم الناس عليه
ناداني ، فالشوق لم يترك من الصبر بقيه

ابراهيم محمد نجا

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

فلسفة البخل

بقلم الأستاذ علي الجندي

قد يستطيع الإنسان أن يعلل كثيراً من أخلاق الناس ، ولكنه يعجز عن تعليل البخل في بعض البخلاء !! فمثلا كيف تستطيع أن تجد علة للبخل لدى رجل واسع الثراء ، مريض الجسم ، طاعن في السن ؟ ! ! وهو مع ذلك يبخل على نفسه بالطعام الجيد ، واللباس الحسن ، والمركب الفاره ، بل يبخل أن يستطب للداء ، ويشري الدواء !! .

بصفات الإنسان أصبحت طباً ... غير أني بالبخل على قاصر [1]

هو خلق تاه الأوائل في كشـ ... ـف متاهاته ، وضل الأواخر

وهو بالله ، والرسول ، وبالقر ... آن ، والخير ، والفضيلة كافر

وهو للشر وارد ، وعن الخيـ ... ـرات ، واللؤم ، والنذالة صادر

كيف يرضى بأن يعيش فقيراً ... ذو غنى يقتني نفيس الذخائر

كيف يرضى بأن يعيش على الحر ... مان مثر يقني يتيم الجواهر

كيف يرضى بأن يعيش مقلا ... من به « البنكنوت » راح يفاخر

كيف يرضى أن يلبس السمل البا ... لي من يستطيع لبس الجبائر [2]

كيف يشقى في جمعه المال من يو ... قن يوما حلوله في المقابر

عاش في شقوة ، وفي ضنك عيش ... وهو أن يسكن الفراديس قادر

كان « نيسان » شهره أبد الدهـ ... ـر ، فلم يرض نحسه غير « ناجر » [3]

* * *

---

(١) الطب بفتح الطاء : الماهر الحاذق في عمله كالطبيب .

(٢) السمل محركة : الخلق .

(٣) نيسان : من شهور الربيع وهو أبريل شهر الورد ، وناجر من شهور القيظ ، وهو رجب أو صفر .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

رب مال في كنزه يجهد النا ... س لأعدى أعدائهم هو صائر
يالدنيا يلقى بها ، حاتم الجو ... د ، فقيراً ، ويحرز اليسر «مادر»
شهد الله : أن فلسفة البخ ... ل تفوت النهى ، وتعيي البصائر
من يكن حل لغزها ، ومعما ... ها ، فإني في حله جد حائر
قد عذرنا الفقير إن شح لكن ... لم نجد للغنى في البخل عاذر
قتل البخل والبخيل ، فهذا ... زق سوء ، وذاك داء مخامر
يالتعس البخيل يعبد ربا ... سمي المال ، وهو أفجر فاجر
وثن لا يزال يعبده قو ... م طغام الأحلام حمق السرائر
لو على البر أنفقوه لبانوا ... في وئام ، والعيش أخضر ناضر

علي الجندي

(بقية المنشور على صفحة ٧٣٢)

قلبي المشتاق يسقى غصنه ماء نميرا
فنما الغصن ، وقد أينع في قلبي زهورا
يا حبيب الله ، خذ ما شئت زهرا وعبيرا

* * *

سوف أحيا طول أيامي أناجيك بحبي
وأنا المشتاق لا يهفو إلى غيرك قلبي
أنت ما أرجوه من دنياي في بعدي وقربي
إن تكرمت وناديت ، فبالروح ألبي

* * *

ناداني إني قريب منك يا خير البريه
يا حبيب الله ، يا أجمل نفس بشريه
يا أبر الخلق بي ، يا أكرم الناس عليه
ناداني ، فالشوق لم يترك من الصبر بقيه

ابراهيم محمد نجا

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الكتب

فى العاصفة

ديوان شعرى للشاعر كيلانى سند ، ظهر فى صيف عام ١٩٦٢ عن مكتبة عالم الكتب بالقاهرة فى ٩٠ صفحة .

— ١ —

شاعر من أعماق الريف ، نشأ كما ينشأ أبناؤه ، يلفهم الفقر والجوع والحرمان بظلاله ، ولكن قلوبهم الكبيرة تصدح بالحب ، بالأمل ، بالحياة ، بأغانى النصر ، بابتسامات الربيع ، بالإنسانية والسلام والأمن .

شاعر صادق الإحساس والتعبير ، عميق النظرة والتفكير ، دقيق الآراء والتصوير . مبتعد عن كذب الشعور ، وزيف الأداء ؛ يحب البساطة فى كل صورها ، بساطة البحر الشعرى الذى ينظم قصيدته منه ، وبساطة الأسلوب الذى يبرز معانيه فيه ، وبساطة الكلمة التى يختارها لنقل خفى مشاعره ، ودفين أحاسيسه ، إلى الناس .

وديوان « فى العاصفة » القليل الصفحات ، حرى من النقاد بالدراسة والمناقشة ، لأنه يعطينا مفاهيم كثيرة حول الفن ، والصورة الشعرية ، وطريقة الأداء عند الشاعر المعاصر ، وحول رسالة الشعر ووظيفته فى الحياة .

— ٢ —

ونعود إلى الشاعر وديوانه ، نتأمل كل جانب من جوانبه ، تأمل الدارس الناقد .

تدور فلسفة الشاعر فى ديوانه حول أمور ثلاثة :

الأول : الشعور الكامل بدور الفن فى الحياة ، وأثره فى مستقبل البشر ، ورسالته الحرة الجريئة الصريحة ، العاملة على دعم قيم الإنسانية ومثالياتها النبيلة .

ويتضح ذلك بجلاء فى أولى قصائد الديوان « الطريق الشائك » ، التى يصور فيها كفاح الشعراء ونضالهم من أجل مستقبل أمهم والعالم جميعا ، ويقول فيها :

يا كم عبرنا قنطرة
وأبحراً أمواجها
رهيبـــة مزبجـــرة

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وكم صعدنا قمة عالية مسورة
نبحث عن أغنية صغيرة ، عن جوهرة
وزادنا على الطريق ورق وعبرة
وأمنيات فى الصدور غضة مخضوضرة

إلى أن يقول :

يا إخوة سيقبلون والليالى مقمرة
ويسلكون دربنا مواكبا مستبشرة
طريقهم ممهد وأرضهم محررة
فلتذكروا أنا عبرنا ألف ألف قنطرة
ولم تزل عظامنا من حولكم مبعثرة

ومثل ذلك قال الشاعر فى قصيدته «باشعر» وفى قصيدته « الصفصافة » يجعل الشاعر الفن ابنا له ، ويقيم من نفسه حارسا عليه يرعاه ويتعهده ، لينمو ويكبر ، ويصبح شيئا كبيرا فى حياة الناس والأصدقاء .

الثانى : الإيمان بالخير ، وبالحب ، حب الحياة ، وحب البشر ، وحب الإنسانية . . فالحب هو كما يقول الشاعر : ـ

الحب أى منجم
فى قلب إنسان تثرى
لون الضحا من لونه
والعطر بين الزهر

وهو يدعو الشعراء إلى الحب والغناء لكل الناس ، حتى لخصوم الحياة ، يقول يخاطب كل شاعر من أصدقائه فى الفن : ـ

غن لهم ، إرث لهم
قلوبهم من حجر
وافتح لهم نافذة
فى قلبك المخضوضر
أخى الحياة غنوة
بالحب ، حب البشر

وقصيدة (ذات ليلة) توحى بنزعة حب الخير المتأصلة عند الشاعر ، ففيها يقول : إن فى هذه الليلة ماتت امرأة فقيرة خيرة ، لم يبال بموتها أحد . .

كانت ككثير فى القرية
مصباحا خابى الأضواء

وماتت فيها كذلك امرأة غنية بخيلة :

عاشت ما عاشت ما وضعت
لبنات فى أى بناء
ما غرست بضع شجيرات
للمجهد بين الصحراء

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وفى هذه القصيدة لا يسلك الشاعر طريقة خطابيا مملولا يسلكه غيره من الشعراء . ولا يدعو فى إضجار إلى الخير دعوة الواعظين والأخلاقيين . ولكنه يكتفى بعرض الصورتين ، صورتى المرأتين . الخيرة الفقيرة التى لم يدر بموتها أحد : ـ

رحلت لم يدر بها أحـــد
من يدرى موت الفقراء
فى الفجر انتظرت يقظتها
كالعـــادة بعض الأشيـاء
القطة وصغار طـــيور
كانت تأتيها بغـــذاء
فبكاها الطير بزقـــزقة
وبـــكتها القطة بمواء

وهنا نجد الصورة صادقة متزنة مستمدة من الواقع المثير ... أما الصورة الثانية ففيها مغالاة وتضخيم كثير . .

كانت سيدة تخدمها آلاف عبيد وإماء ولا يريد الشاعر العبيد والإماء حقا ، لأن ذلك كان فى عصر مضى وانقضى منذ زمن بعيد ، إنما يريد بهم الفلاحين والفلاحات الذين يعملون فى أرضها كالعبـــيد . . ويستمر الشاعر فى تكبير هذه الصورة : ـ

إن ضحكت فتحت مقبرة
أو ألقت سلة أقـــذاء

ولماذا هذا التكبير والتجسيم ؟ إننا نلاحظ أن الشاعر كلما حاول تصوير الأغنياء صورهم بصورة مكبرة مغالى فيها ، ويتضح ذلك فى قصيدتيه : « أغنية إقطاعى » ، « وإنسان بلا أسطورة » ولا أحب هذا الغلو الذى ليس له داع فنى أو واقعى ، فالغنى فى ذاته ليس رذيلة وشرا ، وإنما الشر فى أن لا يؤدى الغنى به حقوق مجتمعه عليه .

الثالث : التفاؤل والابتسام للحياة ، والثقة بالفجر ، بالربيع ، بالسعادة ، وأنها لا بد أن تنتصر على الظلام ، والخريف ، والشقاء ، يصور الشاعر فى قصيدته « أمل » كيف مر الخريف على حياته ، فتركه شقيا محروما فقيرا ، ثم فجأة طلع الربيع ، ورمى له بشىء ، فإذا الصباح يطل مبتسما إليه .

وتبسمت كل الحيـا
ة تبسمت فى مقلتيه .

والشاعر لم ينظم قصيدته هذه لهذا الغرض وحده ، إنما بدأها مخاطبا حبيبته بأن تعود إليه ، لأنه صار يملك كل شىء ، فقد ذهب الخريف وجاء الربيع ، والشاعر لا يقول هنا إنه صار يملك كل شىء ، وإنما يقول « ما زلت أملك كل شىء » لشدة تفاؤله بالحياة ، وإيمانه بنفسه ، ولا يعنى كل شىء مما يملك ، ولكنه يعنى كل شىء من أسباب الوصول إلى النجاح فى الحياة .

وفى قصيدته « يا رياح الخـــريف » و « الكلمات الطيبة » نجد صورا من تفاؤله

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وابتسامته للحياة ، وكذلك نراه فى قصيدته « الشمس والعاصفة » التى نظمها من أسطورة يابانية وصور فيها الشمس وهى تنطلق من إسارها ، من الغيوم وآثار العواصف والأعاصير ، فتملأ الوجود حياة وروحا وأملا ...

— ٣ —

ومن ثقة الشاعر بالفن وبالحب ، وتفاؤله بالحياة ، نستطيع أن نتعرف إلى قصة حياته ، التى صور جوانب منها فى بعض قصائده ...

فى قصيدته « الوحدة » يتحدث عن شقائه وعزلته وهمومه وفقره وآماله الجريحة ، ويأسه القاتل ، وعن انتصاره على كل هذه الأسباب الموغلة فى الهزيمة .

وتتوالى الأحداث على الشاعر ، تموت أمه ، فيلتمس الحنان فى قلب أبيه ، ولكن الوالد سرعان ما يتزوج فتضيق الحياة أمام عينيه ، ويفقد عطف الأب حتى أصبح لا يجده ، يقول الشاعر من قصيدته « الطير الغريب » :

أبى لا يزال ، ولكن طوى
طوى ظله . . فاحتوانى الهجير
وأمى ماتت . . وكنت أنا
أعيش بحلم كبير ، كبير
وقلت : أبى سيكون أبى
وأمى وظلى ونبعى الغزير

ثم يصور كيف قابل وفاة أمه بالحزن ، وهو طالب صغير ، عاد من أسيوط فلم يجدها :

ولما رجعت تلمست أمى
وناديت لكنها لم تجب
لقد جئت من سفرى مجهدا
وودعت دنياى بين الكتب
ولما سئمت وبح النداء
عدوت لأبحث فى كل درب
وأبحث فى الغرف الخاويات
ملاعبها ها هنا لم تغب

ثم يستمر فى شعره الحزين إلى أن يقول :

ولما انتبهت وفتحت عينى
رأيت الهموم على منكبى
وأبصرت نفسى كطير غريب
يخاف من الطير ذى المخلب
وأعرض عنى كل المحبين
أعرض عنى حتى أبى

والقصيدة دفقة حية من شعور ، وفيض من قلب ذكى ، وفن ثرى .

وفى قصيدته « جنة الحب » يصور والده وحنانه الذى كان له وحده ، ثم كيف تزوج وأفرغت زوج الأب فى جنة طفله حقدها ، ويصفها بالتنين :

سنوات مرت كثوان
وإذا بالجنة مسودة

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

لفتهـــا نار ، تنين
قـد أفرغ فى الجنة حقده
كالفرخ الأزغب مرتاعا
فى العش وقد أصبح وحده
قد صرت ، فإحساس يتيم
إحساسى بالغربة بعده

وفى قصيدته « ثم افترقنا » يرثى أباه ، يذكر كيف نسيه بعد وفاة أمه ، ثم كيف تركه وافترقا ، ثم يقول :

قد مات وأصبح جثمانا
سيوارى بتراب اللحد
فشعرت ببركان الذكرى
يتمدد وحشا فى قيد

وهـذه الهموم والأحـزان والحياة المكدودة هى التى صاغت الشاعر ومواهبه وفنه أدق صياغة ، ودعته إلى أن ينظم كل مايشعر به شعورا صادقا ، وشعرا مؤثرا أخاذا .

— ٤ —

ولندع حياة الشاعر إلى فنه وشعره ، الذى يتميز بخصائص عدة :

الأولى : حلاوة موسيقى الشاعر ، وقصائد الديوان كلها ملتزم فيهـا الوزن الشـعرى والقافية ، وإن تعـــددت القافية للقصيدة الواحدة فى كثير من شعره . . والبحور التى نظم منها الشاعر هى البحور القصار غالبا ، فقد نظم من الرجز والخفيف والمتدارك الذى أكثر منه وهو وزن رائض ، ومن الوافر ومجزوء الكامل ، والسريع . . وفى الديوان قصيدة واحدة من البسيط ، عنوانها « إليها » .

وهذا يدل على عناية الشاعر بموسيقاه ، وجعل الشعر وسيلة من وسائل الغناء . . وكثيراً ما يستعمل لفظة غناء ومشتقاتها فى شعره ، وفى الديوان قصيدة عنوانها « هكذا غنى الفلاح » ، وهى تمثل فرح الفلاح بالإصلاح الزراعى وبأرضه الصغيرة التى أعطيت له ، وقصيدة أخرى عنوانها « أغنية عمل » .

الثانى : كثرة الصورة فى شعره ، يقول مثلا فى قصيدته « إفريقيا » التى تحدث عن وثبتها وتحررها :

إفريقيا تنهض واقفة
من رد إلى الميت صوابه
وقفت والريح مزمجرة . .
فازدادت فى الريح صلابة
بركان يتدفق ، نار
أمواج تهدر ، صخابة
سيل يتحدر ، أموات
تبعث ، تتحرك غابة

ومثل ذلك كثير فى شعره .

الثالث : بعده عن التقرير والخطابية فى شعره ومن ثم نجده يتناول موضوعات قصائده من طريق غير مباشر .. يريد أن يتحدث إلى الناس ليحبوا الخير ، فيتحدث إليهم عن

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

امرأتين ماتتا فى ليلة واحدة ، ويترك الذهن عملية الموازنة واستخلاص الحكم وأسبابه . ويريد أن يقول إن الربيع جاء بعد أن مات فى حياته الخريف ، فلا يذكر ذلك مباشرة بل يقول لحبيبته : عودى إلى فقد جاء فى الربيع وذهب الخريف ، وكأن ذلك غير مقصود من القصيدة . وهكذا .

الرابع : حب الشاعر للتكرار تأكيداً لمعانيه ، ومن مثل ذلك قوله :

وتسمع فى البعد ضجة عرس كبير كبير
وأمى ماتت وكنت أنا أعيش بحلم كبير كبير
قد مال نحوى هامسا ، ورمى بشىء لى ، بشىء
مازالت أملك كل شىء ، أى شىء ، أى شىء .

ويشير هذا التكرار إلى محاولة الشاعر إدراك أعماق نفسه وتصوير كل ما فى جوانحه من عواطف ومشاعر وأخيلة ومعان .

الخامس : بساطة الأسلوب والتعبير ، وإن كانت هذه البساطة قد تقوده إلى العامية حينا ، كما فى كلمة « المترهبين » وصحتها « المترهبنين » وقد تقوده إلى استعمال كلمات لم تستعمل كقوله فى فتاة صغيرة :

رحمانة رفت على موكبى .

وإلى التجوز النحوى حينا كقوله :

أم الأمل فى اللحد لاقوا الحماما .

بضم القاف للوزن ، وكان الواجب فتحها ولكن لو فتحت لانكسر الشعر .

وفى قصيدته « إنسان بلا أسطورة » يقول على لسان فتاة تتحدث عن غنى أحبها :

حمامتى ، فأرتمى بحضنه أنقر

وكلمة « حمامتى » هنا جاءت فى غير مكانها ، فهى تتحدث عن حب الغنى لها ولا تتحدث بلسانه . وإذا قلنا إن الذكر الباطنية قد قفزت بكلمة الغنى « حمامتى » وهو يكررها على سمعها ، فذكرتها على لسانها ، لتصور ما كان يخاطبها به من كلمات حب ، فإن ذلك يكون غموضا لا يغفر للشاعر .

ومع ذلك كله فإن بساطة الشاعر فى أسلوبه جعلته سهلا على الأذن ، خفيفا على القلب ، قريبا من الفهم . . ولا يناقض ذلك رمزية الشاعر فى بعض صوره ، فإن مرد ذلك إلى المعانى لا إلى الأسلوب .

وبعد فديوان « فى العاصفة » نغمة حلوة فيها صدق وصراحة وقوة طبع وسلامة ذوق ، وهى تدل على اكتمال الملكة عند الشاعر ، بما يصاحبها من طاقات فنية متميزة .

وأحب لشعراء اليوم أن يقرأوا هذا الديوان ويتفهموا منهج الشاعر فيه ، ويحكموا عليه أو له ، فقد يكون فى ذلك ما يفيدهم من حيث لا يشعرون .

محمد عبد المنعم خفاجى

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

أنباء وآراء

جائزة الدولة التقديرية :

لمولانا الزيات

يطيب لكاتب هذه السطور أن يحيي صاحب « الرسالة » بتقدير الدولة ، بعد أن انعقد على جبينه تقدير الجماهير طوال السنين زادها الله طولا ، وزاد في عمر صاحبها بركة وفي جهوده توفيقا

لقد كان الزيات خير رائد لمدرسة تحمل عنوان « الرسالة » ... فلا يقوى على أعباء « الرسالة » إلا ذوو الجد وأولو العزم ، ولقد كان الزيات جاداً في تكوينه لنفسه ، جاداً في كفاحه ، جاداً في أدبه ، يحترم عقول قرائه ، ويمحص الفكرة كما يتخير اللفظ والأسلوب .

وصاحب « الرسالة » كاتب هادف قبل أن يشقشق المشقشقون : هل الفن للفن أو الفن للحياة ، وهو مؤمن فنان ، يعرف أن الغيرة والحماس لا يغنيان عن الجمال : جمال الفكرة وجمال العبارة على حد سواء .

إن تلاميذ مدرسة « القرآن » قد عرفوا من زمن كيف يعبر عن مطالب الحياة بروائع الفن ، فقد اجتمعت في الدستور المعجز روعة « النظام مع روعة النظم » ، وجلال المعنى مع جمال البيان ...

وأحاسيس الفنان المرهف تلتقط احتياجات مجتمعة في سرعة واستيعاب ، وأجهزته الفنية تعالجها وتبرزها ألوانا شتى ... وهو في هذا كله يحقق ذاته كما يخدم مجتمعه في بساطة ويسر ، ودون تمزيق أو تفتيت .

إننا نحيي هذا الرائد السباق ، ونحيي آثار مدرسته على كياننا وثقافتنا ... فقد استهل الطريق الشاق في وقت تتكسر فيه الألسنة بالرطانة ، وتزيغ فيه القلوب بالإلحاد ، وتتداعى الأمة بالتمييع والخذلان !

ويحق على المجتمع العربي الذي شب عن الطوق ، فاضطر الاستعمار إلى الجلاء ، وبرزت شخصيته القومية والروحية والفكرية — يحق عليه بحكم شريعته في العدل وبحكم ما ياه في الفضل أن يشد على الأديب الكبير ... الذي ارتاد الطريق ، في أصالة وشجاعة ، وثبات وإيمان؟

فتحي عثمان

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

عيد العلم

شهدت القاهرة فى اليوم الخامس عشر من شهر ديسمبر ، والثامن عشر من شهر رجب حفلها السنوى الكبير فى تكريم العلماء والنابغين فى مختلف ألوان العلوم والفنون والآداب ، ووقف السيد / الأستاذ أحمد حسن الزيات فألقى أمام السيد / الرئيس جمال عبد الناصر كلمة شكر باسم جميع الفائزين بالجوائز التقديرية والتشجيعية ، وضمنها الإشارة إلى ما اتسم به هذا العهد من نهوض فى جميع مرافق الحياة وظهور الشعب بمظهره القيادى الاشتراكى فيه . وكان من أبلغ ما رد به الرئيس على ذلك وعلى تحيات الحاضرين أن أعلن أنه هو الآخر ينال جائزة فى كل اجتماع تقدم فيه الجوائز ، هذه الجائزة هى الاطمئنان على مستقبل الجمهورية العربية المتحدة والأمة العربية بصفة عامة

ويرى القراء فى غير هذا المكان كلمة الأستاذ أحمد حسن الزيات .

فرعون موسى :

السيد الأستاذ رئيس تحرير مجلة الأزهر الغراء

السلام عليكم وبعد : فقد جاء فى أهرام الجمعة ١٩ من جمادى الآخرة سنة ١٣٨٢ الموافق ١٦ نوفمبر سنة ١٩٦٢ م فى ص ٦ باب حقائق أن فرعون مصر الذى طرد بنى إسرائيل من بلاده لم يعرف ، وإن كان الاعتقاد السائد أنه رمسيس الثانى . .

ولا خلاف فى أن فرعون مصر هو مرنفتاح المشتهر باسم منفتاح وهو ابن رمسيس الثانى وخليفته . ويوجد فى دار الآثار المصرية لوح كبير من الحجر الأسود عليه قصة خروج بنى إسرائيل فى عهد مرنفتاح . والذى جعل الأستاذ برستد وهو من أعاظم العلماء فى تاريخ مصر القديم يتشكك فى اسم فرعون موسى أن جثته وجدت ، وقد قال فى تاريخه إن وجود جثة مرنفتاح يجعلنا نتشكك فى المعلومات التى تقول إنه فرعون موسى لأن فرعون موسى غرق فى البحر الأحمر بنص التوراة . هذا ما قاله برستد . وأقول إن القرآن الكريم نص على إخراج جثة فرعون ليكون آية لمن خلفه . فوجود جثة مرنفتاح تأييد القرآن الكريم إذا أضيف إليه النص التاريخى الهيروغليفى الذى فى دار الآثار أصبح الشك فى حقيقة فرعون موسى أمراً لا اعتبار له .

ومما يلاحظ أن جثة هذا الفرعون هى الوحيدة التى انفردت بين جثث الفراعنة المحفوظة فى دار الآثار بأنها تكسو بعض أجزائها طبقة من الملح . ومن العجيب أن أحد المؤرخين المعاصرين قال : إن وجود هذه الطبقة الملحية يدل على أن مرنفتاح كان مصاباً بالأملاح التى تسبب بعض الأمراض ومنها

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الروماتزم ـ ولست أدرى لماذا لم يفطن هذا المؤرخ إلى أن وجود هذه الأملاح نشأ عن أن جثة فرعون التى تشبعت بماء البحر المملح ثم بعد العثور عليها وضعت فى مواد التحنيط وأهمها النطرون ـ ومعلوم كيمائيا أن عنصر الصوديوم من مركبات ملح الطعام وهو أيضا فى النطرون ـ فلما وضعت الجثة المشبعة بماء بملح الطعام فى النطرون (وكلاهما قلوى) ـ طرد أحدهما الآخر فظهر على الجثة فانفردت بهذه الظاهرة دون باقى جثث الفراعنة .

وهذا شاهد مادى على صدق القرآن الكريم يدحض آراء الذين يتشككون فى القرآن الكريم وفى وجود الله سبحانه وتعالى من شيوعيين وملاحدة .

عبد اليعلوم النجار

دسوقس ـ بحيرة

المخدرات ممنوعة والقصص الفاجرة صناعة :

الحشيش والأفيون ممنوعان بحكم القانون ، ومنعهما يقلل من ضررهما ، ويحد من تفاقم خطرهما ، وإذا كان الاتجار بهما أو بأحدهما يؤدى إلى السجن ، وتناولها أو أحدهما يؤدى إليه أيضاً ، وكثيراً ما يؤدى إلى الموت ؛ فإن القصة المنحدرة تقتل معنوى الشباب ، وهدم للمجتمع الذى نعمل لبنائه .

والشباب طاقة مستعدة لأى نشاط : صالح ، أو غير صالح ، وصاحب القصة المنحدرة يستغل هذه الطاقة الاستغلال السيء ، فيملأ فراغ المراهق بالأفكار الملوثة ويسكب فى غريزته الظامئة ما يزيده للانحراف ظمأ ، ويوجه طاقته أسوأ توجيه

ونحن ـ كآباء محافظين ، إذا تحدثنا بين أسرتنا ـ نحرص على أن نترك من الحديث ما لا يصح أن يطرق أسماع أبنائنا وبناتنا ، ونلقى على الآباء والأمهات ، والمربين والمربيات ، تبعة كبرى ، فى توجيه الجيل الناشيء التوجيه الصحيح ، وإحاطته بإطار قوى نفيس من الرعاية ، يصون صورته وجوهره من التشويه ، والتلوث ، والتمزق !

فما بالنا نبيح كل حديث ، وندع من شاء يكتب ما شاء لمن يشاء ، وينفث فى وعى الناشئين والناشئات سموما من القصة المبتذلة المتبرجة !

أليس من واجبنا أن نمنع الفساد والانحلال ؟ « ومن حق النشء على الدولة أن تحميه ، وتقيه الإهمال الأدبى والجسمانى والروحى » .

إن المداد الذى يسود به الكاتب الكتب والصحف إنما هو دواء شاف ، أو سم زعاف ، وإن السم الذى يدسه بعض محترفى الأدب فيما يسمى القصص الواقعى لهو ـ كما قلت ـ أشد السموم خطراً وفتكا .

وتاجر القصة المنحدرة مثله كمثل بائع

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الحلوى المتجول ، الذى لا يحصل على الربح إلا من أيدى ضحايا أبرياء ، فى الحارات والأزقة ، لا يفتحون عيونهم ليروا الأتربة والذباب ، عند ما يفتحون أفواههم لالتهام الحلوى المكشوفة الملوثة .

وتاجر القصة المنحدرة يغافل القانون ، وهو واثق بأنه لن يعجز عن إثارة تمارته السطحى ، والانحدار به ، متملقا غريزته تملقا مكشوفا ، لأنه لا يملك وسيلة يستميله ويجذبه بها سوى تلك الوسيلة ؛ وغايته أن يضعف الجنسان أمام الغريزة الهائجة ، وأن تهون فى تقديرهما كل القيم .

إن الحشيش والأفيون يقتلان البشر ، ولكن تشديد العقوبة على تناولهما ، والاتجار بهما يقلل من ضررهما ، ويبقى الناس شرهما ، وأما السلاح الذى يدمر ويفتك ، ولا يرد خطره ، لأننا لا نحرمه ، فهو تلك السموم التى تدخل بيوتنا فى قصص وروايات ، فيقرؤها أبناؤنا وبناتنا على أنها أدب ، وتدخل السينما صورا متبرجة عارية ، فيشاهدها أبناؤنا وبناتنا على أنها ترفيه وتسلية ، وهى الوباء الذى تصعب الوقاية منه ، والذى يسحق قوانا المعنوية سحقا ، ويهدم كياننا من حيث لا ندرى !.

وقد يقول المحترف الهابط ، أو من يدافع عنه : هذا هو الأدب الواقعى ، وأقول إن الطاقة الهادمة تتجه إلى الانحطاط ، وتستسهله ، وتمضى فيه ، ولاسيما إذا وجدت تقاضيا وتهاونا ، بل تشجيعا ورعاية ، على عكس البانية التى تتجه دائما نحو الصعود ، وتجد فى الصعود لذة ، وإن كان شاقا ، والمشقة حلوة من أجل المجد ، وإعلاء البناء .

ومن صميم الواقع قصص : مجنون ليلى ، وعنتر بن شداد ، وخالد بن الوليد وغيرها وكم فى الواقع من مثل عليا فما لهم لا يطلقون كلمة الواقع إلا على الانهدار ، وما لهم يدافعون عنه بأنه الشىء الذى لا يمكن تجاهله ، أو التخلص منه .

إن فى الرجال من صنعوا المجد ، وأتوا من الواقع ما كان أحلاما ، وحققوا من الأمانى ما كان فى حكم المحال .

وإن فى النساء من بلغن مكانا رفيعا من التضحية ، والرضا بالحرمان فى ظل الحب النظيف ، بل منهن المحاربات اللائى شاركن الأبطال فى ميادين القتال .

إن العزم والقوة والإقدام فى الرجل العربى صفات جديرة بأن يكون مادة فنية للقصة الرفيعة التى توجه بها إلى المجد وإلى القوة .

وإن الحياء والخفر والصبر والتضحية صفات متوافرة فى المرأة العربية ، توافرا أكثر مما عندها من الصفات المضادة ، فلماذا لا نعرض صورا من الواقع فى مثله العليا .

عامر بحر

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

من بعيد :

إن المراقب لما تنشره صحافتنا خلال السنوات القليلة الماضية يلحظ زيادة مطردة فى نشر الأدب الخليع ، والأخبار المثيرة للغرائز البهيمية . والصور شبه العارية ، الجارحة للشعور السليم وللفطرة السليمة . ويشترك فى هذا صحفنا ومجلاتنا بدون استثناء وإن كان هناك اختلاف فى الدرجة فماذا ترمى الصحافة من وراء ذلك ؟ وماذا يريد الصحفيون بمثل هذه التفاهات التى لا تربى نشئا ولا تصلح جيلا ؟ .

وفى الواقع إذا نظرنا إلى الصحافة الغربية التى تعتبر بالنسبة لأمثال هؤلاء الصحفيين بمثابة مصدر الإلهام، وجدناها تختلف اختلافا جوهريا عن النمط الذى تسير عليه صحافتنا . فإنه مع التسليم بأن هناك صحفاً ومجلات متخصصة فى نشر مثل هذا الأدب وأشد منه إلا أن الصحف والمجلات المعتادة لا تتدهور إلى هذا المستوى حتى لا تؤذى بصر القارئ العادى ولا تدفعه من طرف خفى نحو الرذيلة ومن هذا نستشف أن التلميذ قد فاق أستاذه ولكن فى الطريق السقيم ذى العواقب الوخيمة .

ومن المسلم به أننا لو كنا نتبع أحكام ديننا الحنيف لكنا نرى مثل هذه الأشياء ، وما كان هناك حاجة لكتابة هذه السطور . ولكن مثل هذا الأدب الماجن ترفضه كل نفس إنسانية تبغى رقى الإنسانية والإنسان . ويأباه كل خلق قويم . ولما كنا بصدد مرحلة تكوين نشأ جديد وشباب قوى لكى يحمل أعباء المستقبل فإن مثل هذه الصحافة لا يمكن أن تؤدى إلا إلى هدم ما يبنى وإفساد كل ما ينشأ .

محمد سلطان أبو على
جامعة هارفارد

« المجلة » نشرنا هذه الرسالة لأنها تحمل إلينا من بعيد عاطفة قلب مسلم يحرص على مصلحة إخوانه ومواطنيه .

ويقيننا أن الصحافة وقد آلت بالتأميم إلى يد الأمة المؤمنة المتدينة ستتجه الاتجاه الذى يرضى عنه الكاتب وترضى عنه الأمة .

سافر إلى بيروت عبر البحر :

تحت هذا العنوان قرأت كلمة الأستاذ على برهان خلص منها إلى جواز كلمة « عبر » مضافة إلى شيء آخر كالبحر مثلا - كما يكتبه كثير من رجال العصر نثرا وشعرا - محتجا على صحة هذا الاستعمال بقول الشاعر سواد بن قارب فى وصف ناقته :

فشمرت عن ساق الإزار ووسطت
بى الذعلب الوجناء « عبر » السباسب

وأقول للأستاذ الفاضل : إن « عبر » هنا ليست مما نحن فيه ، وإنما هى وصف

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

للناقة ، جاء فى القاموس وغيره : ناقة عبر أسفار ـ مثلثة العين ـ أى قوية تشق ما مرت به ، وكذلك يوصف بها الرجل والجماعة ؛ تقول : رجل عبر أسفار ، ورجال عبر أسفار ، ومعنى البيت : ناقة قوية على شق الصحارى . وأما « عبر » المقصودة فهى بفتح العين وكسرها ـ والكسر أفصح ـ ومعناها شاطىء الوادى وناحيته ، تقول مثلا عبرت الوادى أو النهر : قطعته من عبره إلى عبره ، يقول المتنبي فى مدح سيف الدولة

فأبصرت بدرا لا يرى البدر مثله

وخاطبت بحرا لا يرى العبر عائمة

أى من عام فيه لا يرى شاطئه ، وإذن يكون معنى قولهم : سافر إلى بيروت عبر البحر ، يساوى قولهم : سافر إلى بيروت شاطىء البحر ، والخطأ فيه بين مما يحمل على وجه ولست أرى له وجها .

على الجندى

المثالية :

جاء بالعدد الأخير من مجلة الأزهر تحت هذا العنوان ما يلى :

« يرى القراء فى هذا العدد مقالا عن المثالية فى نظر الإسلام لفضيلة الأستاذ محمد المدنى ، وفضيلته من كتاب المجلة ومن عمداء إحدى كليات الجامعة الأزهرية ، ولهذا لم يكن بد من نشر المقال وإلقاء تبعة كلامه عليه دون غيره » .

ومعنى هذا الكلام كما فهمت شخصياً أن المدنى ينشر مقالاته باعتباره عميداً لكلية الشريعة فحسب ! ! وذلك خطأ واضح لأن الأستاذ المدنى كاتب إسلامى مرموق تحتل مقالاته كبريات الصحف العلمية والأدبية قبل أن يلى العمادة بأكثر من ثلاثين عاما ؛ ! ومجلة الأزهر ومن قبلها مجلة الرسالة لم تكن لتجعل من المنصب الرسمى سبيلا للنشر والذيوع ، ولا ندرى كيف تورط الأستاذ عبد الرحيم فودة فى ذلك ، وهو ممن يعرفون أقدار الناس . إن للأستاذ فودة أن ينقد الرأى ، ولكن ليس أن يقول ما ينكره العيان .

(أبو حسام)

التعليق :

ليست مكانة فضيلة الأستاذ المدنى موضع الخلاف فيما كتبت وإنما الخلاف فى نسبة المثالية إلى قول الله « وله المثل الأعلى » .

عبد الرحيم فودة

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

باب الفتاوى :

من أضابير لجنة الفتوى

بشرف عليه : ابراهيم محمد الأصيل

السؤال :

أنا مصرية مسلمة أعيش فى أمريكا ، ولا يوجد حولى من يرشدنى إلى حل لمشكلة دينية اعترت والدى ، وألخصها فى الآتى :

فى سنة ١٩٣١ تزوج أبى من سيدة فرنسية ، بعد أن أسلمت وكانت مسيحية ، وقد حسن إسلامها ، فأدت الصلوات ، وصامت رمضان ، ورزقهما الله بابنة عمرها الآن ثمانى سنوات. وقد حدث بعد هذه المدة أن اختلف والدى مع زوجته ، فحلف يمين طلاق وكرره ثلاث مرات فى وقت واحد . وبعد أن هدأت ثورته أفهمها أنها لا تجوز له إلا إذا تزوجت من شخص آخر ، فرفضت أن تتزوج من آخر ثم تعود لوالدى ، فتخالطا مخالطة الأزواج مرة ثانية ، وتناسيا موضوع الطلاق ، ولكن دهمت والدى الوساوس من جراء هذا الأمر ، فذهب إلى القنصل المصرى وشرح له الموقف ، فقام القنصل بكتابة خطاب يخبرها فيه بطلاقها من والدى ، فانفصلا على أثر ذلك بضعة شهور . ولكن عاودهما الحنين واكتشفا أنهما لا يستطيعان الفراق ، فتزوجا على الطريقة الأوربية ، وأتت زوجة أبى فى ظل هذا الزواج بطفل ، وانتابت أبى بعد ذلك حالة من تأنيب الضمير ، وصادف أن أدركته بعض الخسائر فى عمله فعزا ذلك إلى غضب الله عليه لما صدر منه ، ولهذا يريد البعد عنها ولا يدرى ماذا يفعل ، وشفقة بحاله رأيت الكتابة إليكم والاستفسار .

س ـ ح بأمريكا

[تاريخ ورود الخطاب ٨ أكتوبر ١٩٤٨]

الجواب

اطلعت اللجنة على كتاب س ـ ح المرسل من أمريكا إلى صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر ، والمحول إليها من فضيلته وتفيد : بأنه قد ذهب بعض الصحابة وكثير من التابعين إلى أنه لا يقع

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

بهذه الصيغة وإن تكررت فى وقت واحد إلا طلقة واحدة رجعية ، وقد أفتى بهذا بعض مشايخ قرطبة واختاره غير واحد من مشايخ الإسلام كشيخ الإسلام ابن تيمية، وقال الشوكانى فى نيل الأوطار : إنه الحق ، استدلالا بما ذكره من الأحاديث ، وهذا الرأى يتفق مع حكمة مشروعية تفريق الطلاق ثلاث مرات ، لأن الله سبحانه وتعالى لم يشرع تفريقه الا ليتدارك المطلق الأمر بعد الطلقة الأولى أو الثانية ، ويتدبر . فإذا تبين له أن المصلحة فى الطلاق سرّح الزوجة بإحسان ، وإن تبين له أن الخير فى بقاء الزوجة أمسكها بالرجعة ، وهذه الحكمة لا تتحقق فى إيقاع الطلاق ثلاثا بلفظ واحد . ولا بتكريره ثلاثا فى مجلس واحد وقد جرى القضاء من قبل سنة ١٩٣٠ على أن الطلاق المقترن بعدد الثلاث يقع واحدة بعد أن كان العمل من قبل على وقوعه ثلاثا ؛ ومما ذكرنا يتبين أنه لم يقع على والد السائلة إلا طلقة واحدة رجعية ، وبما أنه قد اتصل بزوجته قبل أن تنقضى عدتها كما هو الظاهر من السؤال فقد حصلت المراجعة بهذا الاتصال ، لأن الرجعة تحصل شرعا بالقول : كأن يقول الرجل لزوجته : (راجعتك أو رددتك لعصمتى) ، وتحصل أيضا بالفعل ولو بمقدماته كاللمس بشهوة . وظاهر أنه لم ينشئ طلاقا جديداً أمام السيد القنصل ، غير الذى وقع أولا على أنه لو فرض أنه أنشأ طلاقا آخر أمام السيد القنصل كان له أن يراجعها ، لأن له عليها طلقة ثالثة ، ولا تأثير للخطاب الذى أرسل إليها من القنصلية فى شىء من هذه الأحكام .

السؤال

١ — المغارسة جارية بين الناس على ما فى مذهب السادة المالكية من جميع الوجوه غير أنه حدث فى هذا الزمان شجر الخروع الذى فى الغالب ما ينبت من غير قصد، ولا يذكر فى عقد المغارسة ، فهل يعطى منه لرب الأرض ما يعطى له من الأشجار التى يطول مكثها فى الأرض أم لا ؟ مع أن عقد المغارسة فى الزيتون أو النخيل وإذا غرس الخروع فإنما يغرس لوقاية الأرض من الرمل أو الرياح ومكثه فى الأرض لا يتجاوز ستة أعوام تقريبا فما حكمه ؟ .

٢ — يحدث أن يموت أبو المرأة فلا تطلب ميراثها حتى إذا ماتت قام بنوها يطلبه فيمنعون منه بحجة أن حيازة ميراث الأم تجاوزت الخمسين سنة فهل يسقط الميراث لمدة الحوز المذكور أم لا ؟ وهل مدة الحوز التى يسقط بها الميراث متفق عليها فى المذهب أم لا ؟ .

صالح قماج صبراته ـ طرابلس

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الجواب :

نجيب عن الأول بأن شجر الخروع الذى وجد فى الأرض التى وقع العقد على غرس نوع من الشجر فيها (النخل والزيتون) .

هذا الشجر إن كان بالأرض قبل عقد المغارسة فهو لرب الأرض خاصة ، وإن وجد بعد عقد المغارسة فهو مشترك بين رب الأرض والعامل على حسب شرطهما من مناصفة أو مثالثة أو غيرهما ، سواء أنبته العامل أو نبت بنفسه.

وعن الثانى بأنه إذا كانت العادة جارية بأن المرأة لا تطلب من إخوتها ميراثها من أبيها خوفا منهم أن يقاطعوها أو لا يناصروها إذا وقع الخلاف بينها وبين زوجها كما هو المعروف فى بعض الجهات فسكوتها المدة الطويلة عن المطالبة مع حوز إخوتها لمقدار ميراثها لا يسقط حقها مهما طالت مدة السكوت والحيازة ، ولورثتها من بعد وفاتها أن يطالبوا بهذا الحق .

السؤال :

هل هناك ما يمنع من تفسير القرآن تفسيرا جديدا يشتمل على أحدث العلوم والنظريات ويخلو من الإسرائيليات ... إلخ

محمود رحبانى - بيروت

الجواب :

تفسير القرآن الكريم تفسيراً يشتمل على أحدث النظريات والعلوم يؤدى إلى حمل النص القرآنى على ما لم يقصد منه أولا وبالذات . والقرآن لم تقف نصوصه العلمية العامة عند حد معين ، بل هو لا يتعارض مع الواقع الذى يأتى به العلم ويثبته من نظريات ومعلومات تتفق مع عقيدة الإيمان وأحكام الدين الثابتة ، ويشهد لذلك ما بدا فى المجال العلمى حديثا من اكتشافات لم تكن قد ظهرت للناس من قبل .

وأما ما نوه عنه السائل من وجود قصص إسرائيلية فى تفسير بعض الآيات ، فذلك صحيح إلى حد ما ، غير أن الوعى العلمى الدينى لم يترك هذا بل قد بينه أتم بيان على يد المحققين من متقدمين ومتأخرين .

السؤال :

تقدم السيد / عبد العزيز البليدى الخطاط بتفتيش قناطر الدلتا بطلب للوزارة أشار فيه إلى أنه قد قرب على الانتهاء من كتابة المصحف بطريقة مبسطة تعطى القارئ نطقا صحيحا للكلمة وهى طريقة الإملاء الحديثة ويقترح كتابة المصحف بهذه الطريقة ويلتمس النظر فى الموافقة على تداوله ونشره بهذه الصورة ليستفيد منه الجمهور .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

وقد رؤى الرجوع إلى الأزهر فى ذلك للاختصاص ، فنرجو إبداء الرأى .

وكيل وزارة الأوقاف المساعد

الجواب

كان القرآن يكتب عقب نزوله فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم وبأملائه على كتاب الوحى ، ثم جمع فى الصحف على عهد أبى بكر ثم فى المصاحف على عهد عثمان ولم تكتب المصاحف فى عهد عثمان لتقرأ برواية واحدة وإنما كتبت لتقرأ بمختلف الروايات المشهورة ، والرسم الذى يتحمل ذلك إنما هو الرسم العثمانى فى جميعها .

وقد اختص القرآن بكلمات يتلفظ بها لا على نظام كلام الناس ، من ذلك أوائل السور ـ ألم ـ كهيعص ـ حم ـ عسق . . إلخ .

كذلك اختص بكلمات ترسم لا على نظام رسم كلام الناس : من ذلك زيادة الواو فى : سأوريكم آياتى ـ واليـاء بأييد ـ والألف فى لا أذبحنه ـ وكتابة الصلوة ـ والزكوة ـ والربو ـ بالواو مع نطقها بالألف ، وكذلك كتابة «والضحى» «وسجى» بالياء مع أن أصلهما الواو كالصلوة والزكاة ، وفتح تاء التأنيث فى مواضع مع ربطها فى أخرى إلى غير ذلك مما هو كثير فى القرآن وتكفلت ببيانه كتب الرسم الخاصة بالمصحف .

وقد أجمع الصحابة رضى الله عنهم على مصاحف عثمان التى كتبت فى عهده على حسب ما نزل به جبريل من عند الله وأقرأه الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه .

ورسم كتاب الوحى حين نزوله ، ثم أمر عثمان بتوزيع تلك المصاحف على الأمصار وتحريق ما سواها مما كان مكتوبا عند بعض المسلمين صيانة لوحدة الأمة ومحافظة على سلامتها من التفكك والضعف بسبب الاختلاف فى المصاحف .

فإذا نحن الآن أجزنا كتابة المصحف بغير الرسم العثمانى فإنما نفتح باب الفتنة ونكون قد ساعدنا أعداء القرآن على النفوذ إلى قداسته يغيرون ويبدلون حسب ما يريدون وفى ظل قواعد الإملاء الحديثة .

هذا — ولسنا مهما بلغت فينا الغيرة على كتاب الله والحرص على تيسيره وحفظه بأكثر فى ذلك من الصحابة رضوان الله تعالى عليهم وقد أقروا مصاحف عثمان ، وأقروا عثمان على أمره بتحريق ماعداها من المصاحف تحقيقاً لوعد الله تعالى المؤكد بحفظه فى قوله سبحانه : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » .

وإن محاولة التغيير فيما أجمع عليه الصحابة تعتبر تشكيكا فيما أثبتوه عن علم وقصد وحيطة فى جانب القرآن الكريم ، وذلك أمر خطير يجر علينا وبالا عظيما لا نستطيع رده إذ هو مساس بأصل الدين ومصدر التشريع الإسلامى

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الذى هو القرآن وذلك مالا يستسيغه مسلم على الإطلاق .

فالواجب على المسلمين إزاء ذلك أن يحافظوا على المصحف الإمام — مصحف عثمان — فلا يخالفوا رسمه بتغيير شيء من حروفه متابعة للصحابة رضوان الله عليهم فى سد باب الفتنة أن تنفث سمومها فى صفوف المسلمين بسبب ذلك .

وإن تذرع بعض العلماء لدفع الحيرة عن القارئ كأن يهدف إلى محاولة الاستغناء عن الموقف — المعلم — بمجرد القراءة فى المصحف .

فالقرآن شأنه خطير لابد فيه من الموقف — المعلم — ثقة عن ثقة يبلغ به النبى — صلى الله عليه وسلم — ليتصل السند الذى هو من خصوصيات هذه الأمة وليستطيع القارئ أن يعطى الحروف حقها من الإظهار والإدغام والإخفاء ونحو ذلك من الأحكام المبينة فى علم التجويد .

وحيث كان لابد من الموقف سواء أكتب المصحف بخط الإملاء الحديث — على فرض ذلك أم بخط المصحف الإمام ، فالإبقاء على الرسم العثمانى أحرى وأولى أن يتمسك به .

وإن تعلق شخص بما حدث فى المصحف من نقط وشكل وتعشير وتخميس وغير ذلك فإن هذا ليس تغييراً فى رسم المصحف ، ولا ينهض مبرراً للتغيير فى الحروف بالزيادة أو النقص أو التغيير فى الرسم .

فالمسلمون من لدن الصحابة والتابعين إلى اليوم على الإبقاء على هذه الحروف كما وردت جيلاً عن جيل وطبقة عن طبقة على نحو ما قررنا .

وخلاصة ما سلف أن الخروج على ما توارثناه فى شأن المصحف خروج على ما أجمعت عليه الأمة فى أمر كتابها (القرآن الكريم) وهو غير جائز .

السؤال :

١ — هل يجوز ذبح الحيوان أو الطير فى أى مكان من جسمه متى أدى ذلك إلى سيلان دمه .

٢ — هل يجوز فى الذبح استعمال الآلات الحديثة كالماكينات أو غيرها من الوسائل المستعملة فى بعض الجهات .

الدكتور فضل الرحمن
رئيس المعهد المركزى للأبحاث الإسلامية
بالباكستان

الجواب :

نفيد عن الأول : بأن الذبح الشرعى مكانا معينا من الحيوان أو الطير لا يجوز تعديه إلى أى مكان آخر ، وإن سال الدم من ذلك المكان . الآخر وذلك المكان المعين للذبح شرعا هو الحلق واللبة ـ الوهدة ـ وهى ما بين الصدر والعنق ، لإجماع الأمة على ذلك ، ولما روى

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

عن قوله صلى الله عليه وسلم « الذكاة فى حلق اللبة » ، وأيضا هو مجمع العروق ، فالذبح فيه أيسر على الحيوان وأسهل فى خروج روحه وأكثر خروجا للدم ، فيكون أطيب للحم الحيوان ، وهو الغرض المقصود من الذبح . نعم ـ غير المقدور على ذبحه فى ذلك المكان كبعير ند ، أو حيوان سقط فى بئر مثلا فيجوز ذبحه بعقره عقرا مزهقا للروح فى أى مكان من جسمه ، بحيث يكون من شأن العقر فيه خروج الدم وزهوق الروح بسبب ذلك العقر وحده ، فلا يكفى العقر فى نحو الحافر والذيل والقرن ، ولا من كون رأسه فى الماء مثلا بحيث لو ترك لمات وذلك لما روى رافع بن خديج قال : « كنا مع النبى صلى الله عليه وسلم فند ـ شرد ـ بعير وكان فى القوم خيل يسيرة فطلبوه فأعياهم فأهوى إليه رجل بسهم فحبسه الله ـ قتل ـ فقال النبى صلى الله عليه وسلم إن لهذه البهائم أوابد كأوابد الوحش فما غلبكم منها فاصنعوا به هكذا متفق عليه » . ولما جاء أنه حرب ـ هاج ـ ثور فى بعض دور الأنصار فضربه رجل بالسيف وذكر اسم الله ، فسئل عنه على رضى الله عنه فقال : « ذكاة وحية » ـ سريعة ـ وأمرهم بأكله ـ وجه الدلالة : أنه لم يتحر مكان الذبح ولم ينكر ذلك أحد من الصحابة وأنه تردى ـ سقط ـ بعير فى بئر فذكى من قبل شاكلته ـ خاصرته ـ فبيع بعشرين درهما ، فأخذ ابن عمر عشر هذا البعير بدرهمين ، فدل على أن ذبح غير المقدور عليه يحصل بعقره فى أى مكان فى جسمه .

ونفيد عن الثانى ـ بأنه لا مانع شرعا من استعمال الآلات الحديثة فى الذبح من الماكينات وغيرها متى كانت محددة مسيلة للدم كالسكين ونحوه ، ولم يكن إزهاق الروح بها بخنق أو نحوه واستعملها من تحل ذبيحته من مسلم أو كتابى ، لما جاء عن النبى صلى الله عليه وسلم « وما أنهر ـ أسال ـ الدم وذكر اسم الله عليه فكلوا ليس السن والظفر » . فكل محدد أسال الدم من سكين أو حجر أو خشب أو ليطة ـ قشرة القصب ـ داخل فى عموم الحديث بل إذا كانت الآلات الحديثة أحد وأسرع فى الذبح كانت أولى بالاستعمال لأنه من باب الإحسان والرفق بالحيوان قال صلى الله عليه وسلم : « إن الله كتب الإحسان على كل شىء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحد أحدكم شفرته ، وليرح ذبيحته » . وقوله فى الحديث ، وذكر اسم الله عليه ، محمول على الندب عند الشافعية وليس شرطا إجماعيا فى حل الذبيحة ، بل المراد ألا يذكر اسم غير الله تعالى فإن ذكر عليه غير الله تعالى كان حراما لقوله تعالى : « حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به » .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

بين الصحف والكتب

اختيار وتعليق

عبد الرحيم فوده

هذا القرآن وذلك الكتاب

لو كان هذا القرآن كلام محمد - عليه السلام - لكان خليقا بأن يحتفل له كل عربي من كل مذهب ودين ، لأنه كان ولا يزال الكتاب الذي لا يضاهيه أو يدانيه كتاب آخر لعالم أو باحث أو مصلح ، ولأن العرب رأوا على هداه لأول مرة طريقهم إلى القوة والعزة والحضارة ، وصاروا بفضله في فترة لا يحسب لها حساب في عمر الأمم أقوى أمة . وأعز أمة . وأمجد أمة . وأسعد أمة .

بل لو كان هذا القرآن كلام محمد لكان خليقا بأن يحتفل له كل إنسان من كل جنس ولون ودين ، لأنه كان ولا يزال الكتاب الذي لا يضاهيه أو يدانيه كتاب آخر في توخي الخير العام للناس جميعا ، وفي إقامة صرح الاستقرار والسلام على قواعد العدل والإخاء والتعاون على البر والتقوى « يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » ، « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى » ، « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين » ، « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » ، « لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » إلى آخر ما تفيض به آيات القرآن وعظاته من معان سامية . ومبادئ عالية . لو أخذ الناس بها أنفسهم واسترشدوا بها في سلوكهم . لكان لهم منها نظام يجمعهم على السلام والوئام ، والتعاون التام على الصالح العام .

لو كان هذا القرآن كلام محمد لكان هذا موضعه وموقعه من نفوس الناس جميعا فكيف به وهو كلام الله الذي كان ، وما يزال ، وسيظل المعجزة الخالدة للناس جميعا ، والذي حمله ونقله إلى الناس جميعا . ؟ كيف به وهو الذي بقي يتصدى ويتحدى الإنس والجن أن يأتوا بمثله متظاهرين متآزرين « قل لئن اجتمعت

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » .

لقد بقى هذا القرآن على ضعف صلة المسلمين بمعانيه وبعوامل القوة فيه محفوظا فى الصدور والسطور . لم ينله تحوير أو تغيير ، وبقيت لغته هى اللغة التى امتلأت بها آذان الغابرين من آبائنا العرب ، وكتابته هى الكتابة التى امتلأت برسومها أعينهم ، وكان ذلك تصديقا لأخباره بالغيب فى قوله تعالى « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » ، بل كان تطبيقا لتسميته قرآنا وكتابا فى قوله تعالى « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » وقوله « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين » .

يقول المغفور له فضيلة الدكتور محمد عبدالله دراز فى كتابه النبأ العظيم : وفى تسميته بهذين الاسمين (قرآن وكتاب) إشارة إلى أن من حقه العناية بحفظه فى موضعين . لا فى موضع واحد ، أعنى أنه يجب حفظه فى الصدور والسطور جميعا ، أن تصل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ، فلا ثقة لنا بحفظ حافظ حتى يوافق الرسم المجمع عليه من الأصحاب المنقول إلينا جيلا بعد جيل على هيئته التى وضع عليها أول مرة ، ولا ثقة لنا بكتابة كاتب حتى يوافق ما هو عند الحفاظ بالإسناد الصحيح المتواتر ، وبهذه العناية المزدوجة التى بمثها الله فى نفوس الأمة المحمدية اقتداء بنبيها . بقى القرآن فى حرز حريز إنجازا لوعد الله الذى تكفل بحفظه حيث يقول « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » ، ولم يصبه ما أصاب الكتب الماضية من التحريف والتبديل وانقطاع السند ، حيث لم يتكفل الله بحفظها ، بل وكلها إلى حفظ الناس . فقال تعالى « والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله » أى بما طلب إليهم حفظه . والسر فى هذه التفرقة أن سائر الكتب السماوية جىء بها على التوقيت لا التأبيد ، وأن هذا القرآن جىء به مصدقا لما بين يديه من الكتب ومهيمنا عليها فكان جامعا لما فيها من الحقائق الثابتة زائدا عليها بما شاء الله زيادته وكان سادا مسدها . ولم يكن شىء منها ليسد مسده ، فقضى الله أن يبقى حجة إلى قيام الساعة وإذا قضى الله أمرا يسر له أسبابه وهو الحكيم العليم » .

« ع . ف »

من جريدة الشعب

تعقيب

لعله لم يكن يدور بخلد فضيلته رحمه الله أن القرآن سيسجل على « اسطوانات » و « أشرطة » ، فقد تيسر بذلك سبب ثالث من أسباب حفظه إنجازا لوعد الله إذ يقول « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » .

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

حبل الله :

قال صلى الله عليه وسلم : « القرآن حبل الله المتين . لا تنقضي عجائبه ، ولا يخلق من كثرة الرد ، من قال به صدق ، ومن عمل به رشد ، ومن اعتصم به هدى إلى صراط مستقيم » .

من تفسير الكشاف

كن رجلا ..

وكن رجلا كالضرس يرسو مكانه
ليطحن . لا يعنيه حلو ولا مر
ولا تتوقع أي جنبيك واقع
إذا انطبقت يوما حوادثها النكر
ولكن تلق الدهر غير مفزع
بصدرك والتعر الخطوب كما تعرو
الرافعي

من كتاب المساكين

المؤمن القوي :

.. علينا إذا أردنا أن نأخذ مكاننا من جديد في قيادة الإنسانية أن نعتقد ـ اعتقادا حقا يظهر أثره في كل ما نقول أو نعمل ـ ما يراه شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال من أن المسلم لم يخلق ليندفع مع التيار ، ويساير الركب البشري حيث اتجه وسار ، بل خلق ليوجه العالم والمجتمع والمدنية ، ويفرض على البشرية اتجاهه ويملي عليها إرادته ، لأنه صاحب الرسالة . وصاحب العلم اليقين ، ولأنه المسئول عن العالم وسيره واتجاهه ، فليس مقامه مقام التقليد والاتباع ، إن مقامه مقام الإمامة والقيادة ، ومقام الإرشاد والتوجيه ، ومقام الآمر والناهي . وإذا تنكر له الزمان . وعصاه المجتمع وانحرف عن الجادة ، لم يكن له أن يستسلم ويخضع ويضع أوزاره ويسالم الدهر ، بل عليه أن يثور عليه وينازله ، ويظل في صراع معه وعراك ، حتى يقضي الله في أمره ، إن الخضوع والاستكانة للأحوال القاسرة والأوضاع القاهرة . والاعتذار بالقضاء والقدر من شأن الضعفاء والأقزام ، أما المؤمن القوي فهو بنفسه قضاء الله الغالب ، وقدره الذي لا يرد ..

من مقدمة الكتاب
« ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين »
لأبي الحسن الندوي

مسلم ..

أسرت قريش مسلما في غزوة
فمضى بلا وجل إلى السياف
سألوه هل يرضيك أنك سالم
وفداك النبي فدى من الإجحاف
فأجاب . كلا : لا سلمت من الردى
ويصاب أنف محمد برعاف

محمود غنيم
من مجلة الرسالة

أبو ذر الفاضلي / مكتبتنا العربية

الإمعة

لا يكن أحدكم إمعة : يقول أنا مع الناس . إن أحسن الناس أحسنت وإن أساءوا أسأت ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا ، وإن أساءوا أن تجتنبوا إساءتهم :

حديث شريف
من كتاب المنتخب

الروح

يقول « بيكون » حين يخرج الإنسان من الحياة البدائية التي تكون التقاليد فيها مسيطرة على الحياة ، يجد المرء نفسه يعيش في عالمين ، ويخضع لولاءين ... فهناك العالم المألوف الذي يعرفه عن طريق حواسه ، وهناك عالم قريب إلى ذهنه ، ولا يعرفه إلا بعيني عقله ، وهو - الإنسان - مشدود بين هذين القطبين للوجود ، وهذا الصراع بينهما هو الموضوع الخالد لأحاديث البشر .

إن الإنسان لا يستطيع أن يمنح ولاءه كله لأي من العالمين ، والتباين الساند بينهما هو ما يصنع تماسته ، والتوافق العرضي بينهما في حياة القديسين وأعمال الأبطال والعباقرة هو ما يصنع أمجاد الإنسان .

لم يقل « بيكون » ما هي الروح ، ولم يتحدث - كما يتحدث الفلاسفة - عن طبيعتها أهي أزلية أبدية أم أبدية لا أزلية ؟ ولكنه كشف عن جانب « علوي » في الإنسان يدعوه إلى التسامي والعلو على حين أن جانبا آخر في الإنسان يجره إلى الانحدار والإسفاف

أتقول إن الجانب المتسامي هو الروح أو النفس ، وأن الجانب المسف هو الجسد . لك أن تفهم هذا ، ولكن « بيكون » يكره أن يكون له موقف مع أشياء لا تقع تحت الملاحظة والتجربة كالنفس والروح ونحوهما إنه يحدثك عن شيء تستشعر وجوده في كيانك . يحدثك عن شيء عال متسام فيك . ينزع بك إلى مستويات رفيعة من الفضائل والأخلاق ولكنه مشدود إلى دواعي الجسد ومطالبه ، ولك أن تفهم من هذا ما تشاء .

عبد الكريم الخطيب
من كتابه قضية الألوهية بين الفلسفة والدين

« ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا .

قرآن كريم